

مصر الكبرى

أحمد المسلمانى

أحمد المسلماني

مصر الكبرى

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

الكتاب:

مصر الكبرى

المؤلف:

أحمد المسلماني

رقم الإيداع:

2012/2891

الترقيم الدولي:

978-977-5238-19-1

* * *

الغلاف:

كريم آدم

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

* * *

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

* * *

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885296 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

أحمد المسلماني

مصر الكبرى

إهداء

إلى أمي السيدة سعاد الصاوي

التي علمتني أن للنزل وطن صغير

وأن الوطن منزل كبير

وأن انهيار الأحلام الصغرى لا يعني شيئا

ما دام حلمٌ واحدٌ كبير.. لا يزال بالإمكان

أحمد السلماني

مصر الكبرى من النيل إلى الفرات..
مقدمة

بدايات

قضيتُ طفولة محظوظة للغاية.. كنتُ تلميذاً مشهوراً في قريتنا.. وكانت قريتنا- كفر الدوار مركز بسيون، محافظة الغربية- هى الأصغر في المنطقة كلها، كل قريتى تعادل مساحة قصر واحد من قصور الأثرياء على أطراف القاهرة.

لكننى كنت أشعر بأن قريتى هى العالم.. إذا ذهبنا إلى «جُرن» بائس لنلعب الكرة.. نركض في إخلاص ونتشاجر في صدق كأن العالم يحبس أنفاسه انتظاراً لنتائج مباراتنا.

وكنا إذا ذهبنا للصلاة.. نتشاجر من جديد على من يكون الإمام ومن يكون المأموم.. وعلى من أحفظنا للقرآن وأعلمنا بالحديث كأن مصير هذا الدين رهن بصراع أطفال في الصفوف الخلفية للمصلين.

وكنا إذا بدأ طابور الصباح ارتفعت دقات قلوبنا.. ستبدأ الإذاعة المدرسية بعد قليل.. ثمة كلمة الصباح، وحكمة اليوم، وكلمة السيد ناظر المدرسة.. كان ميكروفون الإذاعة من الحديد الضخم.. ربما كان وزنه ثلاثة كيلوجرامات.. وكان سلك الميكروفون ممتداً بلا نهاية كأنه قادم من المجهول.. وكانت مكبرات الصوت تتجه إلى قبلى وبحرى.. فيسمع كلمة الصباح الفلاحون في الحقول، والقاعدون في المنازل، والعابرون في الشوارع.

تقطن شقيقتى الكبرى «هانم» إلى جوار المدرسة.. ولأنها تزوجت قبل دخولى المدرسة.. فقد كانت تعتبرنى ابناً لها، كانت هانم تصعد إلى سطح منزلها لتسمع كلمة أخيها عبر الميكروفون.. ثم تأتى في الفسحة فتأخذنى خارج الحوش ثم تبدأ الإشادة بروعة الأداء، وعظمة الأفكار.. وتمنحنى مع فيض الثناء بعض السندويتشات والقبلات.

أشعرتنى «هانم» كان العالم كله ينتظر كلماتى، وأن الأسطح تمتلئ بمعجبين ومعجبات لا شاغل لهم إلا انتظارى من الصباح إلى الصباح.

هكذا سارت المقدمة العامة لحياتى.. إحساس هائل بالامتياز.. ضمن صحبة وأصدقاء كان لديهم الإحساس ذاته.. صراع على الإمامة كاننا علىّ ومعاوية، وصراع في ملاعب بدائية كأننا كأس العالم.. وصراع على الميكروفون كاننا نقود العقل البشرى إلى حيث نريد.

كانت القرية هى العالم.. وكنا القوى العظمى والقوى البازغة التى تتصارع بين جنباته.

لقد مضيت على هذا النحو من الاستعلاء الطفولى والغرور البدائى وسط أصدقاء، لا ندرك جميعاً فضيلة التواضع، ثم كانت الصدمة الأولى.. أولى معارك المعرفة بعيداً عن «كلمة اليوم»، كان ذلك في السادس من أكتوبر عام 1981.

رصاص

كان يوم الخامس من أكتوبر عام 1981 يوماً مهماً.. كنت في السنة السادسة الابتدائية، وكنا نعد لحفل مدرسى في اليوم التالى، سيكون السادس من أكتوبر.. لم تكن سيناء قد عادت كاملة لنا.. لكن نصر أكتوبر كان قد أعاد إلينا أنفسنا وعلينا إذن أن نجهز كلمات وأشعاراً وخطباً حماسية وما يتناسب من القرآن والحديث مع مقام الاحتفالات بالنصر المجيد.

جاءت ظهيرة السادس من أكتوبر في ذلك الخريف الصادم مختلفة تماماً، كان صوت الرصاص أمام منصة الرئيس السادات خليطاً من حقائق السياسة وخيال المسلسلات التى كنا ننتظرها في القرية كل مساء.

هل هذا رصاص حقيقى.. أم أنهم يمثلون؟ هل اتجهت الرشاشات إلى صدر الرئيس أم أن هذا جزء ساحر من عرض عسكرى بارع الإعداد والإخراج؟

سألنا أنفسنا - وسط مخاوف الطفولة - ما الذى جرى؟ وما الذى سيجرى؟ كانت أول إشاعة في القرية أطلقتها سيدة لا تعرف الكثير عن السياسة ولا غيرها: لقد قتلوا السادات، قام كبار القوم بنفى تلك الإشاعة على الفور.. وقال المتابعون منهم.. الرئيس أصيب فقط وهو في

الطريق لمستشفى المعادى، والرئيس سيكون بخير هذا المساء.

ساعات قليلة.. كان الذين استمعوا إلى هيئة الإذاعة البريطانية وغيرها قد أكدوا وفاة الرئيس المؤمن برصاص أفراد من الجيش الذى قاده للانتصار، كانت هذه بداية النهاية لما عشته مع أصدقائى من غرور وخيلاء.. علينا أن نعترف الآن باننا لا نعرف شيئا ولا نفهم شيئاً.. وأن كل ما قلناه في الإذاعة المدرسية مجرد صوت مرتفع وكلام مرصوص.

***

جاءت صدمة اغتيال الرئيس السادات قوية وعميقة.. لماذا قتَل ضباطٌ من الجيش الرئيس الذى عبر خط بارليف وهزم إسرائيل؟ ولماذا اختاروا يوم العرض العسكرى العظيم الذى يرمز لكسر إسرائيل ومجد بلادنا.. ليكون يوم النهاية القاسية لقائد الجيش والنصر، ثم كانت صدمة السياسة بعد صدمة الدماء..

لماذا لم يحزن الناس على أنور السادات؟.. لماذا كانت الشماتة على نطاق واسع.. ولدى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ لماذا وزع بعض الناس «الشربات» كأنه فرح، وأطلق بعضهم الرصاص إعلاناً للبهجة والسرور. لقد سألت بعض الشامتين في اغتيال السادات مساء ذلك اليوم الدامى: من هؤلاء الذين قتلوه؟ وهل سيكون منهم الرئيس الجديد؟ وهل سندخل الحرب من جديد؟ كانت إجابة الشامتين واحدة: لا يهم أى شىء- المهم مات السادات!

سفارة

كانت تحيّة العلم.. تحيا جمهورية مصر العربية (ثلاث مرات).. يعيش الرئيس محمد أنور السادات (ثلاث مرات).

فى السابعة من صباح أول يوم دراسى بعد الاغتيال.. كان علىّ أن ألقى كلمة الصباح في الإذاعة المدرسية.. ثم أقوم بتحية العلم.. قلت لمشرف طابور الصباح: ماذا سنقول في تحية العلم هذا الصباح؟ قال لى: كما كنتَ تحيّى بالأمس.. فقط ستغير اسم الرئيس.. ستقول: تحيا جمهورية مصر العربية.. يعيش الرئيس محمد حسنى مبارك.

قلت للمشرف: لكن الأستاذ فلان قال.. إن رئيس مجلس الشعب الدكتور صوفى أبوطالب سيكون الرئيس بحكم الدستور.. وهو ومجلس الشعب بعد ذلك سوف يقررون من هو الرئيس. قال لى: لا صوفى أبوطالب ولا مجلس الشعب لهم رأى ولا دور في هذا «الكلام

الكبير.. سيأتى إليهم الأمر: فلان رئيساً.. وأنتم وافقتكم بالإجماع، ولن ينطق أحد.. اذهب إلى الطابور.. تحية العلم.. كما قلت لك.. تحيا جمهورية مصر العربية.. يعيش الرئيس محمد حسنى مبارك.

★★★

كان ذلك هو المشهد السياسى الأول من حياتى.. اغتيال رئيس.. وشماتة جمهور.. وتحية علم جديدة.. مات الرئيس.. عاش الرئيس.

مضت سنوات دراستى الثلاث في مدرسة جناج الإعدادية على نحو هادئ تماماً.. لكن السنوات الأكثر حيوية وصخباً كانت في مدرسة ناصر الثانوية في بسيون، تحمل مدرستنا اسم الشهرة للرئيس جمال عبدالناصر.. لكن معظم النشطاء فيها أقرب للمشروع الدينى وضد المشروع الناصرى. كانت تلك هى المرة الأولى التى ألتقى فيها أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين.

كان أبرز ما سمعته في تلك الفترة وأصابنى بالصدمة ولاحقنى بالفزع، تلك الخرافة المرعبة حول «إسرائيل الكبرى.. من النيل إلى الفرات». كان كل من سمعتهم يتحدثون عن حتمية قيام إسرائيل الكبرى عام 1997. لقد وجدت هذا اليقين بقيام إسرائيل الكبرى عند جميع من عرفت، وكانت أبرز عبارة في تلك الخرافة التى آمن بها الجميع: «إن علَم إسرائيل يحتوى على خطين أزرقين وبينهما نجمة داوود، والخطان الأزرقان هما النيل والفرات».. وتفسير ذلك أن حدود إسرائيل الحالية هى حدود مؤقتة لكن حدودها الحقيقية- كما يعبّر عنها علَم الدولة- هى مصر والعراق وما بينهما.

ويمتد هذا التحليل إلى خرافة فرعية ناتجة عن الخرافة الكبرى: هل تعرف لماذا توجد سفارة إسرائيل في الجيزة وليس القاهرة؟، لماذا لم يتم اختيار موقع السفارة في المنيل أو المعادى أو جاردن سيتى؟.. والإجابة: لأن المعادى وجاردن سيتى تقعان ضمن إسرائيل الكبرى.. وليس من المنطقى أن تعتمد الدولة سفارة لها لدى نفسها!

بروتوكولات

التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية «المرموقة» وأنا نصف يائس. فلقد كانت تتكرر على مسامعى من بعض الطلبة تلك الخرافة حول نشأة إسرائيل الكبرى. أعرف أننى

سأتخرج في موعدي الطبيعي عام 1992.. يا لسوء الحظ التاريخي.. لماذا جاءت ولادتي وحياتي في هذا الزمن؟ إنني لن أنعم بعد التخرج إلا بضع سنوات لأجد بلادي محتلة.. ستعبر إسرائيل نهر النيل إلى الجيزة وستعبر نهر الفرات إلى الشاطئ الآخر.. ستبدأ إسرائيل الكبرى وستبدأ معها مصر الصغرى!

ماذا عساني لو التحقت بالسلك الدبلوماسي مثلما ينوي زملائي إذا كان عمر الاستقلال وعمر السفارات أمامه خمس سنوات من تخرجنا؟! وماذا عساني لو التحقت بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.. إنهم يبحثون هناك في دوائر ثلاث: الدائرة المصرية والدائرة العربية والنظام العالمي.. لكنني قد لا أتمكن من التعيين في الأهرام قبل أن تنتهي الدائرتان المصرية والعربية أمام دائرة إقليمية جديدة.. هي إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات!

الحمد لله الذي منحني الهدوء بعد فزع.. والأمن بعد خوف.. فقد بدأت أقرأ مؤلفات حامد ربيع وعبدالوهاب المسيري وتقارير مركز الأهرام.. لأقف على حقيقة أننا إزاء دولة عادية.. بل دولة مأزومة.. يمكن لأطفال إرباكها رمياً بالحجارة. لقد ظللت أحمل حقداً في داخلي على تلك السنوات التي عشتها مرتعداً من تلك الخرافة القاتلة: إسرائيل الكبرى.

ولقد واصل ذلك الحقد معي حتى نهاية عام 1997، وكتبت في الأهرام مطلع شهر يناير عام 1998 مقالاً شامتاً بعنوان «خرافة إسرائيل الكبرى عام 1997».

كانت تساند تلك الخرافة مجموعة خرافات أخرى تضمنها كتاب شهير بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون».. ولقد قرأت مقدمة لهذا الكتاب تحكي قصصاً مثيرة حول المطاردات الصهيونية للمطابع والمكتبات والمترجمين وربما القراء.

* * *

حظي ذلك الكتاب التافه «بروتوكولات حكماء صهيون» باهتمام كبير.

أتذكر جيداً تلك الليلة السيئة التي قضيتها في قراءة الفصول الأولى من هذا الكتاب.. كنت في المدينة الجامعية لجامعة القاهرة في «بين السرايات» واستلقيت فوق سرير غرفتي.. يد تحمل الكتاب ويد تمسك بكوب شاي ثقيل!

لم أتخيل ما قرأت.. إنه كتاب رديء يدعوك إلى اليأس.. حيث لا أمل في أي شيء..

هناك شلة "آلهة" يحكمون هذا العالم.. إنهم يديرون كل شىء.. قادرون على كل شىء.. يخططون لكل شىء.. لا يأخذهم خطأ ولا خوف.. أما نحن المصريين والعرب والمسلمين فلا شىء.. كأننا خِراف في حظيرة.

إننى حتى اللحظة لا أفهم لماذا احتفى العقل العربى بهذا الهراء.. كيف لهذا العبث أن ينطلى على بعض مثقفينا فيجدوا فيه عملاً مسؤولاً وسياسة جادة؟.. ما هذه الهالة التى أحاطت بهذا الكتاب؟ لو أن طفلاً رضيعاً قرأ كتاب البروتوكولات لتبول عليه ثم مضى في طريقه.. واثقاً من نفسه ودينه ووطنه.. فكيف أخطأت أنا وبعض جيلى فأخذنا هذه البروتوكولات على محمل الجد.. كيف انهزمنا حين آمنا بحتمية الهزيمة؟

كم هو مؤلم أن تشهد هزيمة بعد حرب.. لكن.. كم هى جريمة حين تحيا هزيمة بلا حرب!

* * *

أصبح العالم بعيداً عنا بمثل ما لم يكن من قبل.. لم يحدث قط في كل تاريخنا أن كنا بعيدين عن سقف العالم كما نحن الآن.. إننا ننظر إلى العالم من أراضٍ واطئة لم تكن أبداً طيلة آلاف السنين.. خفيضة كما هى اليوم.

(1)

أصبح أى حلم في بلادنا مستحيلاً.. لا وجود لنا في كأس العالم.. وحلم الحصول على كأس العالم مستحيل.. لا وجود لنا في السينما العالمية.. وحلم حصولنا على جوائز العالم الكبرى مستحيل.. لا وجود لعاصمتنا بين المدن الأجمل.. واحتمالات تميزها على فيينا وباريس مستحيلة.. لا وجود لجامعاتنا ضمن المئة الأولى.. ووجودنا ضمن العشرة الأوائل مستحيل.

إن جغرافيا المستحيل تمتد طويلاً طويلاً.. وإنها لتغطى نفوس الغالبية العظمى من مواطنينا.. إنهم يشعرون أننا أصبحنا خارج حركة العالم.. وكل طموحاتنا أن نبقى على قيد الحياة.

(2)

لا سبيل إلى المستقبل بتلك النخبة القاحلة.. ولا تلك النفوس المهتزة. ثمة هزة حضارية لا بديل عنها... وظنى أن أولى خطوات الإصلاح الحضارى في بلادنا هى: خلق "الأنا"

عند المصريين. لقد تواضع المصريون أكثر مما ينبغي وتواضعت أحلامهم أكثر مما يحتمل. كان المصريون ينظرون إلى «الآخر» من أعلى.. وكانوا يحسنون معاملة ضيوف بلادهم.. كرماً وخلقاً، لكن المقامات قد تبدلت.

أصبح المصريون ينظرون إلى كل العالم من أسفل.. وأصبحوا يحسنون معاملة ضيوف بلادهم.. خوفاً وطمعاً.

(3)

اختفى المصريون القابضون على حضارتهم، وتصدر الرعاع الذين صاروا كالبغايا أمام كل أجنبى يملك ويدير. تصدر الرعاع الذين جعلوا من كل ما هو مصرى.. أدنى، وكل ما هو غير مصرى.. أعلى.

الذين جعلوا من جواز سفر بلادهم خادماً لكل جوازات السفر!

(4)

حان الوقت لكى نقول لكل هؤلاء الرعاع: حتى هنا كفى.

حان الوقت لكى نحرر بلادنا من حملة الحقائب.. من أولئك الذين يبيعون مكانتنا أمام كل قادم باسم الفقر والاحتياج.

لننظر قليلاً حولنا.. كيف يرى الإيرانيون أنفسهم.. وكيف يرى الأتراك أنفسهم.. لننظر إلى أوسع.. كيف يرى اليابانيون أنفسهم.. وكيف يرى الألمان أنفسهم.

(5)

لا خطوة لنا إلى الأمام دون الترميم النفسى لمصر.. أن يصاب المصريون بالغرور والاستعلاء.. أن يشعروا أنهم أعلى وأسمى من الآخرين.

إننا نحتاج إلى تأسيس نظرية نصف عنصرية.. تقوم على رقىّ الدم المصرى وعظمة السلالة المصرية ومجد الدولة المصرية.

إن مصر الآن مثل ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الأولى.. أكبر ما تحتاج إليه : «الأنا».

(6)

لقد انتهت ألمانيا تقريباً بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتهت تماماً بعد الحرب العالمية

الثانية.. بالأنا الحضارية تجاوزت ألمانيا هزائم يستحيل تجاوزها.

ولقد انتهت اليابان بمثل ما انتهت ألمانيا.. بل كان من نصيب اليابان تجربة من الفزع لا سابق لها منذ خلق آدم وحتى الآن.. حين تجسدت أهوال يوم القيامة في هيروشيما ونجازاكى جراء إلقاء قنبلتين ذريتين.. ثم تجاوزت اليابان ومضت من جديد إلى مكان مميز في سقف العالم.

ولقد وقعت فرنسا بكاملها تحت الاحتلال، وتعاون عدد كبير من الفرنسيين مع الاحتلال الألمانى لبلادهم.. وحكمت باريس حكومة عميلة انصاع لها الفرنسيون.. ثم تجاوزت فرنسا لتواصل الطريق.. دولة رئيسية في عالم اليوم.

إن دولة أوروبية مثل بولندا جرى احتلالها بكامل أراضيها في عشر ساعات، ثم خاضت تجربة حكم شيوعى ونفوذ سوفيتى.. ثم إذا هى الآن تمثل تجربة نجاح باهرة.

ولقد كانت إسبانيا حتى وقت قريب تمثل حالة من التخلف، وكان الإسبان يقطعون مضيق جبل طارق إلى مدينة طنجة الغربية مبهورين بازدهارها وتحضرها.. ثم مضت سنوات قليلة انتقلت فيها إسبانيا من حالٍ إلى حال. وبات الشباب المغربى يتساقط غرقاً في المضيق في محاولات للهجرة إلى ساحل إسبانيا الذى كان مهجوراً.

ولقد عانت الصين كل أشكال التخلف.. وعانت هزائم عسكرية واحتلالاً يابانياً للقطاع الجنوبى من أراضيها.. ثم واجهت نوبات من الثورة والفوضى.. ثم إذا هى دولة قديرة تمضى بمليار وثلث المليار نحو الأفضل. إن روسيا يلتسين كانت نموذجاً كاملاً لفشل الدولة.. لا أمن ولا طعام.. لا علم ولا تعليم.. لا قوة ولا كرامة.

عمل علماء الذرة فيها في معامل العالم بقوت يومهم.. وتحولت مليون سيدة روسية إلى موجة جديدة من الجوارى. وأصبحت الحركة في شوارع موسكو مخاطرة ومغامرة.. ثم إذا هى روسيا تستعيد قوتها الكاملة.. وتسترجع معالم التاريخ الإمبراطورى. إن دولة مثل ماليزيا وأخرى مثل كوريا وثالثة مثل تايوان ورابعة مثل أيرلندا، وخامسة مثل تركيا وسادسة مثل البرازيل وسابعة مثل الهند.. كلها نماذج للإنجاز.. توجب الإجلال والإكبار.

(7)

ماذا بقى إذن من العالم؟.. وحدنا مع قليلين جداً نمثل أرض الظلمات.. وحدنا - في مصر - نمضى ضد الجغرافيا ونمضى ضد التاريخ!

يقول السفهاء من الناس إن مصر تحتاج إلى معجزة، ولأن عصر المعجزات قد انتهى، فلا أمل إذن.. وما على مصر إلا أن تمضى أيامها الأخيرة في صبر حتى يوم القيامة!

يقولون إن العطب في مصر لم يعد في الدولة ولا أجهزتها بل صار في الإنسان، ولأن الإنسان المصرى بات خاملاً جاهلاً كاذباً خادعاً.. فإن أى إنجاز في سقف الدولة يعنى لا شيء.. لأن المصريين هم الأزمة.

ويذهب بعض هؤلاء إلى أن المصريين كانوا دوماً اناساً عاجزين.. وأن تاريخ المصريين يؤكد صفات الجبن والخضوع والنفاق والجهل والفشل.. وكل ما كان جيداً في تاريخهم لم يكن بأيديهم.. وكل ما كان بأيديهم كان سيئاً.

ذهب أعداء «المصرية» من نقد السلطة إلى نقد الشعب، ومن إدانة الحكم إلى إهانة المحكومين، ومن نقد أشخاص مصريين إلى نقد الشخصية المصرية.

(8)

مثلما يروج اليهود لمقولة «معاداة السامية» ربما أذهب بدورى لطرح مقولة «معاداة المصرية».. ثمة من يكرهون «المصرية» في ذاتها حضارة وتاريخاً.. بشراً وحجراً.. رسماً واسماً.

لقد بات المعادون للمصرية يفخرون بكل دماء جرت في عروقهم إلا الدماء المصرية. ثمة من يفخرون بدماء تركية! وثمة من يفخرون بدماء شامية، وثمة من يفخرون بدماء صحراوية، وثمة من يفخرون بدماء أوروبية أو حتى مملوكية.. كل الدماء صارت أعظم وأقدس.. إلا دماء المصريين.. كل الأعراق باتت أعلى وأرقى إلا أجداد المصريين.

والحق أن أغلب الهوان العرقى في بلادنا انصب على القبائل العربية والتركية.. على بلاد الإمبراطورية العربية.

الإمبراطورية العربية التى فَتحت وبلاد الإمبراطورية العثمانية التى وَاصلَت.

(9)

على الرغم من أن دراسات عديدة تذهب إلى أن بعض القبائل العربية هم في الأصل مصريون، قدموا من صعيد مصر في قرون سابقة، واستوطنوا في الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، وترى هذه الدراسات أن جانباً مما ظهر في بلاد العرب من قبائل وعوائل إنما يعود إلى صعيد مصر، وأن دخول العرب إلى مصر كان يمثل عودة لذوى الأصول المصرية إلى

بلادهم. على الرغم من أن دراسات كهذه تمثل تلطيفاً عرقياً يصل الحضارتين الفرعونية والعربية في سياق مصرى واحد.

وعلى الرغم أيضاً من ان الإسلام قد أنهى الصراع العرقى، وجعل كل المسلمين سواسية، لا فرق بين قرشى وحبشى.. ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع الرسول الكريم يدها.. على الرغم من أن قيماً كهذه تمثل حلاً نهائياً يصهر الحضارتين الفرعونية والعربية في سياق مصرى واحد.

على الرغم من هذا وذاك.. فإن قطاعاً من «أعداء المصرية» مازال يرى أن الأصل القبلى العربى يعلو على الأصل الإمبراطورى الحضارى المصرى!

(10)

إن جانباً آخر من الهوان العرقى كان إزاء تركيا.. ولا تكاد تخلو عائلة مصرية ذات شأن أو أسرة مصرية تبدى العراقة دون القول بأصول تركية.. على أرضية عنصرية شائعة.. إن الدماء التركية أرقى من الدماء المصرية.

لقد امتزجت بعض العائلات المصرية بعائلات تركية، وجاء النسب بين المصريين والأتراك بعائلات عديدة في مصر تحوى دماء تركية، وعائلات عديدة في تركيا تحوى دماء مصرية.. ويتمتع الأتراك بصفات رائعة توجب الحب والاعتزاز.. وأنا واحد ممن يشعرون بعاطفة دافئة وتقدير عميق للأشقاء الأتراك.

بشكل عام، وفى دول عديدة، يشعر بعض الناس بالرضا إذا ما كانت دماؤهم مختلطة دلالة تنوع وثراء.. لكن المحنة في مصر ذلك الشعور بالاستعلاء الاجتماعى والطبقية العرقية لمجرد وجود دماء تركية!

أود أن أقول بوضوح: إن أى تقييم عرقى بين المصريين والأتراك هو بالضرورة ودون نقاش لصالح المصريين.. وإذا كان من أعلى وأدنى بين الدماء المصرية والدماء التركية.. قولاً واحداً.. دماؤنا أعلى وأرقى.

(11)

إن بداية الطريق القصير إلى تأسيس «مصر الكبرى» هو إعادة بناء الأنا.

الأنا عند المصريين.. وإن الهدف ليس تحقير الآخرين، ولا الحط من شأن محيطنا

العربى الإسلامى لصالح الوطنية المصرية.. بل الهدف هو تعظيم الأنا المصرية كنقطة استئناف لقيادة الحضارة العربية الإسلامية.

إن ضعاف الثقة لا يقودون حتى أنفسهم.. ضعاف الثقة يرفعون الرايات البيضاء في قلوبهم قبل أن يرفعوها على بلدانهم.. إنهم يعيشون دوماً حالة واحدة: هزيمة بلا حرب!

(12)

إن أهم ما يميز شعبنا وبلادنا أننا نستطيع الانتقال من حالٍ إلى حال في لمح البصر. إننا أكثر الشعوب لياقة على مر التاريخ. لا نحتاج إلى فترة «تسخين» طويلة قبل المباراة.. فقط نحتاج إلى صفارة البداية.

فعلها محمد على في لمح البصر، وفعلها إسماعيل في لمح البصر، وفعلها مصطفى كامل في لمح البصر، وفعلها سعد زغلول في لمح البصر، وفعلها جمال عبدالناصر في لمح البصر.. في أقل من مائتى عام انطلقت مصر من الصفر عدة مرات.. الآن نستطيع.

إن الرسالة الكبرى التى تحتاجها مصر الآن هى رسالة الأمل.. أن يعلم مواطنونا أن مصر لاتزال قادرة.. وأن الحضارة لاتزال ممكنة.

(13)

السطور القادمة عن «مصر الصغرى».. عن مواجعنا وآلامنا.. وهى سطور متفرقة نشرتها كمقالات في صحيفة «المصرى اليوم».. ولكنها تزيد على ذلك إلى سلسلة مقالات عن حركة المؤرخين الجدد التى دعوت إلى تأسيسها.. ثم إنها تزيد أكثر إلى مقالات رأى ناشرو هذا الكتاب ضرورة ضمها.

ولقد كان في تخطيطى أن أضع كتاباً عن حركة «المؤرخين الجدد»، وآخر عن «مصر الصغرى» وثالثاً عن «مصر الكبرى»، غير أن تجربتى المرئية في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» المصرية قد أخذت من جهد الباحث إلى عبء المتحدث.. ومن اكتمال الرؤية إلى نثريات الرأى.. ومن أفق الاستراتيجية إلى ضيق اليومية.

ولولا إلحاح الأستاذة أميرة سيد مكاوى، والأستاذ محمد فتحى.. ومعهما فريق عمل آسر، لكنت انتظرت إلى حين ربما أخذتنا الحياة دون أن يجىء.

(14)

رجائى من القراء أن يعتبروا مقدمة هذا الكتاب.. والتى تبشر بمشروع إمبراطورى جديد، تقود فيه القاهرة محيطها الإقليمى من النيل إلى الفرات، أشبه بمنشور ثورى.. يهدم ويبنى.. ولقد كان تقديرى ولايزال.. أننا في هذه اللحظة: اليأس خيانة، والأمل وطن.

أحمد المسلماني - القاهرة 2010

مصر الكبرى من النيل إلى الفرات..
الآن نستطيع

كتبت المقدمة السابقة قبل ثورة 25 يناير، كان ذلك في عام 2010 ، وقد نشرتها صحيفة " المصرى اليوم " على حلقتين في شهر يونيو 2010. كانت الحلقة الأولى في 16 يونيو 2010 وتلتها الحلقة الثانية في 17 يونيو 2010. وقد اخترت نشر هذه المقدمة في شهر يونيو من أجل تنكيس ذكرى النكسة وكسر ذاكراة الانكسار.. واطلاق آمالنا وأحلامنا بلارواسب أو قيود.

كنت محبطاً من السلطة القائمة والسلطة المحتملة ، ومن النخبة السائدة والنخبة البديلة.. كنت أبحث عن حلم امبراطورى لدولة كانت كل صحافتها تتحدث عن مستقبل محصور مابين حسنى مبارك وجمال مبارك.

جاءت ثورة الشعب التونسى لتجعل الأحلام الكبرى بالإمكان.. تملكتنى مشاعر الفخر والغبطة معاً.. " عقبال عندنا ".. واختتمت مقالى الذى نشرته " المصرى اليوم " في عدد 17 يناير 2011 بالقول " تحية للشعب التونسى العظيم.. الذى رفع رؤوس العرب أجمعين.. ألف مبروك ."

مضت (13) يوماً فقط على مقالنا " ثورة 14 يناير المجيدة " لتبدأ في 25 يناير ثورة شعبنا العظيم.

إنها الثورة التى جعلت أحلام " مصر الكبرى " في مرمى النظر.

أود أن أشكر الأستاذة إكرام مطاوع التي تفضلت وساعدت كثيرًا في إعداد هذا الكتاب.

كما أشكر الأستاذ هاني عاطف خلاف الذي تحمل مع إكرام مطاوع الكثير من عناء الجمع والترتيب.

كما أجدد الشكر للصديق الكاتب الأستاذ محمد فتحي الداعم الأول لهذا المشروع، ولأسرة " دار ليلى " للنشر التى واصلت ما بدأته الأستاذة أميرة مكاوي في " دار مكاتيب ".. ذلك أنه يجمعنا سوياً ذلك الأمل الكبير..

عودة بلادنا من العصور الوسطى المباركية إلى عصر النهضة من جديد.. حفظ الله مصر.

أحمد المسلمانى — القاهرة 2012

مقدمة الطبعة الثانية

كان مفاجئاً لي ذلك النجاح السريع للطبعة الأولى من (مصر الكبرى).

أبلغني الناشر أن نسخا من الكتاب جرى شراؤها قبل الطبع.. وأن الكتاب كان الأكثر مبيعاً في معرض القاهرة الدولي عام 2012 وهو أول معرض للكتاب بعد الثورة. ثم إن حفل توقيع الطبعة الأولى من (مصر الكبرى) والذي حضره الأساتذة بهاء طاهر والسيد يس وحمدي قنديل وعدد وفير من المثقفين والقراء – قد تحول إلى احتفالية سياسية.. زاد فيها حسن الظن إلى الحد الذي تكرر فيه الحديث عن ضرورة اضطلاعي بدور سياسي في إطار بناء مصر الكبرى.

***

ربما يتوجب عليّ أن أفصح من جديد أن هذه بذرة أطروحة حول بناء (الجمهورية الثانية) في بلادنا.. هى مجرد دفع ذلك العنوان إلى أتون الجدل والحوار. وإنني لآمل أن يكتمل ذلك الطرح في كتب لاحقة.. تكون معالم على الطريق.

والله الموفق والمستعان

حفظ الله مصر

أحمد المسلماني - القاهرة 2012

الفصل الأول

من هنا لا نبدأ..

مقالات قبل الثورة

صلاة الشيخ الشعراوي! *

أخطأ الشيخ الشعراوي وأخطأ جمال حمدان ثم أخطأ إبراهيم عيسي. أخطأ الشعراوي حين سجد لله شكرا بعد هزيمة يونيو 1967 باعتبارها هزيمة لعبدالناصر وسياساته، وأخطأ جمال حمدان حين بالغ كثيرا في نقد الشخصية المصرية، حتي اعتقد الناس بأن التخلف الراهن هو من فعل الشخصية لا الحالة، والتاريخ لا السياسة، ثم أخطأ إبراهيم عيسي حين كتب، مؤخرا مستحضرا موقف الشيخ الشعراوي متفهمًا ومقدرًا، ثم اختار من جمال حمدان ما يغلق باب الأمل ويدفع الضمير إلي راحة اليأس!

* البداية:

كتب إبراهيم عيسي في العدد الأخير من «الدستور» تحت عنوان «صلاة الشيخ الشعراوي» يقول: «حاول أن تفهم شعور ابن الشيخ الشعراوي حين وجد والده يسمع ويتأكد من هزيمة مصر في يونيو 1967، فإذا به في بيته يفرش سجادة الصلاة ويصلي ركعتي شكر لهزيمة مصر»، الشيخ الشعراوي كان يحس مرارة في حلقه وغضبا في قلبه من حكم وحاكم وحكومة، ووجد نفسه من أجل التخلص منهم معا لا يري بأسا من هزيمة البلد، والعجيب أن أحدا من محبّي الرجل ومريديه لم يعتب عليه ولم ينتقص من حب الملايين له، سؤال الساعة: هل هناك أمل وهل نجد الحل؟ أم ننتظر يومًا نصلي فيه كما صلي الشعراوي.

ثم ذهب الكاتب إلي جمال حمدان مستشهدا بقوله: المعضلة العويصة هنا، إلي أن تتحقق الديمقراطية لن تتغير الشخصية المصرية، ولكن إلي أن تتغير الشخصية المصرية لن

* نشر هذا المقال في 20 يونيو عام 2006 م

تتحقق الديمقراطية.

* القضية:

ابتداء، لا جدال في رفعة المكانة التي يحظي بها الشيخ الشعراوي في تاريخ علوم الدين، كان الرجل مفسرا ومحدثا وفقيها، وكان يملك من طلاوة السرد وجاذبية الحكي وسحر الحديث ما جعله إمام عصره وفقيه زمانه.

وابتداء أيضا لاجدال في رفعة المكانة التي يحظي بها جمال حمدان في تاريخ علوم الدنيا، كان الرجل مفكرا وباحثا واديبا، وكان يملك من بلاغة القول وسعة العلم وإخلاص السعي ما جعله وطنا يمشي علي الأرض.

وقد ادهشني إبراهيم عيسي في هذا المقام، أن ترك في كلا الرجلين كل ذلك مكتفيا من الشيخ الجليل بموقف مشين، ومن العالم الكبير بعبارة كالصفعة أو الطلقة علي رؤوس المصريين.

ليس في صلاة الشيخ الشعراوي ما يوجب التقدير، وليس في شكره لله علي هزيمة وطنه ما يدعو للتعاطف والقبول، كان الرجل مخطئا تماما، اخطأ حين داس علي رؤوس الشهداء وقلوب الثكالي ووجوه اليتامي حين قام للصلاة، أخطأ حين أهان الجيش الذي عاد مقهورا والجندي الذي مات حزينا أو راح أسيرا أو عاد ذليلا، اخطأ حين نسي سيناء التي ضاعت، والقناة التي أغلقت، والكرامة التي غادرت، أخطأ حين لم يدرك أنها هزيمة مصر لا عبدالناصر، ومحنة شعب لا مازق سلطة، وفجيعة وطن أطاحت بالفلاحين والعمال والفقراء - أحياءً وشهداء - قبل أن تطيح بجنرال فاشل أو مسؤول تافه.

أخطأ الشيخ الجليل لأنه رأي في القيادة السياسية ما يجعلها بعيدة عن الله، قريبة من أعدائه، وكان الطرف الآخر في إسرائيل كان يمسك بمسبحة داعيا إلي الله آناء الليل وأطراف النهار.

أخطأ الشيخ لأنه لم يدرك أن تلك الهزيمة التي رآها توجب صلاة الشكر كانت بداية صعود إسرائيل وخريف العرب، بداية كيان أصبح دولة، ودولة أصبحت قوة، وقوة وجدت في العالم من يناصرها ظالمة ومظلومة، وبداية عالم عربي أصبح رخوا مبللا بالمياه، كفئران المستنقعات، لا يقدر علي شيء.

ليس في موقف الإمام ما يوجب التقدير، هي سقطة سببها انفعال غير مسؤول، ولولا انها حدث عارض وموقف مجهول في حياة حافلة كحياة الإمام الجليل لانتقصت من حبّ محبّيه والتفاف مريديه.

* النهاية:

إذا كان إمام الدعاة قد اخطأ، فإن صحيفة «الدستور» قد زادت الخطأ حين استدعت من الإمام ذلك الموقف دون سواه، ثم امتد الخطأ ثالثاً حين جرت الاستعانة بمقولات قاسية للجغرافي الكبير جمال حمدان.

والصادق أن كتاب «شخصية مصر» لجمال حمدان يحتاج إلي قراءة فاحصة، فذلك السفر العظيم لا يكفي للحكم عليه ضخامة الجهد وعبقرية التكوين، ففي الكتاب الكثير مما يوجب الوقوف ثم القعود، فما قاله حمدان عن شخصية مصر يوجب الانبهار، ولكن ما قاله عن شخصية المصريين يوجب المراجعة وربما المجابهة.

وكل ما اخشاه اليوم ان يلتمس الناس من جمال حمدان ومن غيره ما يهيل التراب علي هذا الشعب، وما يفقد الأمل في المستقبل تحت دعوي الفشل الجامع للماضي.

لقد شاعت في السنوات الأخيرة كتابات عدة كل مهمتها ان تقول إن شخصية المصري منسحقة مهزومة متكيفة متملقة إلي غير ذلك من جملة القمامة التي بات يلقيها من يعلم ومن لا يعلم علي هذا الشعب العظيم.

وتتخذ هذه الكتابات من نشريات كتبت هنا وهناك عن فقدان المصريين لثقافة الثورة والتمرد، واستسلام الشعب لحكامه منذ آلاف السنين دليلا علي شخصية لا امل فيها، وهي في مجملها كتابات محدودة القيمة، ذلك انها تتحدث عن عالم لا نعرفه، وكأن شعوب الأرض كانت لا تفيق من الثورات، وكأن النظم الديمقراطية التي يقف فيها الشعب - آمرا وناهيا - كانت هي عموم النظمَ في العالم، وكأن رموز الثورة في عواصم المعمورة قد ملأت كتب التاريخ إلا هذا الوطن.

علي أي حال، هذا مقام آخر ومقال آخر، وتبقي كلمات اخيرة إلي صديقي الصغير يحيي إبراهيم عيسي: لا تسمع كلام ابيك، واعلم أنك من بلد عظيم وفي شعب عظيم، واعلم أن كراهية السلطة لا تعني رمي الوطن بالرصاص، وأن النقمة علي ما يجري لا تعني

ردم النيل أو هدم الأهرامات.

واعلم - أخيرًا - أن في هذا الوطن ما يكفي للمستقبل، وفي المستقبل ما يزيد عن الحياة، ولك ولأختك مني السلام.

مصر - المصريين = صفر (1)

كنت مدعواً لحضور حفل زفاف الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام الإماراتى، ثم وزير الخارجية فيما بعد. وفى الحفل تعرفت على الصحفى الفلسطينى الأشهر ناصر الدين النشاشيبى.. كان النشاشيبى في زمن الرئيس جمال عبدالناصر ملء السمع والبصر. هو من القدس وصديق ومستشار لملوك الأردن، وهو زوج خالة الأمير الوليد بن طلال والأمير المغربى مولاى هشام، ذلك ان زوجته ابنة السياسى اللبنانى رياض الصلح.

فى كل دقيقة تقريباً كان النشاشيبى يستعرض قواه الاجتماعية والسياسية والصحفية.. فهو مؤلف لأكثر من عشرين كتابا مثيرا، وقد كان رئيسا لتحرير صحيفة الجمهورية وقت وجود اسم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين على ترويسة الصحيفة.

كان النشاشيبى يتحدث بغرور لا مثيل له.. فالأستاذ هيكل كان يغار منه ومن موهبته التى لا حدود لها، وكبار الأدباء المصريين كانوا في أوضاع اجتماعية يرثى لها في مواجهة ما يمتلكه النشاشيبى من حسب ونسب وصلات. والفنانة سعاد حسنى كانت تلاحقه ما أثار عبدالحليم حافظ، الذى كان يكره النشاشيبى، لتعلق حليم بسعاد وتعلق سعاد بالنشاشيبى.. أما السيدة فاتن حمامة فهى فنانة مهمة ولكن الأهم أنها جارة الأستاذ النشاشيبى، حيث يسكنان في عمارة ليبون الشهيرة بالزمالك.. وأما عميد الأدب العربى طه حسين فهو زميل في رئاسة تحرير الجمهورية.

لقد نشرت لقائى معه من قبل، وأثار تعليقات وصخباً.. كان النشاشيبى حاقداً على مصر بدرجة لا تحتمل، ومنذ لقائى به وأنا أومن تماماً بأن هناك من الساسة والمثقفين العرب من يكره مصر. وأنا بالطبع أعرف جيداً الفارق بين كراهية مصر وكراهية النظام السياسى في مصر، أو كراهية حكومة أو رئيس مصر.. ولذا فأنا أكرر العبارة عن وعى

ويقين.. «إن من هؤلاء مَنْ يكره مصر.. كمصر.»

لكن هؤلاء الذين يكرهون مصر لا يمكن أن يقولوها في وجوهنا هكذا «نحن نكره مصر».. ولكن يجرى تكييف ذلك بدهاء على انه كراهية للسياسة المصرية، ولجوانب من الثقافة المصرية، ولعدد من السلوكيات المصرية.. اى أن الاعتراض ليس على مصر وإنما الاعتراض على عدد من أوجه النقص في مصر.

ثم يكون الجزء الثانى من مشروع كراهية مصر.. هو توسيع هذه الأوجه.. فيذهبون إلى الأدباء ليأتوا عليهم واحداً واحداً، فإذا سألتهم عما يرونه في نجيب محفوظ قالوا: «نحن لسنا ضد الأدب المصرى لكننا نرى العظمة ماثلة فقط في يوسف إدريس»، ثم يأتى الدور على يوسف إدريس فيقولون: «نحن عشاق الحكيم».. ثم يأتون على توفيق الحكيم فيقولون: «بل نحن مريدو يحيى حقى».. وهكذا حتى تتراكم نواقص الأدباء.. فكراً وسرداً وشخصاً فلا يبقى منهم احد.. وبمثل ذلك يتجهون إلى الشعراء والكتاب والصحفيين والفنانين فلا يبقى من القوة الناعمة المصرية شىء.

مصر - المصريين = صفر (2)

■ هل كان الدكتور جمال حمدان يعرف جيداً شخصية مصر؟ وهل كان ذلك المفكر الجغرافى العملاق يعرف جيداً شخصية المصريين؟.. سأكون جريئاً للغاية.. بل سأتجاوز الأدب المعتاد إزاء قامة بهذا الوزن.. وأقول: كان الدكتور جمال حمدان عظيماً في تحليله لشخصية مصر، ولكنه لم يكن كذلك في تحليله لشخصية المصريين.

■ لقد أبدع جمال حمدان في كتابه الرائع «شخصية مصر» ثم اكتمل عطاؤه المذهل في موسوعته الشهيرة «شخصية مصر».. تجاوز د. جمال حمدان في هذا العمل الفريد كونه أستاذاً جامعياً لعلوم الجغرافيا إلى كونه فيلسوفاً يمتد عطاؤه من جمال اللغة إلى جلال المضمون، لكننى ربما أتجاسر وأقول إن الفيلسوف قد أبدع في فهم الحجر أكثر مما أبدع في فهم البشر.. وتقديرى أن فهم جمال حمدان للشعب المصرى لم يكن دقيقاً ولا عادلاً.

■ رأى جمال حمدان في شخصية المصريين الازدواجية والنفاق والخوف والجبن وتملق الرؤساء والرضوخ للسلطة الحاكمة وعدم الثورة على النظام الظالم.. وربط جمال حمدان ذلك كله بكون المصريين شعباً من الفلاحين الذين أخذوا قيمهم من النهر والزراعة.

■ لقد توارت روائع جمال حمدان وبقى في الكتابات الصحفية والمقولات السياسية ذلك الكلام الفارغ حول نفاق المصريين وانبطاح المصريين. وبات هناك تيار كامل لا يرى في شخصية المصرى إلا الفهلوى والنصاب والجبان.. أو أن المصريين هم ذلك الشعب الذى تجمعهم زمارة وتفرقهم عصا، وأصبحت شتيمة المصريين شيئاً أساسياً أثناء التعبير عن كراهية النظام أو الغضب من السلطة .

بل إن سفهاء الناس في الشوارع حين يغضبون من سائق سيارة غير مهذب أو مشاجرة عابرة في طريق أو سلوك خاطئ أو مشين.. يتركون صاحب الخطأ ويفضلون شتيمة

الشعب.. لقد أخذ السفهاء من الناس ذلك التجرؤ على الشعب من أولئك السفهاء من المثقفين الذين يعايرون الشعب، ليل نهار، بكونه جباناً راكعاً خانعاً.. يدير حياته بالخداع والنفاق.

■ إن أعداء الشعب لديهم تساؤلات ثابتة: ماذا ينتظر هذا الشعب؟ لماذا يسكت المصريون على كل هذا الظلم؟ لقد دمر الفاسدون كل شيء ولم يتحرك أحد، ثم إن أعداء الشعب لديهم إجابة واحدة: الشعب المصرى جبان، ولم يتحرك على مر التاريخ، ولن يتحرك الآن ولا في المستقبل.. ثم ينتهى أعداء الشعب إلى توصية ختامية: انسوا الشعب المصرى، فهو خارج الحساب تماماً.. ولا وزن له.. وكل ما يمكن أن يفعله هو أنه سيصفق لمن ينتصر.

مصر - المصريين = صفر (3)

كنت في الطريق من ميلانو إلى مونت كارلو.. وكان صديقى ناصر حامد القنصل التجارى للمصرى في ميلانو يقود السيارة في اتجاه الريفييرا الإيطالية ويروى قصصاً من قريته عرب الشنابلة في مركز أبنوب، محافظة اسيوط.. لم تكن مناسبة في المكان ولا الزمان، وفجأة توقف الطريق.. وتزاحمت السيارات وعلت الأصوات بكل اللغات.. وتوقفنا في مكاننا مثل عشرات السيارات التى ارتبكت حركة مرورها، وبعد دقائق بدا لنا أنه من المستحيل أن نمضى في الجدول الزمنى الذى خططناه ..

فقد توقف الطريق تماماً.. وتحول المكان إلى ميدان العتبة وتعالت صيحات وشتائم وحركات غير مهذبة من أوروبيين من بلدان مختلفة.. هكذا في لحظات تحول طريق ميلانو إلى الريفييرا إلى طريق أحمد حلمي- عبود.. وبدا كل سائق يفكر بطريقته وكل سيارة تحاول الخلاص الفردى والخروج الآمن.. كان السبب في ذلك السلوك العام الهمجى ..

هو أن ثمة أعمال حفر وتحويلات في الطريق لم يتم التنبيه لها، كما أن بعضاً من اللوحات الإرشادية كان يعطى اتجاهات خاطئة.. ولم يكن هناك من رجال المرور والمحليات من يدير الأزمة في ذلك الصباح من إجازة الأحد، لقد تصرف الإيطاليون والفرنسيون والسويسريون بمثل ما يتصرف به سائقو الميكروباص في الهرم وسائقو التوك توك في إمبابة.. الخلاص الفردى.. دعنى أمرّ.. دعنى أذهب.. ومن بعدى الطوفان!

* حدث في نيويورك أن انقطعت الكهرباء.. وانطفأت أضواء نيويورك ساعات قليلة.. وروى سكان نيويورك حكايات عديدة عن السرقات والنهب والاعتداء في ساعات الظلام.. تحولت نيويورك إلى بوروندى وتحوّل بعض قاطنيها وزائريها إلى لصوص غسيل وقاتلى عجائز!

وحين ضرب إعصار كاترينا السواحل الأمريكية، وأخذ الإعصار يطيح بالبشر والحجر.. وانبطحت معالم البيوت والمزارع أمام طغيان الطبيعة.. وبدلاً من قصص الروعة والوفاء وحكايات التضحيات وبطولات الإنقاذ.. كان معظم ما جاء من موقع الإعصار حكايات مشينة عن لصوص الموتى.. وعن الجبن والخذلان الذى اتسم به الناس هناك.. ونشرت صور لأناس يفتشون ملابس الضحايا ويأخذون ساعاتهم وهواتفهم المحمولة وما يحملون من دولارات ثم يركلون الجثث في احتقار!

* يمكن أن نمضى في قصص وحكايات لا حصر لها عن همجية الذين يعتقد البعض انهم كاملو التحضر عظيمو السلوك.. القضية باختصار.. أن الطبيعة الإنسانية مركبة وقاسية وربما فاسدة، وأن الله أرسل الأنبياء من أجل إصلاح تلك الطبيعة لدى البشر، وأن الإنسان اخترع الدولة ووضع الدستور وسنّ القوانين من أجل ضبط الذين لا يلتزمون الدين ولا يمتلكون القيم.

* لقد كان ابتكار السجن والغرامة والإعدام وغيرها من آليات العقاب.. بمثابة ابتكارات كبرى.. بعد أن أنجز الإنسان كشوفاته العظيمة في ضرورة بناء جهاز للشرطة والقضاء.

* إذا كانت هذه القضية فالمعادلة إذن واضحة.. حيث يوجد القانون يوجد التحضر، وحيث يغيب القانون يوجد التخلف، لا يوجد إنسان ولدته أمه متحضراً ولا إنسان وضعته أمه متخلفاً.. بل ثمة إنسان في نظام متحضر وإنسان في نظام متخلف.

* إن الذين يرددون عن شخصية شعبنا العظيم كلاماً سفيهاً من نوع الجبن والنفاق والفهلوة وتملّق الحاكم ونفاق أولى الأمر.. هم أناس لا يعرفون شيئاً لا عن بلادهم ولا عن العالم!

مصر - المصريين = صفر (4)

كنت في واشنطن في خريف عام 2005، وكان زمن الرئيس بوش الابن جاثماً على جنبات الولايات المتحدة.. دعاني أحد أصدقائي العرب إلى زيارة مبنى الإذاعة الأمريكية «صوت أمريكا».. أخذنا قهوة ساخنة من ماكينة في إحدى الطرقات.. ثم جلسنا في غرفة الأخبار نتجاذب أطراف الحديث عن بوش والعراق وأفغانستان وعن أشباح الحادى عشر من سبتمبر التى سكنت كل منزل في أمريكا.

كانت للفاجأة ساحقة.. طلب منى صديقى الذى يحمل الجنسية الأمريكية منذ سنوات أن أخفض صوتى بالحديث. وألا أهاجم عهد الرئيس بوش ولا سياساته بصوت مسموع، ثم قال لى القولة العربية الشهيرة: من الأفضل ألا نتكلم في السياسة هنا. كانت تلك صدمة كبرى لى.. فنحن في الولايات المتحدة، ونحن في صوت أمريكا، ويعمل هنا إعلاميون وصحفيون لا عمل لهم إلا الكلام في السياسة.

خشى صديقى العربى الأمريكى أن أفسّر حالة الجبن التى هو عليها بكونه من أصل عربى.. فبادرنى بالقول: إياك أن تظن أننى جبان، أو أننى جبان لأننى من أصل عربى، أو أننى جبان وحدى.. أنت تعرف أننى أمريكى.. بل وأمريكى ناجح، وأتمتع بوضع لائق وظيفة ودخلاً وسكناً.. لكنك لا تعرف ما الذى تفعله هذه العصابة الحاكمة في أمريكا.. إنهم يراقبوننا جميعاً.. هم يتجسسون على منازلنا ومكاتبنا.. هناك ميكروفونات في أماكن متعددة.. إنهم يفصلون ويعتقلون.. لقد تعاملوا مع كبار خصومهم بأبشع المكائد.. ثم إنهم أقروا قوانين تدمر الحريات وتسمح بالاعتقال دون إبداء السبب.

إن الشعب الأمريكى مغلوب على أمره.. وكل ما ينتظره العقلاء هنا هو خروج هذه العصابة في الانتخابات.. ومن حسن الحظ.. أنه ليس بمقدورهم إلغاء الانتخابات.. ولو كان باستطاعتهم لفعلوا.

■هذا مشهد من أجواء عامة سادت الولايات المتحدة في زمن بوش.. أصبح الشعب الذى عاش اكثر من مائتى عام من الحرية كانه لم يعش يوماً واحداً فيها.. وأصبح ملايين الأمريكيين من الجبناء والمنافقين والخائفين والمذعورين.. وفى قولة واحدة.. أصبح الأمريكيون شعباً نامياً في بلد من العالم الثالث!

■زرت باريس في زمن شيراك وفى زمن ساركوزى.. وفوجئت بما ترويه النخبة الفرنسية عن زمن ساركوزى.. عن الحالة شبه الديكتاتورية التى كان عليها، عن سحقه لكل خصومه بلا رحمة، عن المشى بالأقدام فوق الحضارة الفرنسية، عن إذلاله لكل وسيلة إعلام هاجمته وكل سياسى أو صحفى نال منه.. وعن تعيينه لابنه مخالفاً لكل الرأى العام.. وإعداده له بما يتجاوز المنصب المرموق إلى المنصب الكبير. قال لى مثقفون فرنسيون: إننا إزاء نابليون جديد.. يفعل كل الأشياء وحده، ثم يخطر الشعب فيما بعد!

■ترى ما التضحيات التى بذلها الأمريكيون ضد الرئيس بوش، وما النضال الذى خاضه الفرنسيون ضد الرئيس ساركوزى.. لا شىء!

لا يوجد شعب ولدته امه جريئاً، ولا شعب ولدته امه جباناً. تتحول شعوب الغرب إلى جبناء ومنافقين إذا ظهر ربع ديكتاتور أو ظهر قانون يقيد الحريات.. طوبى للشعب المصرى العظيم الذى يتهمه السفهاء بما لا يعلمون.

ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا أبي؟

بدون مقدمات.. هذا هو احسن كتاب صدر في مصر هذا العام، المؤلف هو الكاتب الكبير محمود عوض، احد اجمل واروع الأقلام في تاريخ الصحافة العربية، والعنوان هو «بالعربي الجريح»، والموضوعات هي فضاء واسع يتمدد ما بين العواطف والعواصف. وامّا مناسبة هذا الحديث فتحتاج إلي مقدمات.

* عام الضباب

إنه السؤال الأصعب بامتياز.. ما الذي يجري في مصر؟ واذكر انني حين فكرت في إعداد الطبعة الثانية من كتابي «الحداثة والسياسة.. ما الذي يجري في مصر؟»، كنت اتصور أن الأمر سهل. ولكنني حين شرعت سرعان ما احجمت، فلم اعد اعرف يقيناً ولا ظناً ما الذي يجري في مصر؟

حملت سؤالي ونهضت صوب عدد لا حصر له من الذين توقعت أن تكون لديهم إجابات شافية أو شروح وافية. وأعترف انني لم اجد شيئا مما ابتغيت، فقد تساوي في الإجابة جموع الذين يعلمون والذين لا يعلمون. سألت وزراء فأجابوا بمثل ما اجاب عابرو السبيل، وسألت مثقفين ونافذين، فلم يزد مستوي القول علي ما يحتويه بريد القراء في الصحف الشعبية.

ومن المدهش هنا أن كثيراً من المثقفين باتوا يتحدثون كمسؤولين، وأن كثيراً من المسؤولين باتوا يعملون كمراقبين ومحللين.

ومن محنة الشعوب أن يتحول المسؤول إلي مُنظّر، وبدلاً من تخطيط وإنجاز يجري

تدشين خطوط إنتاج للرغي والصراخ.

ومن محنتها أيضا أن تغيب مهمة المثقف في زمن ملتبس فينهض حيث يجب أن يهدأ، ويهدأ حيث يتوجب النهوض، أو أن يكون النهوض خطأ في الفعل وخللاً في الاتجاه.. وظني أن ذلك حادث في مصر الآن.

هي حالة من الغموض الوطني، أو هو عام من الضباب!

بالعربي الجريح

ما الذي يمكن أن يفعله المرء في عام الضباب أو أعوام الضباب؟ ماذا يفرض الخلق القويم على الأسوياء.. وماذا تفرض الوطنية الحقة على الأوفياء؟ في طريق قد يطول بحثا عن إجابة، وقعت على هذا الكتاب الرائع «بالعربي الجريح» للأستاذ محمود عوض. وهو كتاب ساحر في الأسلوب والمضمون، أو هو الكتاب الكتاب، أي نموذج ما ينبغي أن يكون عليه الكتاب، في وقت أهان الرعاع فن الكتابة فأمطرونا بوابل من الجهل والخرافة والتجميع والترقيع تحت عناوين عريضة. وما يعنينا في هذا المقام هو ما يخص سؤالنا عن العمل في زمن الارتباك.

يذكر الأستاذ محمود عوض في كتابه.. «في الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا طرفاً محارباً أساسياً إلى جانب فرنسا.. مقابل تحالف مضاد من ألمانيا وروسيا.. ولأن الحرب طالت وجبهات القتال اتسعت، فقد أرادت الحكومة البريطانية أن تشحذ همم أبناء شعبها للتطوع والمساهمة في المجهود الحربي. وبدأت حملة إعلانية كبرى لصالح الحرب. في تلك الحملة كان الإعلان الأكثر رواجاً وانتشاراً وشعبية وإحراجاً، هو ذلك الذي تحول إلى ملصق ضخم في الميادين العامة والشوارع الرئيسية بكل المدن الكبرى. والإعلان مختصر وبسيط، فهو عبارة عن لوحة لطفل صغير يستفهم من والده في براءة: ماذا كنت تفعل أثناء الحرب يا بابا؟».

إنه بالضبط السؤال الذي سيوجهه كل طفل لأبيه في وقت قريب.. ماذا كنت تفعل في أعوام الضباب يا أبي؟.. ومن حسن حظ الأب البريطاني أنه كان يمكنه حسم الموقف والإجابة بشرف.. كنت أحارب يا بني، ومن سوء حظ الأب المصري أنه لا يملك إجابة كهذه. فمصر في حالة سلام، ولا حروب مع أحد، والمشهد بمكوناته ومعضلاته هو من صنع الداخل وفي حدوده. وإجابة سؤال كهذا لا يمكنها أن تكون قبل إجابة السؤال الأول.. ما الذي يجري

في مصر؟ فالمعرفة تسبق الموقف، والرؤية تسبق الرأي، وكمال الوعي يسبق مكارم الأخلاق.

يا له من سؤال قاهر، ويا لبؤس الواقع السياسي الذي يمتلئ عن آخره بالفراغ، يا لبؤس الموقف ان تكون في السلطة أو في المعارضة، أن تكون مع الذين لا يعلمون أو مع الذين لايعملون.. أن تكون لسير بلد أصبحت المباراة النهائية فيه بين فريقين كليهما لا يستحق، أن تكون كل الأهداف في مرمى الشعب، وأن يفوز الفريقان معاً ويخسر الجمهور! هل إذا سألك ابنك يوما ما عن زمن الالتباس وعن مباريات الوطن العام.. إذا سألك عن موقعك في الفريق وإسهامك في المباراة.. هل تصلح إجابة كهذه: كنت خارج الملعب يا بني!.. يا له من سؤال وجواب ركيك!

الفصل الثاني

مصر الصغرى..

مقالات قبل الثورة

خريف الضمير

إن المرء لتأخذه الدهشة من هذه المفارقة للذهلة.. لماذا يزداد التدين وتنحط الأخلاق؟ لماذا يتزاحم الدعاة في الفضائيات والميكروباصات، وفي المنابر والمنازل.. وفي شواطئ مارينا ومترو الأنفاق، دون أثر لذلك في سلوك البشر أو في حياة الناس؟

لماذا تزداد اللحي والجلاليب البيضاء وعلامات الصلاة، ومعها خريطة واسعة تمتد من شبه الحجاب إلي النقاب.. بينما تبدو جميع السلوكيات في جميع الميادين، وكاننا بلد بلا دين.. أو دين بلا متدينين.. أو لا دين ولا متدينين؟!

إن جميع المصريين يذهبون إلي صلاة الجمعة.. أكثر من تسعين بالمائة من المسلمين المصريين، يذهبون إلي المساجد مرة واحدة علي الأقل أسبوعيا، وتمتلئ دور العبادة بحشود هائلة من السيدات، اللائي يستمعن إلي محاضرات ودروس في علوم الدين.

وتحظي «قناة الناس» ومجمل القنوات الدينية بمعدلات مشاهدة كبري، كما يحظي كبار الخطباء وصغار الدعاة بما يحظي به نجوم الفن والرياضة من اهتمام يختلط فيه الانبهار بالانكسار.

*يذرف ملايين المصريين الدموع في مناسك العمرة الممتدة علي مدار العام، وفي صلوات الشهر الفضيل من الغروب إلي الشروق.. تهجداً وقياما، ويغتاظ ملايين المصريين من كل قول أو فعل يسيء إلي الدين الحنيف، ويدعون ربهم سراً وجهراً، أن ينتقم من أعداء الإسلام والمسلمين .

ولا يقول «المصري» لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله، ويقدم المصريون جميعاً «المشيئة» علي ما هم فاعلون.. صادقين وكاذبين.

وقد اكتسبت التكنولوجيا الحديثة معالم الإيمان، كما يراها المصريون، ففي

المصاعد ثمة من يكتبون ويقولون ،أدعية السفر، وفي رحلات مصر للطيران تبدأ الطائرات إقلاعها بالدعاء، وفي أجهزة الحاسب تضيء الشاشات جنباتها بالبسملة، وما تيسر من القرآن، وفي المكالمات الهاتفية بات الناس يبدأون حديثهم بالسلام وينهونه بالشهادتين.. يبدأ أحدهما بلا إله إلا الله، ليكمل الآخر بمحمد رسول الله، لتضع السماعة أوزارها.

ولا تخلو مدرسة ولا مستشفي ولا قسم للشرطة أو مصلحة حكومية، صغرت أم كبرت، من مسجد يذكر فيه اسم الله، وثمة ملايين يذكرونه.

وبمثل الإسلام تكون المسيحية في بلادنا، كنائس تمتلئ بالمصلين وأناجيل توزع بالملايين، وخطب وعظات وقصص ومعجزات، يظهر معها المسيحيون المصريون وكأنهم تلاميذ مباشرون ليسوع المسيح.

**دين في كل مكان، متدينون بلا حدود، لكن حقائق الحياة وحالة الأخلاق شيء آخر.

إن مشكلة الأسعار وحدها، وتعامل ملايين المؤمنين في بلاد السبعة آلاف عام، تبعث علي الغثيان.. احتكار واحتقار.. فساد في كل مكان، ومفسدون بلا حدود.. انتصر الحرام علي الحلال، وغلب الرياء مظاهر الدين، وأطاح الجشع بما قاله الله وما قاله الرسول.

... يا ويل بلادنا من ربيع الدين وخريف الضمير.

فاسدون ضد الفساد !

فاسدون ضد الفساد، وأغبياء ضد الجهل، ومنحرفون ضد الرذيلة.. تلك معالم مشهد بات يتكرر بانتظام.

فى كل يوم ألتقى عدداً وفيراً من الذين يبدون حزنهم على الأوضاع العامة في مصر، وجدول الأعمال الجاهز في هذه المناسبات يشبه بناء الشعر الجاهلي، فالبداية هى البكاء على الأطلال، ثم توجيه النقد إلى الحبيب، ثم غمر كل شيء بالتراب، انتهاء إلى حكمة لا مفر منها تشى بانه لا امل ولا معنى ولا جدوى وما اديم الأرض إلا من هذه الأجساد!

وإذا كان طبيعيا أن يقوم الشرفاء بنقد الأوضاع غير الشريفة، أو أن يقوم ذوو الأيادى البيضاء بمحاولات لوقف ذوى الأيادى السوداء، أو أن يقوم ذوو الفكر والرأى بنقد حالة البله العام في البلاد، أو محاولة تصحيح أوضاع أو أوزان الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إذا كان ذلك كله طبيعياً وواجباً فإن بعضاً مما يجرى في مصر الآن يخرج على هذا السياق إلى سواه.

ولا أبالغ إذا قلت إن المأزق الأكبر في مصر لا يمثله فساد الكبار، الذين يمكن هزيمتهم جميعاً في معركة إصلاحية واحدة، ولكن المأزق حقاً هو في صغار الفاسدين، والفاسدون الصغار باتوا يمثلون جانباً كبيراً من النسيج الاجتماعى في مصر، فهم في كل مكان من الحدود إلى الحدود. حتى تدرك حجم وطن الفاسدين إلى حجم الوطن الأم، ما عليك إلا ان تجمع ما تكتبه الصحف في صفحات التحقيقات والاقتصاد والحوادث، وما يبثه التليفزيون من شكاوى ومعاناة وغضب للمواطنين، فوراء كل شكوى يوجد فاسد، ووراء كل إهمال في مدرسة أو مستشفى ثمة فاسد وراءه فاسد، ووراء كل هبوط في الاقتصاد او تراجع في الأداء يتربع فاسد من فوقه فاسد ومن تحته فاسد.

وإذا كانت هذه ملامح أزمة يعمل مخلصون عديدون على حصارها، فإن ما يصفع

الانتباه هنا هو حجم الفاسدين الذين يهاجمون الفساد وحجم الجهلاء الذين ينتقدون السطحية والإفلاس، وعدد السفهاء الذين يرون في السلطة ومن فيها فشلاً ذريعاً، ذلك أنها لا تحفل بما يرون ولا تضعهم في مواقع الإدارة والنفوذ.

وما أكثر الفاسدين الذين يتحدثون اليوم عن فساد الآخرين، وما أكثر الذين يقبضون لأجل مهاجمة اللصوص!

وفى الثقافة والصحافة تخطو المأساة إلى مدى أبعد، ذلك أن المنافقين الجدد باتوا ساخطين على المنافقين القدامى، وأن من يحملون راية التغيير هم أولى الناس بالعصف والتبديل.

إن الجيل الجديد من تحالف عديمى الموهبة يقول الكلام نفسه الذى يقوله كبار الإصلاحيين والمفكرين إنهم يهاجمون الجهل والركاكة والفساد والمحسوبية وعدم الكفاءة والنفاق وتدنى مستوى المهنة.. إنهم يسرقون كلام الشرفاء في وضح النهار!

لم يترك الفاسدون الجدد مجالاً لنقد الفساد إلا طرقوه، ولا جملة مفيدة في إدارة الصراع على الفساد إلا تعلقوا بها ولا طريقاً للإطاحة بقدامى الفاسدين إلا بذلوا لأجله النفس والنفيس.

يا لها من مفارقة مذهلة.. لصوص يهاجمون السرقة وحمقى يطاردون الجهل وعصاة يدعون إلى مملكة الجنة.

لماذا يتّسِم الفاسدون بخفّـة الظل؟

لماذا يتسم الشرفاء بثقل الظل ورتابة الحديث وبؤس التسلية؟ ولماذا يتسم الفاسدون بخفة الظل ومتعة الحوار ولطف المؤانسة؟.. كنت في عشاء فاخر ذات مساء قريب حين قطع علينا الجلسة أحد كبار الفاسدين، جلس إلينا الرجل وسط ترحيب مفتعل.. لا رغبة لدينا في مصافحته ولا طاقة لنا علي مناقشته.. لم يكترث القادم بما نحن عليه من رغبة أو قدرة.

وجلس يتجاذب معنا أوساط الحديث.. فإذا بالضيف الفاسد هو من أضفي البهجة علي المكان، قصة وراءها قصة، ونكتة وراءها نكتة.. حكايات لا تنقطع ومواقف لا تنتهي وتعليقات خصبة ساخرة.. إبهار حقيقي في متعة الحكي وروعة الأداء. كان الرجل قادراً علي توزيع القفشات بدقة مذهلة، يعرف أي قصة يستحضر، وأي موقف يستشهد، وأي نكتة يختم بها قبل الفاصل.

مضت أيام أُخَر.. ثم كان عشاء فاخر ذات مساء أقرب، حين قطع علينا الجلسة أحد كبار المصلحين، رجل جاد وقور.. مثقف بارع فاضل، يملك من حسن الخلق ما يوازي ممتلكاته من سعة العلم وإخلاص السعي.

بات الحوار هذه المرة مملاً ثقيلاً، وأصبحنا في هذا العشاء كأننا تلاميذ فصل ابتدائي أُلغيت لهم حصة الألعاب لتحل حصة الحساب.. حفنة من الهمهمات، وأخري من التثاؤبات، وثالثة من إعادة قراءة الرسائل القصيرة.

تري لماذا؟!.. فكّرت في أن أسأل الصديق الكبير الدكتور أحمد عكاشة رئيس الاتحاد العالمي للطب النفسي، ثم ترددت.. فلربما اتهمني الدكتور عكاشة بشيء من اضطراب الذهن أو خلل الإدراك حتي يزيح عن كاهله عبء الشرح والإيضاح.. فاكتفيت بأن أسأل نفسي.. تري لماذا؟

اليقين أن الاستقامة عُسر وأن الانحراف يُسر، وأن المخلصين ذو أعباء.. يحملون علي أكتافهم مسؤولية أنفسهم والآخرين، يمتد عندهم الحزن باتساع الوطن.. فهم قلقون علي وضع البلاد والعباد.. علي الصادرات والواردات، علي البطالة والاستثمار، علي الخبز والسلاح، علي الداخل والخارج.. من المحافظات إلي القارات.

وأما غير المخلصين فلا عبء ولا همّ ولا حزن، فالوطن هو الذات، والشعب هو الأبناء، والعالم هو المنزل، لا يحزن الفاسدون علي ما يصيب غيرهم، ولا تذرف لهم دمعة إذا ما كانت الأزمات خارج منازلهم، والمعاناة خارج أولادهم. من الطبيعي إذن أن تخلو ضمائرهم من عذاب الآخرين، وتخلو أفئدتهم من وجع المحيطين، وتخلو عقولهم من صخب الفلاسفة والمصلحين!

لا يحتاج الإخلاص إلي مهارات كبيرة، هي فقط فضائل وأخلاقيات، ولكن الفساد علم وفن وصناعة، الفساد إرادة وخطط وتدبير. ويحتاج الفاسدون إلي اختيار المكان المناسب والوقت المناسب والهدف المناسب، يحتاجون أحياناً إلي مسبحة وسجادة صلاة ،يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويحتاجون أحياناً إلي بدلة أنيقة وقبّعة فاخرة كأنهم قد فرغوا للتو من إدارة نصف العالم وليس لديهم الكثير لإدارة هذا الجزء من البسيطة، وقد يحتاجون ثالثاً إلي حلاوة في اللسان وطلاوة في البيان، وقد يحتاجون رابعاً إلي استرحام واستعطاف.. فيشرعون في طقوس الذل والخضوع، ثم يبتهلون إلي من يملكون بناصيتهم إطراءًا ومديحاً.

في كل ذلك يتحصل الفاسدون من خبرة الحياة، من قصصها وحكاياتها ونكتها وتفاصيلها، ما لا يتحصله المصلحون الجادون، إن المخلصين يقرأون بالليل ويكافحون في النهار، أما الفاسدون فأهل مزاج وفراغ، نهارهم تحصيل، وليلهم إنفاق، لديهم من وقائع الحياة ما يسمح بالكثير من الرواية.. فنادق وقري، مراكب وطائرات، عواصم ومطارات، أنهار ومحيطات، أضواء ونساء.. ألف قصة وقصة، عالم كامل ممتلئ بالأحداث والأشخاص، ثراء حقيقي في خبرة الحياة وخبرة تقديم الحياة.

وقد بات يتردد في علم الإدارة الحديثة كلام من نوع، ضرورة المجاملة، المبالغة في الابتسامة، حسن الحديث، تلطيف مناخ التفاوض، استخدام أسماء الأشخاص وذويهم كثيراً في الحوار.. إلي غير ذلك من كتب رديئة في مجال العلاقات العامة.. باتت تقدم النفاق والرياء والخداع باعتبارها مواصفات الرجل الاجتماعي الناجح.. هي كتب لا تقدم أي شيء غير النصيحة بأنه لكي لا تنجح فقط ،تكلم، وأحسن الكلام.. ثم تحصل بنفسك عوائد الكلام.

صار «الكلام» لدى الفاسدين سلاحاً، صار وردة حين يتطلب الأمر رقة ونعومة، وصار قنبلة حين يتطلب الحال إفساح الساحة وإخلاء الميدان.

صارت النكتة ركيزة للقوة، والفشفشة طريقاً للثروة، صارت الحكايات والروايات صناعة لها قواعد وأصول، اضحى المخلصون يتعثرون في أرقامهم وأوجاعهم، وأضحى الفاسدون مشرقين متوهجين.. قتل الوجعُ الوهج.. وبات الفاسدون يتمتعون بخفة الظل!

الجاهل إذا تولى منصباً فهو فاسد

ماذا لو تولي امورنا جاهل عفيف.. أو احمق لا يعرف الحرام؟ ماذا لو جاء إلي السلطة جاهل شريف..؟! أو تافه ذو عقل ابيض وذمة بيضاء؟ يمكنني أن أتجاسر وافتي: الجاهل إذا تولي منصبا وهو يعلم أنه جاهل فهو فاسد.

في عالم اليوم.. لا يكفي حسن النوايا ولا شهادات حسن السير والسلوك لا يكفي للمرء أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ولا يكفي ان يمنع نفسه من أكل السحت ويده من أن تمتد إلي ما حرم الله!

ليس في الحلال فضيلة تستحق التكريم ولا إنجاز يوجب المنح والعطاء والحلال فريضة لا فضيلة او هو فضيلة لا تفضل صاحبها، وفي القرآن الكريم يخاطب الله المؤمنين ..قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان.. ،الحجرات 17، ليس في الإيمان منّ وليس في عدم السرقة فضل ولا في عدم النهب شرف عظيم.

أصل الأشياء ألا يسرق المرء وألا تمتد يده إلي ما لا حق له فيه. أصل الأشياء ألا يقتل الإنسان أخاه الإنسان وألا يأكل أموال الناس بالباطل ولكن أصل الأشياء قد غاب في بلادنا.

بات المال الحلال من شيم الخاصة من الناس ، وبات عدم الفساد ميزة كبري يشار إليها كما يشار إلي الإنجازات الكبري في الحياة وما أسهل أن تسمع من يقولون عن قناعة لماذا لا يكونون كذلك ؟ لماذا لا يصبحون وزراء وكباراً، إنهم سرقوا بما يكفي ولا يحتاجون إلي مزيد من السرقة !

بل إن التقييم الاجتماعي لدي البعض صار يذهب إلي عبارات من نوع، لماذا لا يكون فلان هو المرشح لهذا الموقع، إنه سيقوم بالسرقة والنهب إنه جائع وسيظل يسرق سنين حتي يشبع أما فلان فقد سرق وشبع ولن يحتاج إلي أن يسرق من جديد!

وصلنا إلي الأسوأ.. أصبح بإمكاننا أن نقبل أوضاعا من الفساد في سبيل رفض أنواع اخري من الفساد ، صار لكبار الفاسدين علي صغار الفاسدين درجة.. صار الذين شبعوا أفضل واتقي من الذين يبداون رحلة الفساد.. صار قدامي اللصوص أرفع قامة ومقاما من اللصوص الجدد!

اقتصاديات الجهل

اقول آمنا مطمئنا، الجاهل كالفاسد ، والفاسد السابق كالفاسد الناشئ.. كلهم يدفعون وطننا إلي الخلف وإذا كان شان الفاسد واضحا جليا، فشأن الجاهل أيضا لا يحتاج إلي جلاء.

فالعالم المعاصر ينهض علي المعرفة فالطائرات معرفة والسيارات معرفة والطعام معرفة وزرع الأرض وزيارة الفضاء معرفة ، والسلاح معرفة والسلام مقدرة بعد المعرفة ، مكانة الأمم وأوضاع الشعوب وكرامة الأفراد.. كلها معرفة.

ما يفعل الجاهل إزاء ذلك كله ، ماذا سيعطينا المسؤول الجاهل إذا ما اتسم بحسن الخلق وصفاء النفس ؟ من يبني ويشيد؟ من يلاحق العالم الذي نسي مواقعنا إلا علي خرائط القتل والفوضي؟ من يدرك أن العالم مضي بعيدا وأننا نمضي إلي الخلف ابعد وأبعد؟ من يعلم أن حياة بلادنا لا يمكنها أن تمضي كذلك وأن التدهور قد يعقبه انهيار وأن السيئ قد يعقبه الأسوأ؟ من يدرك أن الحرب تحتاج إلي اقتصاد وأن الاقتصاد يحتاج إلي معرفة وأن السلطة الجاهلة محنة في السلم وكارثة في الحرب؟

إن الجاهل إذا تولي منصبا يكون أثر وجوده أسوأ كثيرا من أثر الفساد فالفساد سرقة ما هو موجود والجهل إهدار ما هو موجود ومنع ما يحتمل وجوده، الفساد مصادرة الحاضر والجهل مصادرة الحاضر والمستقبل معاً

مصريون ضد الجهل

تصيبنا خريطة الجهل في مصر بفزع شديد ، فمن يتابع تصريحات ورؤي المسؤولين الرسميين لا يجد الكثير مما يحظي بالتقدير لا للعلومات صحيحة ولا البيانات دقيقة ، ولا الخطط واقعية ولا التصورات ممكنة ولا اي شئ كاي شيء. وأما مجلس الشعب فمحنة جامعة، لا فصاحة ولا بلاغة ولا نحو ولا قواعد ، لا صوت ولا لياقة ولا حضور ولا جاذبية، لا

معرفة ولا علم ولا معلومات ولا وجهات نظر لا رأي ولا رؤية ولا رويّة.. لا فهم لطبيعة الحكومة ولا دور البرلمان ولا مكانة الوطن، لا إدراك للأولويات ولا آفاق لما يتجاوز ستين دقيقة!

مجلس الشعب يراقب الحكومة.. ضعف يراقب الضعف، وهن يراجع الوهن! لا أدري كيف يدخل هؤلاء إلي مجلس الشعب ولا كيف دخل هؤلاء إلي الحكومة؟ كيف جاء الذين لا يعلمون ليراقبوا الذين لا يعلمون؟ كيف جاء نيام ليراقبوا نياماً ، ضعف الطالب والمطلوب!

كيف يمكن البناء إذن، كيف يمكن للحياة أن تدب في وطن ماتت فيه السياسة ؟ كيف يمكن للنائب أن يكون نائبا والوزير ان يكون وزيرا والكاتب أن يكون كاتبا ، كيف يمكن تصحيح الأوضاع التي باتت أسيرة جاهل أو فاسد ؟ كيف يمكن كسر تحالف عديمي الموهبة وتقديم الذين يعملون ويعلمون ؟ كيف نسترد أنفسنا من أنفسنا؟ البداية.. الجاهل إذا تولي منصبا فهو فاسد.

عن السياسيين حديثي الولادة!

لا أحد قد فاته أن يغني لبلاده، أن يدندن لنفسه، أن يشدو لذاته، أن يزهو بتربة البداية مهما آلت النهاية، أن يشعر بالخسران إذا ما طردته الأقدار خارجها، أو اختار راضيا قرار التنحي.

لا أحد في مقدوره أن يخطو في غير مكان، أو يحيا من غير زمان، أو يقتطع لنفسه مكانا وزمانا، وأشخاصا وأشياء، ليمضي بهم وحيدا، ظنًا بحكمة التصرف وكفاءة الاختيار، لتبدو الأمور من بعد ذلك، مزيجا من صخب الصدي ووهج السراب.

هنا تضيق الجغرافيا بما وسعت، وتمور الأرض بما رحبت، فلا الشارع يكفي عن البيت، ولا الدنيا تكفي عن الوطن.

فإذا ما كان البيت ليس كشانه بيتاً، وإذا ما كان الوطن ليس كمثله وطناً، إذا ما كانت مصر هي هذا وذاك، فماذا يكون الأمر؟

لقد باتت مصر تقضي أيامها واضحة الإرهاق ظاهرة الإجهاد، وبدلا من أن تكسوها السنون الطوال قوة فوق قوة، وعافية فوق عافية، فإن ملامح الشيخوخة باتت تغالبها، بعد أن تموجت جبهتها وخفتت عزيمتها.

في مديح عبده مشتاق

لماذا صارت الخريطة السياسية عند هذا الحد من الفقر والإفلاس؟ لماذا ضمُر السياسيون وصَغرت السياسة في مصر؟

سامح الله كاتبنا الكبير أحمد رجب، فقد أفاض كثيرا في نقد شخصية المنافق، الذي يطمح إلي السلطة، ويبذل كل الجهد في سبيلها، وقد أطلق رجب عليه اسم «عبده مشتاق»

وصار هذا العبده مشتاق سبابا قويا يصم به الصحفيون كل من يسعي إلي السلطة.

نصف ما رآه الأستاذ أحمد رجب كان صحيحا، ونصفه الآخر لم يكن كذلك، ذلك ان الاشتياق إلي السلطة ليس عيبا ولا جريمة، والسعي إليها هو من طبيعة الحياة وطبائع السياسة، وأما العيب فهو في حق الجهلاء الذين يسعون لها، وأما الذين يستحقون فلا جناح عليهم إذا ما سعوا، فما السياسي إلا مشتاق دائما.

بل إن الكارثة هي عدم الاشتياق، فالاشتياق سعي وجهد وداب، وهو تكوين وتطوير وتنظيم، وهو عمل متواصل في الحزب والمجتمع وما بينهما من أجل وضع قيم أو زرع فسيلة.

وأما الكارثة، فهي أن يصل إلي السلطة من لم يحدث نفسه بها ذات يوم، أن يصل إليها من لم يدرس السياسة في الجامعات أو الطرقات، من لم يفكر في بناء مدرسة أو ترميم مستشفي أو تشييد دار للمحتاجين، من لم يعرف الفلاحين وما يزرعون ويحصدون، والعمال وما ينتجون ويحصلون.

الكارثة أن يعمل في السياسة الزاهدون عن جهل، أو الجاهلون عن زهد، من يرون أن قراهم هي العالم، وأن الدنيا لا تساوي عندهم جناح بعوضة، وأن امريكا وهم وأوروبا وهم والعالم وهم، والدنيا مسرح كبير.

لقد وصل إلي السلطة والمعارضة آلاف من غير المشتاقين، وغاب عنها عشرات المشتاقين الصالحين، غاب اساتذة ودبلوماسيون وصحفيون ونشطاء من المشتاقين الأكفاء، وطغي آخرون من المشتاقين السفهاء.

ماتت مدرسة السياسة في مصر، وازدحمت الساحة بمسؤولين صغار ومعارضين صغار، براسماليين حديثي الشبع، وسياسيين حديثي الولادة!

في مديح حزب أعداء النجاح

القصة الشهيرة التي يعرفها الكثيرون عن عميل المخابرات السوفيتية الذي جري القبض عليه، ولما قيل له: إننا لم نتمكن من معرفة جرائمك ولم نمسك عليك شيئاً محدداً، فماذا كنت تفعل كي ترضي مخابرات العدو، قال العميل قولته الشهيرة: لم أكن أفعل شيئاً كبيراً، فقط إذا طرح أمامي قرار لتعيين أحد الأشخاص في أي موقع كنت دائماً أختار الأسوأ!

القصة الشهيرة باتت تلح علي الكثير من الذين أعياهم: ما الذي يجري في مصر؟.. إن ما يجري في شأن التصعيد والتكبير لحفنة من الأقزام التافهين لم يعد يجد تفسيراً غير قصة المخابرات هذه، إنك لن تجد صعوبة في أن تعرف مقدماً نتائج السباق في أي منصب، إنه الأسوأ دون تفكير، إذا كان السباق بين الفاسد والأكثر فساداً فالغلبة للأفسد، وإذا كان السباق بين الجاهل والأكثر جهلاً فالغلبة للأجهل.. وحين يجيء الفاسد أو الجاهل فإنه يأتي بمن يكون إلي جوارهم أكثر خلقاً وعلماً.. فتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض!

حزب أعداء النجاح

المدهش حقا هو ما صرنا نسمعه في برامج عديدة ومقالات مديدة حول حزب أعداء النجاح، لقد استمعت مؤخراً إلي فاسد يحدثنا عن حزب أعداء النجاح، و كيف أن هذا الحزب بات كبيراً في مصر، وأن حزب أعداء النجاح لا يرحم أحداً ولا يترك ناجحاً إلا ونال منه، يا إلهي.. أهكذا تكون الأمور، صار هذا النموذج هو النجاح، وصار كل ناقد له هو معاد للنجاح، صار اللصوص علامة الإنجاز، وصار مناهضو اللصوص هم أعداء النجاح!

إن أعداء النجاح في هذه الحالة هم شرفاء مخلصون، وواجبهم ألا ينجح هؤلاء، مهمتهم إلحاق الفشل بهم أينما ثقفوا، وظيفتهم ألا يفرح الناجح بنجاحه، وألا يكمل هؤلاء الناجحون

إن تافهين لا قيمة لهم باتوا يكتبون في الصحف ويتصدرون ساحة الرأي والقرار، وتافهون آخرون باتوا يتصدرون العمل السياسي ناصحين ومرشدين ليل نهار.

وإذا جاء الشرفاء إلي موقع - بطريق الخطأ أو الصواب - ثم أرادوا وقف هؤلاء المنافقين فإنهم سرعان ما يصرخون: أو قفوا حزب أعداء النجاح!

إن الفساد والجهل في بلادنا بات إقطاعاً لا رأسمالاً، ليس وضعاً متحركاً يمكن القضاء عليه أو تقليل نفوذه بمعركة محدودة، بل هو إقطاع للأرض وما عليها، هو فساد عقارات لا منقولات.. ثابت راسخ آمن مطمئن!

والمعركة معه طويلة عسيرة، فالفساد يراكم ويبني ويتسع ويرتب أوضاعاً وحقائق لعينة، هب مثلاً أنك توليت رئاسة مؤسسة قد ضرب فيها الفساد طويلاً، ستجد حشداً من النواب والمساعدين وكبار المسؤولين وصغار النافذين ممن يصعب التعامل معهم. إن الإصلاح في هذه الحالة سيعني بالضرورة عدم الاستقرار، فالإصلاح معناه تغيير كل شيء.. وهو ما يعني تدمير كل شيء، يا للمفارقة.. الفساد يساوي الاستقرار والإصلاح يساوي عدم الاستقرار!

بل الكارثة التي ربما تلي المفارقة: ماذا لو تمكن الفاسدون من أن يهدموا كل البناء أثناء محاولات الترميم؟ ماذا لو قضوا علي المنزل بكامله إذا ما جري البدء بإصلاح دورة المياه؟!

هنا المعضلة، وبالنسبة لي شخصياً فقد تحدثت مع مسؤولين كبار في مؤسسات عدة.. وقلت ينبغي أن يكون التغيير والإصلاح أكثر وضوحاً وأمضي سرعة، وإلا فإن الفساد ينمو بمتوالية هندسية والإصلاح ينمو بمتوالية حسابية.. وهو ما يعني أن الفساد يمكنه أن يبتلع الإصلاح وهو نائم، وكان الرد دوماً:ينبغي أن نكون حذرين، فمثل هذه الطريقة ستؤدي إلي تقويض كل شيء، إن طبقة البيروقراطية والفساد أقوي مما تتخيل والتعامل معها تدريجياً وبلين هو الحل!

وتقديري أن هذا كلام فارغ، وأقتنع تماماً بأن الواجب الوطني لا ينبغي أن يضع في اعتباره لا المفارقة ولا الكارثة، تقديري أنها منبحة إصلاح شامل وقاس وصارم.

لا ينبغي أن نلاحق الفساد والجهل موقعاً وراء الآخر وشخصاً وراء الآخر في سنوات وعقود.. ذلك أن القضاء علي الفساد المعاصر سيتطلب وقتاً يكون فيه جيل جديد من

الفاسدين قد ظهر وجيل آخر من الفاسدين يستعد!

هي ضربة رجل واحد في وقت واحد وفي كل مكان، هي ثورة إصلاح عنيفة لا تهادن ولا تدلل ولا تربت علي الأكتاف.

أن تكون مستشاراً لجاهل

إن أكبر الجرائم التي تقع في بلادنا هي اختيار شخص جاهل لمنصب كبير، ثم القول بأنه لن يكون وحده فسوف نحيطه بعدد وفير من المستشارين والخبراء، لن نتركه يعمل وحده بل سيكون إلي جواره من يعمل ويساعد ويدعم، وأعود إلي تجربتي من جديد، ولقد اقتربت في حياتي من قيادات جاهلة، وكم بذلت جهداً خارقاً كمستشار وناصح، واليوم أعترف تماماً بان هذا التفكير كان خطأ، فالقيادة الجاهلة إنما تستثمر ما نقول في أن تكرس من واقعها وتحصن من ثكناتها.. وأما نحن المستشارين فإنما نبدأ مخلصين قاصدين الإصلاح ما استطعنا وننتهي محبطين بعد أن بنينا للجهل صرحاً والبسنا الفاسدين ثوباً واقياً!

اعترف الآن بأن اعظم المستشارين لا يمكنه أن يساعد مسؤولاً جاهلاً، وأشرف الناصحين لا يمكنه أن يقوّم مسؤولاً فاسداً.. كل عام والفساد بألف شر!

مصر إذا حاربت

ماذا لو قررت مصر دخول حرب، أو كُتب عليها القتال؟.. ماذا لو كان علينا أن نعيش في حرب، بعد أن قضينا عقوداً في ظل السلام؟

هناك من يتحدث في إسرائيل عن حرب قادمة مع مصر، وهناك من قال إن فصل الشتاء هو الأفضل لبدء الحرب، وهناك من اختار السادس من أكتوبر يوماً لبداية جديدة. وظني أن هذه كلها احتمالات بعيدة.

وكما أن التفكير الاستراتيجي السليم يقتضي أخذ ذلك كله مأخذ الجد، وكما أن إدارات الدول تضع خططها للحرب، مثلما تضع خططها في السلام، فإن علي مصر أن تفكر فيما يمكن أن يحدث، إذا ما تحركت الجيوش وبدأت معارك السلاح.

**كنت مسؤولاً عن قسم الأبحاث في قناة أبوظبي، وقت حرب الخليج الثالثة، وكنت مع زملاء لي في غرفة الأخبار، حين بدأت الولايات المتحدة حربها علي العراق.. كانت الصواريخ تهبط بلا رحمة، وكانت أضواؤها أقرب إلي بانوراما للألعاب النارية.. وقتها كانت العاصمة تهوي تحت النيران، علي الرغم من اتساعها وعرضها، وعلي الرغم من عدم وجود عمارات شاهقة أو تكدس سكني ضخم.

أول ما جال في خاطري في تلك اللحظات الكئيبة.. ماذا لو كانت القاهرة؟.. ماذا لو دخلنا حرباً وبدأت الألعاب النارية المتبادلة في الانطلاق؟

لقد عاد ذلك الخاطر اللعين إلي نفسي في العاشر من رمضان الماضي، ولايزال، كانت القاهرة كسيحة من غير حرب، جريحة من غير قتال، بائسة.. مزدحمة.. مرتبكة من غير خنادق ولا صفارات إنذار!

**لاتزال القاهرة، كذلك في كل يوم، مدينة ميئوس منها، قضيت في شارع قصر

العيني قبل أيام ساعتين في ألف متر، ويقضي سكان القاهرة يومياً في الشوارع، مثلما يقضون في منازلهم.. لا نظام ولا قانوناً.. لا شوارع ولا مرافق.. لا إشارات ولا جراجات!

**يا إلهي.. كيف فشل وطن كامل بألف حكومة وألف ألف وزير في إدارة مدينة واحدة، كيف تحولت عاصمة التاريخ إلي قطعة من جغرافيا العذاب؟.. خمس وعشرون محافظة تعمل خادمة لمحافظة وحيدة هي العاصمة.. لنجد مشهداً بائساً في النهاية.. فشل الخادم والمخدوم؟

إذا كانت تلك الهزيمة الحضارية اليومية، ومصر تعيش عصر استقرار وسلام، فماذا لو أراد الأعداء إطفاء العاصمة وإغلاق الأبواب؟ ماذا لو بدأت أصوات الصواريخ والطائرات؟، هب أن مصر دخلت حرباً الآن، وهب أن صواريخ وقعت فوق القاهرة، فأصابت الأزقة والشوارع، وأوقفت الكباري والأنفاق.. فكيف يمكن نقل الجرحي؟ كيف يمكن إدارة تموين ومعيشة عشرين مليوناً توقفت بهم حركة الحياة؟ كيف يمكن لشوارع القاهرة.. العاجزة في ظل السلام.. أن تعمل بنجاح في زمن القتال؟!

إنه سيناريو مفزع للغاية.. وإنني لأتذكر الآن ما نسب إلي مناحم بيجن من قبل، حين سئل عن احتمالات التقدم والانتصار في مصر.. فأجاب، لا قلق من مصر، ما بقيت هكذا قواعد المرور!

**ماذا تفعل حكومتنا إذن؟ إنها مسؤولة عن ثلاثة شوارع لثلاثين دقيقة.. إنها حكومة تسيير المواكب وشلّ الوطن.

إن مصر لم تخض حرباً منذ كان عدد سكانها ثلاثين مليون نسمة، كيف يمكن لها أن تخوض حرباً، وفي عاصمتها مليونا مشرد ونصف لمليون ،توك توك!

اقتصاد المرض

لم أكن أتخيل أبداً أن المرض صار قابضاً على المصريين إلى هذا الحد، أعرف بالطبع معاناة كثيرين من أمراض متعددة، وأراقب الموت البطيء لبعض المرضى، غير مصدق أن النهاية هي هي دون تغيير أو تعديل!

لم أعد أجد مفاجآت في الشفاء قدر ما أجد التوقعات المعتادة بالتدهور والانهيار.

في كثير من دول العالم لا يعنى المرض سوى فاصل من العذاب أو محنة محدودة أو وجع له بداية ونهاية، ولكن في بلادنا.. أصبح العذاب مفتوحاً والمحنة دائمة والوجع بلا نهاية!

لقد صدمت حين حضرت فعاليات القافلة الطبية «افحص كبدك» والتى نظمتها الجمعية البحثية لأمراض الكبد برئاسة الدكتور رضا الوكيل بالتعاون مع مؤسسة الشيخ محمد المسلماني الخيرية. انعقدت القافلة التى ترأسها الدكتور عبد الرحمن الزيادى وضمت صفوة من أساتذة الكبد المصريين في مقدمتهم الدكتور جمال شيحة والدكتور محمد العتيق.. في مستشفى بسيون المركزى، وحضرها قرابة الثلاثة آلاف مريض.

كانت صدمتى بلا حدود.. أعداد كبيرة من المرضى، جميعهم يقولون إننا نواجه الموت دون سند من أحد.. إنهم يعانون ويلات وزارة الصحة مضافة إلى ويلات المرض. لا علاج على الإطلاق.. ولا قدرة على العلاج خارج الدولة، فالمريض الواحد يحتاج عشرات الآلاف من الجنيهات وهو لا يملك عشرات الجنيهات من غير الآلاف.

قال لى أحدهم: لقد قلت لنا حاولوا أن تأتوا صائمين من أجل الكشف.. ولو لم تقل لنا ذلك.. كنا سنأتى صائمين لأننا نعطى ما نملك من إفطار لأبنائنا الذاهبين إلى المدرسة.. نحن نصوم من أجلهم.. وقال آخر: لقد اقترضنا حتى نأتى إلى بسيون.. وهؤلاء جميعاً عليهم أن يدفعوا عشرات الآلاف من أجل علاجهم.

قلت لهم: وماذا عن العلاج على نفقة الدولة؟.. تمنيت لو أن الحكومة سمعت ردود الناس على هذا السؤال ،لا علاج على الإطلاق.. وعليك أن تذهب إلى العيادات الخاصة وتدفع الرشاوى في المستشفيات لكى يمكنك عمل تحليل وتدفع أكثر لكى تجد قرار علاج على نفقة الدولة لن تستطيع أبداً تجديده!..

الناس في مصر يموتون.. هناك كارثة الإنهاء البيولوجى للمصريين.. مياه قذرة وصرف صحى غائب وطعام ملوث.. ومرض قاتل.. وحكومة غائبة قال لى أحدهم.. إن ابنى مريض وابن أخى مصاب وأخاه مصاب.. من الذى سيحارب بعد عشر سنوات أو عشرين عاماً.. هل يستطيع مرضى الكبد مواجهة إسرائيل؟!

الدولة العِزبة.. أوهام "التايم"

ترى مجلة «التايم» الأمريكية أن الحل في الشرق الأوسط هو أن يتحول إلى عشرات الدول، لكل طائفة دولة من أجل وضع نهاية للعذاب والألم في صراعات الشرق الأوسط.

إن «التايم» وهى تصف تلك الخرافات الاستعمارية بالأفكار الجديدة، تدرك تماماً.. أنها ليست بالأفكار ولا هى بالجديدة، وإنما هى عودة للفكر الاستعمارى القديم. إنها أفكار ضد نظرية الدولة، وضد ما استقر في السياسة الدولية منذ صلح وستفاليا ونشأة الدولة القومية الحديثة. إنها أفكار تخريبية تدعو لأكثر من عراق، وأكثر من سودان، وأكثر من يمن، وأكثر من لبنان.. هى تدعو لأكثر من جزائر وأكثر من مغرب وأكثر من سعودية وأكثر من أردن وأكثر من سوريا.

هى في نهاية المطاف دعوة لاستقلال الشيعة والعلويين والأكراد والتركمان والموارنة والبربر وأهالى دارفور وجنوب السودان، وشرق السودان، وشرق السعودية، وجنوب ووسط وشرق وشمال وغرب اليمن.. إنها دعوة لإقامة نموذج «الدولة - العزبة» في العالم العربى، ثم إنها عملية لا نهاية لها.

فإذا ما استقل شمال العراق على أنه دولة كردية، طلب تركمان شمال العراق الاستقلال عن أكراد الشمال.. فتصبح لدينا دولة كردستان ودولة تركمانستان في الشمال العراقى، وإذا ما حدث ذلك جاء الانقسام الدينى.. ثمة كردستان السنية وثمة كردستان الشيعية، ليجيء الدور من بعد ذلك على دولة الصابئة، ودولة الآشوريين، ودولة اليزيديين!

وفى لبنان ربما وجدنا سبع عشرة دولة تمثل كل دولة فيها طائفة أو شبه طائفة.. فإذا ما قسمنا مساحة لبنان على سبع عشرة دولة أصبحت كل دولة تحوى سكانا أقل من العاملين والمترددين على مبنى الإذاعة والتليفزيون في ماسبيرو.

والأمر ذاته في السودان.. سينتهي الأمر لدولة القبيلة، وربما أصبحت الصومال الممزقة اكثر تماسكاً من دول كالسودان والعراق ولبنان والجزائر.. إذا ما جرى تطبيق الفكر الجديد للمجلة المرموقة!

إنها دعوة لنهاية الدولة.. بعد التبشير بنهاية التاريخ، لكن نهاية الدولة وتحقيق الارتياح البدنى والنفسى لكل عائلات الشرق الأوسط ليسا مطروحين في الغرب نفسه.

إن في إسبانيا صراعا عنيفاً بين مدريد وبرشلونة، وإن منظمة «إيتا» الانفصالية أرهقت المملكة الإسبانية في حروب وأعمال تخريب لا نهاية لها، وفى بريطانيا شهد الزمن المعاصر ذلك الصراع الدامى مع الجيش الجمهورى الأيرلندى، كما شهد رغبة أسكتلندا الجارفة في الاستقلال.

وتشهد إيطاليا تلك المنافسة العدائية بين ميلانو وروما.. ورغبة قوى سياسية في الجنوب الإيطالى في الانفصال، وفى فرنسا لايزال الوضع النفسى لسكان إقليم الألزاس غير مستقر تماما لصالح الوطنية الفرنسية، ولايزال سكان كورسيكا الفرنسية الذين رموا الرئيس شيراك بالطماطم وأهانوا النشيد الوطنى الفرنسى يعملون من اجل الاستقلال.

لكن كل ذلك لا يعنى شيئاً لدى المجلة الأمريكية الشهيرة ولا خرائطها الجديدة.

ذلك ان القيم الإنسانية الرفيعة للرأسمالية الغربية إنما تعنى فقط بالمظلومين في الشرق الأوسط.. أما معاناة المضطهدين والانفصاليين في الغرب.. فلا وجود لها!

السادات يموّل حملة نيكسون

■ يروى الأستاذ محمد حسنين هيكل، في كتابه «المقالات اليابانية»، قصة تفكير الرئيس السادات في تمويل الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون. يقول الأستاذ هيكل: «استدعانى الرئيس السادات يوماً يسالنى عن رأيى في عرض قُدّم إليه بالاشتراك في تمويل حملة نيكسون الثانية عام 1972. قال السادات إن هناك (12) مليون دولار مطلوبة الآن لتمويل حملة نيكسون، خمسة ملايين دولار سوف تتحملها السعودية، وخمسة ملايين اخرى تتحملها الكويت، والوسطاء يطلبون من مصر (2) مليون دولار، مراعاة لظروفها المالية».

■ يقول الأستاذ هيكل: كان رأيى أن تبتعد مصر عن هذه اللعبة الخطرة.

■ يلفت الانتباه أن تاريخ تلك الرواية كان حساساً وخطيراً للغاية، حيث جرى التفكير في ذلك قبل عام واحد من حرب اكتوبر وبعد عامين فقط من حرب الاستنزاف وخمسة أعوام من النكسة.

■ وظنى أن الرئيس السادات الذى كان يعرف جيداً ماذا يريد وماذا يستطيع، كان يفكر في هذه الأثناء على نحو ما كان بعد ذلك، كان يفكر في حرب مُزَلْزِلَة لإسرائيل.. ثم في تسوية سلمية تعوّض بالسياسة حدود السلاح، كان تقدير السادات أنه يحارب إسرائيل وما وراء إسرائيل، وأن الدعم السوفيتى لبلادنا ليس بما يكفى للحسم العسكرى.. ومن ثم فإن ركيزة القوة الأولى في حربنا المقبلة مع إسرائيل هى الجندى المصرى.. تخطيطاً وإعداداً وقتالاً، وأن عبقرية الجيش ستغطى عجز السلاح، غير أن ذلك كله لن يكون بإمكانه حسم الصراع مرةً واحدة وفى حربٍ واحدة، لذا لابد من السياسة لتكمل الطريق.. وكان تقدير السادات أقرب للمقولة الاستراتيجية الأشهر: «الحرب هى امتداد للدبلوماسية»، ولكن بصورة

اخرى، والدبلوماسية امتداد للحرب، ولكن بصورة أخرى، فاعتمد السادات الحرب والسياسة معاً في معركة شاملة.

واذكر اننى سألت الفريق «الشاذلى» عن الخيار الاستراتيجى إذا لم يكن خيار السادات الذى يشمل الحرب والسلام معاً.. وكان تقدير الفريق الشاذلى الذى سمعته منه أنها الحرب مرة ثانية وثالثة ورابعة.

رؤية الفريق الشاذلى تنتصر لفكرة الحرب المفتوحة حتى لو امتدت قرناً من الزمان.. وهى رؤية وطنية جسورة.

رؤية الرئيس السادات.. أن الحرب المفتوحة لن تكون في صالحنا.. وأن الوقت في صالح إسرائيل.. لأن كل عام يتاخر في استرجاع سيناء.. ستكون المستوطنات والمهاجرون اليهود والسلاح الأمريكى قد صعّبوا كثيراً من الحرب التالية، في قولةٍ واضحة.. كان السادات يفضّل أن تكون الحرب السادسة بين مصر وإسرائيل (حرب ما بعد 1973)، تبدأ من نقطة أفضل.. سيناء معنا وجيشنا هناك وسكّاننا يقطنون اراضينا.. لا مستوطنين ولا مستوطنات، وربما أراد السادات من التفكير في تمويل حملة نيكسون أن يسهّل الجزء الثانى من المعارك الدبلوماسية بعد معارك السلاح.

يرى الأستاذ هيكل أن مشاركتنا في تمويل حملة نيكسون لعبة خطرة، وهذا صحيح تماماً، ولكن متى كانت إدارة السياسة في الأزمات الكبرى بعيدة عن الخطر. إن الكل يلعب في امريكا ويعبث في امريكا بل ويعبث بأمريكا، لماذا لا نكون ضمن اللاعبين هناك؟ لماذا لا نشارك في شراء ما نستطيع شراءه واستقطاب من نستطيع استقطابه هناك؟! كتب الأستاذ محمد المنشاوى قبل فترة: لماذا لا نتدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.. وأكرر السؤال بدورى: لماذا لا نتدخل؟!

لماذا تاخرنا كل هذا الوقت في تأسيس لوبى مصرى في الولايات المتحدة الأمريكية؟!

الأهرام تشترى النيوزويك

التقيت الأستاذ محمود شمّام على غداء في دبى، وكانت في صحبتنا الإعلامية الجزائرية خديجة بن قنة، والسعودية نادين البدير.. ثم انضمت إلينا الأستاذة وسيلة عولمى.

محمود شمّام، إعلامى ليبى، يقيم في واشنطن، كان رئيس تحرير الطبعة العربية من مجلة نيوزويك الأمريكية.

قلت للأستاذ شمّام: لقد قرأت عن الأزمة المالية التى تواجه مجلة نيوزويك.. وعن عرضها الآن للبيع.. وقد اقترحت في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» أن تقوم «الأهرام» المصرية بشراء «نيوزويك» الأمريكية.. فماذا ترى؟ قال لى: هذه فكرة جيدة.. الأهرام لها اسم وتاريخ، وإذا استطاعت ذلك ستكون بالنسبة للإعلام العربى ضربة القرن.

قلت له: هل لديك تقديرات لحجم هذه الصفقة؟! قال ربما 700 أو 800 مليون دولار.

قلت له: وهل تعتقد أن الأجهزة الأمريكية والمنظمات الصهيونية هناك يمكن أن تسمح بصفقة كهذه؟ إنها النيوزويك الأمريكية، والأهرام تنتمى لبلد عربى إسلامى في الشرق الأوسط.. ثم إن لنا دوراً مركزياً في الصراع مع إسرائيل. قال: لا أعتقد أن صفقة كهذه يمكن أن تمضى هكذا بسهولة أو هكذا بوضوح وشفافية، يجب أن يكون هناك طاقم قوى من المحامين الأمريكان، ويجب أن يَتوه المالك الأصلى عبر سلسلة طويلة من الوسطاء.. وهذا ممكن، بل إن هذا معتاد في عدد من المؤسسات الإعلامية.. يمكن أن تشارك الأهرام مؤسسات أوروبية أو أمريكية، أو أن تنشئ شركة والشركة تنشئ شركة والشركة تنشئ شركة.. والشركة الأخيرة تشكّل مع شركات نشر وصحافة أخرى شركةً دولية.. ثم تتقدم هذه الشركة الدولية التى تعود ملكيتها للأهرام بإبرام الصفقة.

■ كنت قد اقترحت قبل أسابيع أن تقوم مؤسسة الأهرام- بدلاً من إنشاء تليفزيون الأهرام الذى لو اصبح إخبارياً محترماً سيتكلف نصف مليار جنيه سنويا- بشراء مجلة نيوزويك الأمريكية.. لن يكون الهدف من ذلك أن تستعيد الأهرام مكانتها «العالمية» من خلال صفقة عملاقة تشترى بها مجلة «عالمية»، ليس هذا فحسب، بل أن تمتد القوة الناعمة المصرية من القاهرة إلى واشنطن ومن مطابع قليوب إلى التأثير على العقل الأمريكى.

إن امتلاك مجلة «نيوزويك» سيعطينا قدرة لا سابق لها في الدفاع عن مصالحنا وقضايانا، وفى مجابهة اللوبى الإسرائيلى الذى يعبث بنا وبمكانتنا داخل أروقة الإمبراطورية الأمريكية دون رادع ولا منافس.

إن امتلاك مجلة النيوزويك يمكن أن يحافظ على مصالحنا الضيقة كالمعونات إلى مصالحنا الكبرى في مواجهة إسرائيل، وفى إدارة مياه النيل، وفى صياغة رؤيتنا للشرق الأوسط الحالى والشرق الأوسط القادم.

إنها ليست مجرد مجلة، ولا شراؤها مجرد صفقة، ولا سيطرتنا عليها عملاً مظهرياً محدوداً كشراء قصر أسطورى أو يخت فخيم.. بل إنها إحدى أدوات تنفيذ السياسة الخارجية المصرية.

لذا على «الخارجية» أن تساعد في التمويل، وعلى الدولة في مستوياتها المختلفة أن تساعد الأهرام في تلك الصفقة الاستراتيجية.

■ إذا كان روبرت مردوخ قد أتى إلى بلادنا وبدأ شراء عقلنا وتراثنا فهيا نواجهه هنا.. ونواجهه هناك.. أثق تماماً أننا نستطيع.

لماذا لا تشترى مصر قنبلة نووية؟ (1)

أصابنى حزن شديد لما جاء على لسان السفير ماجد عبدالفتاح، مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة، من أن مصر رفضت عرضاً بشراء قنبلة نووية.. كان السفير يتحدث مع دبلوماسية أمريكية - كما جاء في وثائق ويكيليكس - وكان الحديث عن التسلح النووى في العالم.. وفاجأ سفيرنا المسؤولة الأمريكية بقوله: لقد جاءتنا عروض بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بشراء قنابل نووية، ولكن السلطات المصرية رفضت العرض.. وقد فوجئت المسؤولة بما سمعت، وسألته عن تفاصيل ذلك.. لكن سفيرنا كان أكثر تحديداً.. وقال: جاءنا ذلك من دول الاتحاد السوفيتى.. وأنا كنت في موسكو وأعرف ذلك.. لكن ما يهم هنا أن أؤكد أننا لو أردنا امتلاك سلاح نووى بهذه الطريقة لفعلنا.. ولكننا مخلصون فعلاً لمبادئ السلام العالمى.

■ مرة أخرى.. أصابنى حزن شديد لما قرأت.. وتساءلت: لماذا رفضت مصر أن تشترى قنبلة نووية؟ وما المنطق الذى حكم الدولة المصرية في هذا؟.. كيف فوتت علينا السلطة هذه الفرصة العظيمة؟

■ إننى أدرك تماماً خطورة ما أقول.. وأعرف الصعاب الكبرى التى تواجه مثل هذه الصفقة.. ستكون رحلة القنبلة معرضة لعيون كل أجهزة المخابرات في العالم.. وسيكون سهلاً لمن يبيع لنا ويقبض أن يبيعنا بعد ذلك ويقبض مرة أخرى.. كما أن الأمر يتجاوز صفقة شراء شحنة من القمح أو حتى سرب من الطائرات.. إن صفقة كشراء قنبلة نووية تحتاج إلى استعداد علمى وتكنولوجى في مصر، من النقل إلى داخل البلاد، ثم إلى النقل إلى الموقع النهائى، ثم إلى حفظ وصيانة وإدارة وحماية واستخدام موقع مصرى يستضيف قنبلة نووية.. ثم إن عيون العالم وعيون الوكالة لن يكون من السهل إغماضها طوال الوقت.. بل إن الأخطر يتمثل في ضرورة الإعلان للعالم أننا أصبحنا نمتلك قنبلة نووية.. ذلك أن ما هو أهم من امتلاكها.. هو استخدام استراتيجية الردع بالإعلان عنها.

■ أقول.. إننى أدرك كل ذلك وغيره.. ولكننى أدرك أيضاً أن بعض السياسة تحتاج إلى مغامرة وأن الوضع القائم بيننا وبين إسرائيل لن يدوم إلى الأبد.. سياتى في بلادنا رؤساء وقادة آخرون، وسياتى في إسرائيل ساسة وجنرالات آخرون، وما يحكم اللعبة الآن لن يظل حاكماً لها إلى الأبد.

إن المعضلة الأساسية التى تواجه العقيدة العسكرية المصرية في صراعنا مع إسرائيل، هى السلاح النووى الإسرائيلى.. وأذكر أننى سألت الفريق الشاذلى.. ماذا لو كانت إسرائيل قد استخدمت السلاح النووى في حرب 1973 وكانت إجابته قصيرة وحاسمة.. كان علينا ألا نضع هذا الاحتمال في حساباتنا.. إهمال بعض الاحتمالات أفضل من التفكير فيها.

وقد طور الاستراتيجى الكبير المشير محمد عبدالحليم أبوغزالة أفكاراً مهمة حول كيفية إدارة حرب مع إسرائيل تستخدم فيها إسرائيل السلاح النووى، ورغم ذلك يمكن هزيمتها...

لماذا لا تشتري مصر قنبلة نووية (2) *

■ أعرف جيداً حجم المخاطر والمحاذير التى تنتاب خطوة عملاقة بهذا الاتساع.. لكننى أدرك أيضا أن البلادة السياسية والكسل الاستراتيجى يقودان إلى مخاطر أعظم وأفدح.

1- إن حالة السلام بيننا وبين إسرائيل لن تدوم إلى الأبد.. فلم يعرف التاريخ سلاماً نهائياً.. ولا صلحاً يمضى حتى نهاية العالم.

2- إن أى حرب قادمة بيننا وبين إسرائيل لابد أن السلاح النووى سيكون حاضراً فيها.. إما حاضراً في مخازنه يمارس الردع قبل أى انطلاق، أو حاضراً في السياسة يجرى التلويح به من أجل تحقيق نصر بلا حرب، أو حاضراً في الاستخدام فينال من البشر والحجر!

3- لن يصل العالم أبداً إلى المستوى الأخلاقى، الذى ينزع فيه السلاح النووى من المخازن والقواعد.. ويحيله إلى زمنٍ غابر وتاريخ بائد.. ولن تصل إسرائيل، التى تأسست على العنصرية والعداء، إلى مستوى أخلاقى يفوق أخلاقيات العالم.. فتنهى طواعية ما لديها من رؤوس نووية.. إن نزع سلاح إسرائيل النووى حلم مستحيل.

4- لا حل أمامنا إلا امتلاك سلاح نووى.. أو امتلاك القدرة على إنتاج سلاح نووى.. ويكون ذلك وفق عقيدة عسكرية تحرّم تماماً استخدامه وتمنع بكل السبل الانفعال في تحقيق وظيفته.. أو التوسع فيها.

5- إن إنجاز ذلك «الإنتاج العسكرى للقوة النووية، مثل «إسرائيل» أو «القدرة على الإنتاج العسكرى للقوة النووية، مثل «اليابان وألمانيا».. لن يكون سهلاً إذا ما جرى بالطرق التقليدية.. ذلك أننا مقيدون بالتوقيع والتصديق على معاهدة منع الانتشار النووى.. كما أن أعين

*نشر هذا المقال في 3 يناير عام 2011

الوكالة والجواسيس وعشرات الأقمار الصناعية تلاحقنا على مدار الساعة.. يضاف إلى ذلك توحش إسرائيل في نفوذها الدولى وتراجع النفوذ المصرى إقليميا ودوليا.. ثم يضاف أيضا إلى ذلك الذعر العالمى من امتلاك عرب ومسلمين سلاحاً نووياً.

6- ربما يكون الخيار الأفضل هنا هو امتلاك مصر قنبلة نووية بطريق الشراء .وقد كان سقوط الاتحاد السوفيتى فرصة ذهبية لتحقيق ذلك الهدف، وربما يكون علينا الانتظار حتى تسقط دولة نووية أخرى.

7- اخطات الحكومة المصرية، لأنها رفضت تلك الفرصة الذهبية لأمننا القومى إبّان سقوط الاتحاد السوفيتى.. وربما كان ذلك الوقت تحديداً من افضل الأوقات لاتخاذ ذلك القرار. ذلك ان امريكا كانت تحتاج مصر لمواجهة صدام حسين، وكان جورج بوش الأب في السلطة وهو صديق لمصر وكان يملك تقديراً معقولاً لبلادنا.

كما ان بيل كلينتون كان اكثر دفئاً مع القضايا العربية.. أو لنقل بعبارة أدق.. كان جورج بوش الأب وبيل كلينتون اقل عداءً وتربصاً من الإدارة البغيضة لبوش الابن والأغبياء المحيطين به.

8- لا يعنى ذلك أن إدارة بوش الأب أو كلينتون كانت ستصمت إزاء محاولتنا شراء القنبلة السوفيتية.. لكن ما اعنيه أنه كان يمكن وقتها إدارة الأزمة سلمياً في حال الفشل أو الانكشاف. ذلك ان تسليم قنبلة نووية.. أو القيام بتدميرها.. أو إعطاء الملفات الخاصة بشرائها.. إنما هو عمل كبير.. لابد أن يكون له مقابل كبير.

■ في قولة واحدة، في حال الفشل ستكون لدينا مزايا وثمن.. وفى حال النجاح ستكون لدينا قنبلة.

إلغاء دورة حوض النيل

■ إننى أقدر تماماً تلك النوايا الطيبة والأهداف النبيلة التى حكمت تفكير المسؤولين الرياضيين في بلادنا.. بشأن إقامة دورة حوض النيل لكرة القدم.

■ ولكن النوايا الطيبة لا تكفى وحدها لصنع السياسة الخارجية.. ذلك أن دول حوض النيل تمثل الآن أهم مجال استراتيجى لنا، ويحتاج التعامل معها إلى درجة من الدهاء والعمق تتجاوز نوايا الطيبين.

■ إن كرة القدم لا تمثل تلك الأداة الجيدة لتعميق علاقاتنا بدول حوض النيل.. ولا هى الوسيلة المناسبة لتوطيد أواصر الصداقة بين شعوب النيل.. ذلك أن كرة القدم باتت أداة للفرقة والجفاء.. بل هى أداة للخصومة والعداء.. وبعد كل مباراة لكرة القدم في أى مكان تولد مساحة جديدة للغضب والحقد.

■ لقد فشلنا، على مدى سنين طويلة، في ضبط العلاقة بين جمهور النادى الأهلى وجمهور نادى الزمالك.. وكذلك جمهور الأهلى وجمهور الإسماعيلى، وقد سمعت عشرات المتعصبين للنادى الأهلى يقولون إنهم يتمنون هزيمة الزمالك ولو كانت الهزيمة من فريق إسرائيلى.. وسمعت عشرات آخرين يفضلون هزيمة الأهلى ولو كانت على يد ناد من تل أبيب. الأغلب بالطبع أن ملايين المشجعين ليسوا بهذه الحماقة.. لكن هذه الملايين تكنّ كل الحب والوفاء لناديها وكل الكراهية والأمنيات بالفشل للفريق المنافس. ويتولى بعض المشجعين تحويل الكراهية إلى حجارة ونيران!

■ الأمر يزداد سوءاً إذا ما كانت هناك انقسامات عرقية أو سياسية تتوازى مع الانقسامات الرياضية.. مثلما هو الحال بين جمهور نادى برشلونة وجمهور نادى مدريد.. أو بين جمهور نادى روما وجمهور نادى ميلانو. ويصل الأمر إلى مستوى مشين أحياناً بين

الجمهور الفلسطينى والجمهور الأردنى في بعض المباريات.

■ وعلى صعيد العلاقة بين الدول.. فقد كانت منتخبات كرة القدم عاملاً في تدهور هذه العلاقات لا في قوتها.. ولم تساهم كرة القدم في توطيد العلاقات بين شعوب الأمة العربية قدر ما ساهمت في إحداث شروخ نفسية بينها.

ولاتزال أمتنا تعانى ذلك الجفاء الذى وقع بين مصر والجزائر بعد مباراة لكرة القدم.. وهو ليس بالجفاء العابر.. بل هو واصل إلى حد العداء.. حيث دارت المعارك الإعلامية بين الحمقى في البلدين.. مما أثر اقتصادياً وسياسياً بشكل جسيم، وهكذا فإن التحالف بين مصر والجزائر في حروب أمتنا ضد فرنسا وإسرائيل.. قد انكسر عقب مباراة ركيكة لكرة القدم!

■ ولقد أدت مباريات كرة القدم إلى حرب بين هندوراس والسلفادور في القارة الأمريكية الجنوبية.. ولاتزال كرة القدم قادرة على إشعال حروب أخرى!

■ لا وجود لهذه المقولة الكاذبة «دبلوماسية كرة القدم».. إلا في حدود ضيقة للغاية.. الواقع أننا إزاء دور غير سلمى لكرة القدم. وعلى ذلك لا يمكن اعتبار مباريات الدولة مع دول أخرى جزءاً من ممارسة القوة الناعمة.. إذ إنها قد تكون خصماً من القوة الناعمة لا رصيداً لها.

■ وإذا كان الأمر كذلك.. وإذا كان العقلاء منا يتمنون لو تم إلغاء مبارياتنا مع الأشقاء العرب.. فهل من الحكمة أن نقوم الآن بتنظيم دورة حوض النيل؟.. لا أعتقد.

كلية العلوم جامعة القاهرة

إذا صلحت كلية العلوم، صلحت مصر كلها، وإذا فسدت كلية العلوم، فسدت مصر كلها. إنني واحد ممن يؤمنون تمام الإيمان بأن السياسة لا قيمة لها من غير اقتصاد، وأن الاقتصاد لا قيمة له من غير العلم، وأؤمن أيضا بأن مصر باتت منطقة منزوعة السياسة والاقتصاد، وأننا إزاء حكومة تسيير أعمال أكثر مما نحن إزاء سلطة لها رؤية في التقدم وفلسفة في البناء.

في مقدمة كتاب «الذرة والقنبلة الذرية» يقول العالم الكبير د. مصطفي مشرفة، العميد الأشهر لكلية العلوم: «أذكر أنني التقيت دولة النقراشي باشا في حفلة شاي، أقامها المغفور له أحمد ماهر باشا، في حديقة منزله عام 1939، وكان معنا دكتور فارس نمر باشا، ودار الحديث حول الأحداث الدولية التي سبقت قيام الحرب، فقلت عندئذ: «إن العمل الذي قام به (هاهن واشتراسمان) من فلق ذرة اليورانيوم ربما كان أهم حدث في أخبار العالم».

تذكرت الدكتور مشرفة وأنا أتابع أهم حدث في أخبار كلية العلوم جامعة القاهرة عام 2008، إنه إحالة جميع المعيدين في قسم الكيمياء للتحقيق بعد أن شاركوا في إضراب الأساتذة، هكذا من جدول أعمال إلي جدول أحزان، من اهتمام النقراشي باشا بمتابعة حركة العلم في العالم، إلي انشغال الدكتور نظيف بطابور الخبز في بولاق، ومن انشغال الدكتور مشرفة بفلق ذرة اليورانيوم إلي انشغال عميد علوم القاهرة بإحالة شباب العلماء إلي لجان التحقيق.

كانت كلية العلوم تفكر لمصر، وتخطط لمصر، وتحلم لمصر، الآن صغر الحلم وهبط الفكر، وانحسر التخطيط للحصول علي راتب وحوافز دراهم معدودات، صغر حلم كلية العلوم ليصغر معه حلم وطن بأكمله.

ينقل د. محمد الجوادي في كتابه الرائع «مشرفة بين الذرة والذروة» عن الدكتور مشرفة قوله: «سألني سائل: لماذا تعني بأمر البحوث العلمية؟ وهل ينتظر أن نصل إلي أكثر مما وصل إليه غيرنا من الأمم التي سبقتنا في هذا المضمار.. الا يكفي أن ننقل عنهم الآراء والبحوث والنظريات؟

فضرب مثلا بصناعة اللاسلكي، وشرح قصة اختراع اجهزة اللاسلكي، بدءاً من 1860 حينما اكتشف «كلارك مكسويل» وجود أمواج كهرومغناطيسية، إلي أن وضع «ماركوني» أسس هذه الصناعة، ثم قال مشرفة: «الثروة الناشئة عن صناعة أجهزة اللاسلكي في امريكا وحدها تقدر بنحو 750 مليون دولار، أي نحو «150 مليون جنيه»، فلو أننا استطعنا ان ننشئ صناعة كهذه في بلادنا لتغير مركزنا الاقتصادي تغيرا جذيا، كما أننا إذا استطعنا أن ندخل عليها التحسينات الفنية فإن ذلك يزيد من دخلنا منها أضعافا مضاعفة، وعلي استخدام هذه الأجهزة تتوقف حياتنا إذا نشبت الحرب، وتتحول الفكرة العلمية إلي وسيلة من وسائل الدفاع القومي.

* هكذا في ثلاثينيات القرن الماضي كان عميد كلية العلوم يبني الجسر بين العلم والتكنولوجيا، بين الكيمياء والاقتصاد، وبين الفيزياء والدفاع، كان فكر عميد العلوم جزءاً من فكر العالم، وفي 2008 أصبح ما يأتينا من كلية العلوم، عميدا وعلماء، لا صلة له بالعلم ولا بالعالم بعد سبعين عاما كاملة «1938 ـ 2008»، من رؤية د. مشرفة في صناعة اللاسلكي تجيء رؤية كلية العلوم في إضراب العلماء من أجل مائة جنيه وفي حرمانهم من الزيادة، ثم إحالتهم للتحقيق..

مصر 2008 ليست بخير.

البرازيل

قضت مصر القرن الفائت مناصفة بين الاشتراكية والرأسمالية، وقد فشلت في التجربتين معاً، فشلت في الرأسمالية بمثل ما فشلت في الاشتراكية.

لماذا فشلت مصر قبل الانفتاح، ولماذا فشلت بعد الانفتاح؟.. ربما يكون هذا السؤال مباغتاً لعموم المثقفين السياسيين في مصر.

ذلك أن الناصريين يرون أن مصر كانت ناجحة تماماً قبل انفتاح السادات وخصخصة مبارك، بينما يري الساداتيون والمباركيون أن مصر كانت فاشلة تماماً قبل الانفتاح، ولكن ازدهرت ما بين الانفتاح والخصخصة وما بينهما. وظني أن سوء الظن لدي الطرفين صحيح، فرأي الساداتيين في الزمن الاشتراكي سليم، ورأي الناصريين في الزمن الرأسمالي سليم، فالمؤكد أن مصر فشلت في كل العقود الأخيرة.. وفي كل شيء.

كانت الاشتراكية خطباً وشعارات، بمثل ما أن الرأسمالية خطب وشعارات، كان في عصر عبدالناصر أناس يحدثوننا عن صناعة وإنتاج وتكنولوجيا، وعن تقدم وتسلح وبرنامج نووي، ولايزال أناس يحدثوننا الآن عن الشيء نفسه، والمؤكد أننا في العهود الثلاثة لم نفعل شيئاً مما قلنا ونقول.

الفارق ان خطباء الاشتراكية اكثر ثقافة ولباقة من خطباء الرأسمالية، وأن الحديث باسم الفقراء له رونق يفوق الحديث عن الفقراء.. وأن خطباء عصر عبدالناصر يملكون ألف مقولة جاذبة، وأن خطباء ما بعد عبدالناصر يملكون ألف مقولة طاردة.

الحادث بعد نصف قرن من خطب علي صبري وعاطف عبيد ومن علي شاكلتهما.. أننا هنا والآخرين هناك، أنهم يصعدون في هدوء ونحن نهبط في ضجيج، ولايزال الناصريون يحدثوننا عن خطط خمسية، وصناعة واقتصاديات، ولايزال الساداتيون ـ المباركيون

يحدثوننا عن معدلات وأرقام وإنجازات، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولكن الحقيقة هي قول النبي سليمان: «الكل باطل وقبض الريح!»، صعدت اليابان وألمانيا وفرنسا وبريطانيا بعد حرب عالمية في زمن الرئيس عبدالناصر، وصعدت إيطاليا وإسبانيا وكوريا وإندونيسيا في زمن الرئيس السادات، وصعدت ماليزيا والصين والهند وأيرلندا في زمن الرئيس مبارك.

في الوقت نفسه - خمس سنوات لا غير - كانت خطب المجموعة الاقتصادية تتوالي، وكانت البرازيل تعمل، جاء إلي السلطة فيها رجل اشتراكي، لكنه عمل بمنطق رأسمالي، ولكن كان عظيماً في الاشتراكية وعظيماً في الراسمالية، عالماً ومخلصاً في الطريقين معاً..

فقد صعدت البرازيل في لمح البصر: أكثر من 200 مليار دولار احتياطي النقد الأجنبي، سداد للديون قبل موعدها، فائض في الميزانية العامة، نقلة في الصناعات النووية، إنجازات كبري في الإصلاح الاجتماعي وقيم العدالة، ولاتزال مصر.. تخطب، وتخطب، وتخطب!..

الهند

حين زار يوسف بطرس غالي الهند لم يجد فيها ما يلفت النظر إلا «التوك توك». انبهر الوزير بتلك العربة الساحرة انبهاراً شديداً، وقرر جلب آلاف «التكاتك» إلي أرض الكنانة ضمن رؤية حضارية جديدة!

* * *

أطلقت الهند، قبل أيام، أول مركبة فضاء إلي القمر.. والمركبة والصاروخ والمهام العلمية المنوطة بالمركبة كلها هندية مائة بالمائة. لم تذهب الهند إلي قاعدة «جيانا الفرنسية»، كما ذهبت مصر لإطلاق قمرها الصناعي، الذي يحمل المزيد من الكليبات.. لم يكن القمر قمرنا، ولا الصاروخ صاروخنا، ولا قاعدة الإطلاق قاعدتنا، ولا فريق العمل فريقنا.. كل ما أنجزنا هو قطع تذاكر السفر، ثم الجلوس كالأطفال في صالة المشاهدة لمتابعة ما يفعله الآخرون!

سوف تمكث مركبة الفضاء الهندية حولين كاملين، وسوف تجري تجارب علمية عديدة، وعمليات مراقبة حول القمر، وسوف تدرس طبقات سطح القمر، وستدرس أوضاع المياه.. أما الأخطر والأكثر إثارة.. فهو بحث طاقة بديلة للبترول، ومحاولة إحضار مادة «الهليوم-2» من كواكب أخري إلي الهند.. إن «الهليوم-2» يصعب استخراجه من كوكب الأرض، وتفكر الهند في استخراجه وجلبه من الفضاء!

* * *

في السنوات الخمس المقبلة ستبقي مصر منشغلة بتسريب امتحانات الثانوية العامة، وأحكام النقض في قضية سوزان تميم.

في السنوات الخمس ذاتها، ستكون الهند قد أطلقت «60» رحلة فضائية، بمعدل «12» رحلة كل عام، وستكون الهند من كبريات الدول في تقديم خدمة «إطلاق الأقمار الصناعية»، بعد أن نجحت عام 2008 في إطلاق «10» أقمار صناعية بصاروخ واحد، منها قمران للهند، وثمانية أقمار لدول أخرى!

وفي الوقت الذي انشغل فيه وزير البحث العلمي بكل شيء إلا البحث العلمي، ولم يحضر الوزير حفل تكريم العالم المصري د. مصطفى السيد في جامعة القاهرة أو عين شمس، وفيما ينشغل رئيس الوزراء بملفات كبرى، من وزن السحابة السوداء وبالوعات العاصمة، وصناعة الخبز من خلط الذرة بالقمح، يقف رئيس وزراء الهند احتراماً في حفل مهيب ويقول: «إنها لحظة تاريخية.. نحيي علماءنا الذين رفعوا رؤوسنا.. إننا فخورون بما وصل إليه العلم والعلماء في بلادنا».

* * *

كان الساسة الهنود الذين تسلموا بلداً فقيراً مزدحماً جاهلاً لا أمل فيه، قد زاروا عواصم الحضارة، وعادوا ليجعلوا بلادهم في مقدمة العالم.. وفي مصر زار الساسة بلاد الهند، فعادوا بأسطول من «التوك توك»!

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

كنتُ في نيويورك في صحبة العالم الكبير الدكتور أحمد زويل، وكان الدكتور زويل الذي اختار أن نقطع عدداً من شوارع مانهاتن سيراً علي الأقدام يتحدث عن الجديد في العلم والعالم، وكان علي أن أبذل جهداً خارقاً في الفهم وجهداً مضاعفاً في الحوار.

ولما أراد الدكتور زويل أن يمتدح إنصاتي وحسن سؤالي - وكانت خطانا قد أوصلتنا إلي حيث يقع مبني صحيفة نيويورك تايمز - توقف الدكتور زويل ثم قال، حقًا.. إن خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مستوي آخر، إنهم متميزون للغاية، ثم أفصح العالم الكبير عن تقدير كبير للكلية والخريجين.

تذكرت تلك الخاطرة في مناسبة اجتماع خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مساء اليوم في فندق سميراميس من أجل التواصل والحوار.

وأتذكر دوماً وبلا انقطاع أن تخرجي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ليس جزءاً في سيرتي الذاتية، بل هو جوهر السيرة والمسيرة. هو أساس الشرعية، وهو السند للعنوي الدائم، هو احتياطي الذهب الذي لا يتآكل في زحام الأحداث والأشخاص.

* إن المرء لتأخذه الحيرة.. كيف لكلية بهذا الامتياز، وخريجين بهذا النبوغ، لا يكون في مقدورهم انتشال وطن بهذا الركود؟.. كيف لبلد فيه مدارس عظيمة في العلوم السياسية والاقتصاد، وفي الإدارة والإحصاء.. تجتمع في بناء واحد.. ثم لا يكون الخارج كالداخل والفناء كالبناء؟.. كيف اتسع رحاب الكلية إلي تلك الآفاق ويضيق الوطن وتضمر الأطراف؟

* في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مدرسة ليبرالية رفيعة، وفيها أيضاً مدرسة يسارية رصينة، وفيها ثالثاً مدرسة إسلامية رقيقة.. ولكن واقع السياسة في مصر بات يفتقد الرفعة والرقّة معاً!

من هؤلاء الذين اختطفوا واجهة الوطن بلا علم ولا تعليم؟ من هؤلاء الذين أحالوا الليبرالية إلي تبعية والعدالة إلي إعلان والدين إلي طلقات رصاص؟

كيف مرّت قامة في القانون الدولي بوزن الدكاترة عزالدين فودة ثم انتهي المشهد إلي ترزية القوانين؟.. كيف تنير حياتنا قامة في الاقتصاد السياسي بوزن الدكتور أحمد الغندور ثم يسود المشهد علم اقتصاد الخادمات؟!

كيف تحيا كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مع الحكومات المصرية في وطن واحد؟!

* لقد حظيت الكلية في السابق باهتمام رئاسي كبير، وكانت الكلية هي عاصمة الاستشارات السياسية في البلاد، وكان معها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بـالأهرام، وهو مركز تخرج أعضاؤه البارزون جميعهم في كلية الاقتصاد. كانت الكلية ومركز الأهرام جناحي مدرسة السياسة المصرية.

وكانت مؤسسة الرئاسة ومؤسسات سيادية وغير سيادية تلجأ إليهما طلباً للرأي والمشورة. وقد مضت سنوات علي هذا التواصل. ويبدو لي أن الأمر بات أقرب إلي القطيعة. فقط عدد من الأفراد جري اجتذابهم إلي مواقع السلطة والنفوذ. أما مدرسة السياسة فقد أصابها الوهن.. وضاق مصيرها ما بين ذبول وأفول!

* نداء إلي كل من يملك قلباً يعلو علي راحة اليأس وعقلاً يتجاوز موطئ القدمين، إلي كل من لديه الرغبة في خوض صراع مفتوح ضد تحالف عديمي الموهبة.. لنعمل جميعاً لترميم الضمير، علي أن تعود مصر إلي علم السياسة.. أن يعود الوطن إلي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

تخصيب اليورانيوم في مصر (1)

تحتاج مصر إلى عناوين لائقة، ويحتاج شعبنا إلى سمعة أفضل.. لقد أصبحت معظم شؤوننا بعيدة عن اللياقة الحضارية.

علينا أن نعترف بأن الصورة الذهنية لمصر في عالم اليوم تحمل الكثير من الضعف العام.. من طوابير الخبز إلى طوابير البوتاجاز إلى دراما الاعتصامات والإضرابات من أجل حفنة جنيهات.. لقد هبطت السلطة بالوطن.

وعلينا أن نعترف أيضاً بأن الصورة الذهنية لإيران تحمل الكثير من معالم العصر.. مفاعلات نووية وأقمار صناعية وتخصيب يورانيوم وأجهزة طرد مركزى.. وقنبلة قادمة. وتحتاج مصر الآن إلى تغيير كبير في الصورة والمكانة.. وظنى أن هذا التغيير ينبغى أن يكون عاصفاً وكاسحاً.. وممتلئاً بالجلبة والضوضاء.

نحتاج إلى أن ينسى العالم صورة البلد الفقير، الذى يتعثر في إشباع مواطنيه.. إلى بلد أكثر جراة وحضوراً. ويبدو لى أن فكرة تخصيب اليورانيوم ربما تكون العنوان الأفضل لمصر القادمة.

إن تخصيب اليورانيوم لا يكون إلا في إطار منظومة علمية وتكنولوجية متميزة. من أجل تخصيب اليورانيوم سنقوم بخطوات وإجراءات تشبه تهيئة البلاد لاستضافة كأس العالم.. وبمثل ما يجرى من إعداد الملاعب والفنادق والمواصلات ستجرى عملية واسعة من إصلاح كليات العلوم، إلى اجتذاب العلماء المصريين من الخارج، إلى وضع قوانين صارمة، إلى بناء مرافق علمية ذات مقاييس عالية.

إن تخصيب اليورانيوم في مصر عمل لا يخالف معاهدة الانتشار النووى ولا قوانين الوكالة، وحين سألت د. محمد البرادعى عن ذلك، وكنت في فيينا قبل أشهر، قال

لى: إن العالم بصدد تشريعات جديدة لوضع قيود على تخصيب اليورانيوم داخل الدول.. ولكن الوضع الحالى يسمح، بشرط إبلاغ الوكالة ورقابتها.

إذا ما نجحت مصر في تخصيب اليورانيوم سيكون ذلك إنجازاً تاريخياً كبيراً، وستوضع مصر في مصاف الدول الجادة في العالم.. سيكون ذلك كله في إطار الشرعية الدولية ..

ولكن مصر ستكون وقتها قريبة من إنتاج القنبلة النووية.. سيكون حديث العالم وقتها كالتالى: «مصر على وشك إنتاج قنبلة نووية».. «المصريون نجحوا في تخصيب اليورانيوم ويحتاجون ستة أشهر لإنتاج القنبلة».. «هل تغامر مصر بخوض حرب نووية بعد أول تفجير نووى محتمل».. «السلاح النووى المصرى وتغيير خريطة القوى في الشرق الأوسط».. سيقول البعض: إننا ندفع بذلك بلادنا إلى صدام مع العالم.. ثم إننا لن نستطيع.. لا تخصيب اليورانيوم ولا هذا اللعب الخشن في العلاقات الدولية.. وأقول لهم:

* * *

يحتاج الوطن إلى حلم كبير، إلى عنوان كبير، إلى رمز كبير، إلى كلام كبير.. إن بعض القادة الأتراك أجابوا عن سؤال: لماذا أوروبا وأنتم لن تدخلوا الاتحاد؟! بقولهم: إن أوروبا هى العنوان الذى نجمع الشعب عليه ونقودهم إليه.. إننا لا نحتاج أوروبا قدر احتياجنا للحلم الأوروبى!

كان مهاتير محمد غير مقتنع بالحلم الأوروبى ولا الحلم الأمريكى، فكان اختراعه الفكرى والسياسى الكبير حول الحلم اليابانى.. وكان كل جهد مهاتير في بدايات النهضة، كيف يصحو الماليزيون من النوم فلا ينظرون إلى ثقافة القصدير والمطاط البدائية، بل ينظرون إلى مجمل الحلم اليابانى.. كيف لا تنظر قومية المالايو إلى القومية الصينية وإلى القومية الهندية، بل تنظر القوميات الثلاث التى تشكل ماليزيا إلى قبلة حضارية واحدة هى اليابان!

تحتاج مصر إلى عنوان.. إلى حلم.. إلى طريق جديد ينهى عصر الأنابيب والطوابير.. ينهى زمناً كاملاً سيطر فيه تحالف عديمى الموهبة.. تحتاج مصر إلى قنبلة نووية أو إلى البدء في تخصيب اليورانيوم.

تخصيب اليورانيوم في مصر (2)

لا يعنى مفاعل أنشاص الكثير، ولم يمثل للبرنامج النووى المصرى في السابق القيمة الكافية.. وكل ما تم إنجازه نوويا في مصر لا يزيد على الوضع النووى المناسب لجامعة إقليمية.. ذلك أن كبريات الجامعات في العالم لديها مفاعلات أبحاث متقدمة، وكان يجدر بجامعة القاهرة أن يكون لديها مفاعل نووى.. وكان يجدر أيضا أن يكون هناك مفاعلان آخران في جامعة الإسكندرية وفى جامعة أسيوط. ومن الكوادر العلمية والفنية والإدارية لهذه المفاعلات الثلاثة تتشكل الطبقة العلمية النووية في مصر.

والمدهش أن مصر لها ميزة نسبية في ذلك الملف تحديدا دون ملفات أخرى أسهل وأبسط.. إن إمكانات الكوادر المصرية في المجال النووى أعلى منها في مجالات استصلاح الأراضى أو صناعة السيارات أو صناعة النسيج، والمدهش أيضا أن الدولة المصرية قد استسلمت بسهولة شديدة للتحديات الإسرائيلية في إنجاز البرنامج النووى المصرى.

لقد بدت مصر عاجزة عجزا مهينا عن حماية علمائها من الاغتيال، أو حماية العلماء الأجانب من الطرود المتفجرة التى كانت تأتيهم على عناوينهم.. إن حماية هؤلاء وهؤلاء عمل سهل، وقد انجزت الأجهزة المصرية ما هو أخطر بكثير.. ولكنها الإرادة السياسية التى لم تأخذ الملف النووى على محمل الجد.

إن ما توفر لبعض الفنانين والمشاهير من أشكال الحماية كان أعلى كثيرا مما توفر لجموع العلماء النوويين في مصر، بل إن السينما والدراما تنافستا في إظهار العلماء النوويين مثل الكهنة في مصر القديمة ممن يتسمون بالغموض والخلل والأهمية الساذجة.

لقد تم تصوير العلوم النووية، وكأنها علوم الآخرين، وأن الوصول إليها أمر مستحيل، بل تم الترويج لأفكار أسطورية من نحو عدد الذين يفهمون نظرية النسبية في العالم وعدد

الذين يعرفون أسرار الذرة وعدد الذين يعرفون عنصر اليورانيوم.

يتأكد لنا الآن اننا اخطانا.. وان إسرائيل والهند وباكستان وبعدها كوريا الشمالية وإيران.. فعلت وتفعل.

ثورة 14 يناير المجيدة*

هذه أجمل ثورة عربية.. بل هى واحدة من أجمل الثورات فى العالم.. هى أجمل من ثورة رومانيا وثورة أوكرانيا.. بكثير.

■ كان الرئيس التونسى زين العابدين بن على مناضلاً عظيماً ضد الاستعمار.. هو واحد من شباب الحركة الوطنية التونسية ضد الاحتلال الفرنسى.. ودفع ثمن وطنيته مفصولاً من التعليم ومعذباً فى السجون.

■ ثم قام زين العابدين عام 1987 بانقلاب رائع على الرئيس الحبيب بورقيبة.. كان بورقيبة قد فقد الكثير من قدراته الفكرية والسياسية.. وكان بورقيبة ضعيفاً فى مواجهة الزمن، وكان الشعب التونسى ضعيفاً فى مواجهة بورقيبة والزمن.. فجاء زين العابدين بالانقلاب الصائب فى التوقيت الصائب.. ثم بدأ زين العابدين صُلحاً مع المعارضة والنخبة المثقفة وفئات الشعب.. وفتح أبواب قصر الرئاسة فى قرطاج لمن يرغب فى النقاش والحوار.

■ ما الذى تفعله السلطة بالرجال.. كيف تحول رجل وطنى قاوم الاستعمار إلى رجل قاتل يطلق الرصاص الحى على شباب منكسر موجوع؟

كيف تحول رجل الدولة الذى لم يترك المزيد لأخطاء بورقيبة.. ثم بنى دولة جيدة من طبقة وسطى واسعة إلى تعليم وصحة وإسكان.. إلى رجل السلطة الذى لم يهتز لطوابير العاطلين ولم يخشع لأنات الفقراء والمهزومين؟ كيف أصبح رجل الدولة.. رجل السلطة؟ كيف أصبح الثائر ضد الثورة؟

■ يذكرنى زين العابدين بصدام حسين الذى كان نائباً جيدًا.. ثم أصبح رئيساً لا

---

*نشر هذا المقال في 17 يناير 2011

يُحتمل.. بنى صدام حسين بلاده وهو نائب للرئيس.. ثم هدم ما بناه وما بناه الآخرون حين أصبح رئيساً للبلاد.. كان صدام الرئيس يمشى باستيكة فوق صدام النائب.. ثم مشى بقنبلة نووية فوق مستقبل بلاده ومستقبل بلاد العرب.. فترك العراق أرضاً للخراب.. وأتى بالاحتلال الأمريكى إلى شرق العرب.

■ هى المدرسة ذاتها.. زين العابدين بدأ مناضلاً وانتهى قاتلاً.. بدأ ضد الاستعمار وانتهى ضد الشعب.. بدأ ضد فرنسا وانتهى ضد تونس!

■ لم يفهم زين العابدين أن لصبر الشعوب حدوداً.. وأن التاريخ لا يغفر لمن يفهم متأخراً.. وأن قراراته بحل البرلمان وإقالة الحكومة والإطاحة برجاله قد تأخرت كثيراً عن الموعد الذى انتظره الشعب.. نجحت «القلة المنحرفة» وأطاحت بأقوى نظام أمنى فى العالم العربى.. نجحت «القلة المنحرفة» فى أن تجعل من الكرامة جيشاً شعبياً ضد زين العابدين ومؤسساته.

■ إنها أجمل ثورة عربية.. وهى من أجمل ثورات العالم.. لم يكن هناك ذلك التجهيز الطويل الذى حدث فى أوكرانيا.. ولا آلاف الرجال التابعين للمخابرات المركزية الأمريكية ولا مليارات «سورس» التى مولت الثورة البرتقالية فى أوكرانيا.

■ لم يكن هناك ستون ألفاً من رجال السى آى إيه ورجال الكى جى بى كما حدث فى رومانيا.. بل كانت ثورة 14 يناير المجيدة.. ثورة «تونسية» خالصة.. قادها شباب عظيم.. زاده الرصاص جسارة وفروسية.

■ تحية للشباب التونسى العظيم الذى رفع رؤوس العرب أجمعين.. ألف مبروك.

الفصل الثالث

ربيع القاهرة..
ثورة 25 يناير

الجمهورية الأولى

مثلت «الثورة المصرية» في 25 يناير 2011 نهاية الجمهورية الأولى وبداية الجمهورية الثانية في مصر.

كانت فاتحة الجمهورية الأولى محدودة في الزمان ومحدودة في التأثير. وهى حقبة الرئيس محمد نجيب.

ثم جاءت الحقبة الثانية كثيفة في الزمان شاسعة في التأثير ويمثلها عصر الرئيس جمال عبدالناصر، وكان على الحقبة الثالثة أن تخوض امتحانا شاقًا بالسلاح وبالسياسة من أجل تحرير سيناء وبحث الطريق الى النهضة. لكن الرئيس السادات الذى قاد الحرب والسلام. لم يكن محظوظا في موعد الاغتيال، حيث غادر منصة الاحتفال في اكتوبر عام 1981 قبل ستة أشهر من عودة سيناء في ابريل عام 1982. وانتهت الحقبة الثالثة على مشاهد متفرقة. دماء على المنصة. ومتمردون في أسيوط ومعتقلون في السجون وغاضبون في كل مكان!

جاء الرئيس السابق حسني مبارك في ختام الجمهورية الأولى موفور الحظ بما لم يحدث مع حاكم مصرى في العصر الحديث. جاء مبارك ليجنى عائد السلام دون أن يدفع الثمن. ولينعم بهدوء دام ثلاثين عاما دون أن تلتصق به اتهامات الخيانة وحكايات كامب ديفيد، ثم انه ورث الانجازات الأسطورية لحرب اكتوبر المجيدة دون أن يشاركه أحد.

كان الفريق الشاذلى رئيس أركان الحرب وبطلها الأشهر يقضى حياته في للنفى ثم في السجن ثم في المنزل. في سنوات كئيبة بليدة. وفيما يشبه سينما الخيال. غادر الفريق الشاذلى الحياة يوم غادر الرئيس مبارك الرئاسة. واختلطت جموع الذين حضروا جنازة

الفريق الشاذلى مع جموع الذين أقاموا حفل رحيل مبارك. كانت جنازة الوداع وحفل الرحيل في يوم واحد!

لم تكن حياة المشير الجمسى (القائد التالى للفريق الشاذلى) اكثر حضورا من سابقه. وقد قضى جميع سنواته في عصر مبارك مريضا في نادى هليوبوليس. ليس أمامه إلا رواية احداث اكتوبر امام اعضاء النادي. كانها حيلة ذكية لقتل الوقت. لم يسمع احد بالمشير الجمسى طيلة عصر الرئيس مبارك. ولقد ظن كثير من الناس أن المشير الجمسى قد مات في عهد الرئيس السادات!

لا شيء أيضا عن المشير محمد على فهمي. ذلك القائد الجليل الذى يعد واحدا من أعظم قادة الدفاع الجوى على مستوى العالم. شأنه شأن المشير الجمسي. اسم مغمور ووجه مجهول. لا يعرفه الناس اسما ولا رسما، وربما لم يات ذكره في عهد الرئيس مبارك سوى مرات معدودة. لم يلتقطها احد، ولقد روى لى الكاتب الراحل الأستاذ محمود عوض عن مذكرات صوتية قام بتسجيلها مع المشير محمد على فهمي. وقد انتظر الأستاذ محمود عوض حتى يرحل الرئيس مبارك لكى ينشرها. ثم شاء القدر أن يرحل الكاتب والمشير قبل أن يرحل الرئيس!

إن واحدا من أعظم قادة العسكرية المصرية وواحدا من أعظم قادة المدفعية في التاريخ العسكري. وهو المشير محمد عبدالحليم ابوغزالة. لم يتمكن شعبنا من الاحتفاء به قائدا ومفكرا، وقد أخرجه الرئيس مبارك من السلطة بطريقة لا تليق بمقام القادة ولا قامة الأبطال، وراح نظام الرئيس مبارك يغطى على العبقرية الاستراتيجية للمشير ابوغزالة لصالح قصص صفراء عن مكالمات وغراميات. وبدلا من أن يكون موقع المشير في أعلى مستويات الفكر العسكرى والعقل الاستراتيجى اصبح المشير ابوغزالة ضيفا دائما على أحاديث النميمة وعناوين الصحف الصفراء!

هكذا أصبحت أبرز انجازات عصر مبارك هى «تفريغ مصر» ليبقى مبارك وحده بلا شركاء. ثم تجريف الوطن من القادة المدنيين والعسكريين. ثم اطفاء جميع النجوم ودفع كل الرؤوس الى أسفل.

ثمة من كانوا يقولون للرئيس مبارك انه الأفضل منذ محمد على باشا وثمة من زادوا على ذلك وقالوا منذ صلاح الدين وثمة من كانوا اكثر خيالا وابداعا فقالوا إنه

الأفضل منذ عهد الفراعنة!

كان الذهل في كل ذلك أن الرئيس السابق لم يكن متأكدا أن ذلك ضرب من هوس النفاق وجنون التزلف والانسحاق. بل كان الأمر يختلط عليه. والأغلب أنه ظن لبعض الوقت أنه حقا الأفضل منذ عصر اخناتون!

لقد كان مبارك محظوظا في معركة «تفريغ مصر». فقد كان القدر حليفا قويا. مات كبار قادة حرب أكتوبر. من رموز القوة الصلبة، ومات معهم كبار قادة العقل المصري. من رموز القوة الناعمة. رحل عبدالوهاب وبليغ، وسكتت شادية ونجاة، رحل عبدالرحمن بدوى وفؤاد زكريا وزكى نجيب محمود، ورحل لويس عوض وحسين فوزى، رحل نجيب محفوظ ويوسف ادريس كما رحل يحيى حقى وتوفيق الحكيم وعبدالرحمن الشرقاوى واحسان عبدالقدوس، رحل الشعراوى والغزالى والباقورى والتلمساني ورحل جمال حمدان ومصطفى محمود، كان إعصارا عنيفا باغت بلادنا. انتهى تسعون بالمائة من القوة الناعمة لمصر في سنوات محدودة. ليبقى مبارك وحيدا وسط الخلاء!

لم يعد المصريون يتناقشون في المناظرة بين الشيخ الغزالى وخصومه. ولا معارك اليسار المصرى مع توفيق الحكيم. لم يعد المصريون يسمعون عن الانحناءات الفكرية لعبدالرحمن الشرقاوي، ولا الجلبة الفكرية ليوسف ادريس، ولا الصخب الفلسفى لعبدالرحمن بدوي، ولا الدعوة الفلسفية الرقراقة لزكى نجيب محمود. ولا المجالس الوقورة للشيخ الشعراوي. ولا الأطروحات الضخمة لجمال حمدان.

أصبح الرئيس مبارك هو العالم والمفكر والفيلسوف. أو هو الرئيس دون احتياج لعلم أو فكر أو فلسفة! سوف يتوقف التاريخ طويلا أمام حسنى مبارك. كيف أمكن لهذا الرجل أن يمضى مع رجاله فوق أسطول من الجرافات. قطعت ثلاثين سنة من الإزالة البطيئة المتواصلة. لنجد مصر في يناير 2011 «مليون كيلو متر مربع من الأرض الفضاء»!

ظهرت مصر كلها ساخطة على خريف الجمهورية الأولى.. الشباب والشيوخ، الأطباء والصيادلة. المهندسون والمعلمون. القضاة والصحفيون. شركات البترول والبنوك. المترو والسكة الحديد. بولاق الدكرور وروتارى أكتب. كل مصر ضد حسنى مبارك!

حلّ الحزب الشيوعى
وحلّ الحزب الوطنى

مثل طائرة ورقية تمزّقت بين يدى طفل صغير.. تمزّق الحزب الوطنى وانتهى في لحظات!

لا أحد من الثلاثة ملايين عضو قال «لا».. لا احد من الثلاثة ملايين عضو ذرف دمعة واحدة على النهاية، كأن قرار الحل يخص حزباً آخر في بلد آخر!

ثلاثة ملايين عضو كأنهم لا أحد!

(1)

وصل الحزب الشيوعى إلى حكم روسيا عام **1917**، ولما جاء بوريس يلتسين إلى السلطة قام بحل الحزب الشيوعى الحاكم، وانتهى الحزب الذى شغل العالم سبعين عاماً في لحظات، وما بين البداية والنهاية قصة مثيرة.

«أسس الشيوعية في روسيا أربعة رجال: اثنان من الفلاسفة واثنان من الثوار الحكام. تدين الشيوعية في روسيا بالفكر السياسى إلى كارل ماركس وصديقه فريدريك إنجلز.. وكلاهما ولد ومات في القرن التاسع عشر.. وتدين بالفعل السياسى إلى لينين الذى أنجز الثورة عام **1917** وبقى زعيماً لها حتى وفاته عام **1924**، وإلى الرجل القوى ستالين الذى توفى عام **1945**.

كما تدين الشيوعية في روسيا إلى نخبة من كبار الأدباء يتقدمهم مكسيم «جوركى» الذى شارك في ثورة **1905** ضد القياصرة.. ورحل بعد فشلها.. وبقى في الخارج داعياً إلى الثورة على القياصرة. وكان جوركى أبرز المتحمسين لثورة **1917**.. وفى رواية «الأم» افصح عن وضع الثائر الذى يؤثر على الجماهير من خلال ابطاله.. وقد توفى «جوركى»

عام 1963.

الشيوعية في روسيا إذن هي من صنع خمسة رجال وآخرين: اثنان من الفلاسفة واثنان من الساسة وأديب (2 + 2 +1).. كارل ماركس + إنجلز + لينين + ستالين + جوركي.

(2)

لقد جاء من بعد هؤلاء خمسة آخرون.. انتهى بهم الاتحاد السوفيتي. جاء نيكيتا خروشوف، ثم ليونيد بريجنيف، ثم يوري أندربوف، ثم قسطنطين تشيرننكو، ثم ميخائيل جورباتشوف.

كان الأفضل خروشوف لكنه لم يبق طويلاً، وكان الأسوأ "بريجينيف" وقد ظل في السلطة حتى فقد الاتحاد السوفيتي معظم دوره وإمكاناته، ورغم أن "أندربوف" قد حاول خلال الأشهر القليلة التي أمضاها في السلطة أن يُحدث بعض التغييرات فإنه توفى قبل أن يعرف أحد إلى أين كان سيقود الاتحاد السوفيتي، وجاء بعده "تشيرننكو" الذي كان مريضاً هو الآخر.. ولم يعش إلا فترة قصيرة في موقع الأمين العام.. وجاء جورباتشوف.. برؤية سريعة للإصلاح الكبير.

يقول الشيوعي اللبناني كريم مروّة في كتاب صقر أبوفخر "ما يشبه السيرة"، الذي صدر في دمشق عام 2002: "إن جورباتشوف الذي جاء فجأة إلى السلطة لم يكن مؤهلاً لقيادة التغيير، فبدلاً من أن يقوم بالتغيير بشكل تدريجي وواقعي طرح كل أفكاره الراديكالية دفعة واحدة.. ولم يأخذ في الاعتبار أنه لا الحزب ولا الدولة ولا المجتمع كانوا مؤهلين لذلك. إن "جورباتشوف" الذي ظهر فجأة دمر الحزب والدولة قبل أن ينشئ البديل."

(3)

إن المفارقة في إنهاء الحزب الشيوعي السوفيتي لا مثيل لها.. كان الحزب يضم (25) مليون عضو فيه.. وحين أصدر "يلتسين" قرار حل الحزب الشيوعي.. لم يتحرك أحد من الخمسة وعشرين مليون عضواً!

■يقول الكاتب "نذير جزماتي" في كتابه "هل كانت ثورة أكتوبر ثورة اشتراكية": "كيف أصبح بمقدور عدد صغير من الأفراد أن يقلبوا كل شيء رأساً على عقب في بلد مضى على انتصار الثورة الشيوعية فيه خمسة وسبعون عاماً، وبلغ عدد أعضاء الحزب فيه خمسة

«عشرين مليوناً؟!»

■ويكمل الكاتب «عبدالكريم أبازيد» الرأي ذاته قائلاً: «إن انهيار الاتحاد السوفيتي ليس ذنب البريسترويكا.. بل ذنب ذلك النظام الذي لم يدافع عن أحد من عشرات الملايين من الشيوعيين والشباب الشيوعي المسجلين رسمياً.. لم يتصد أحد من المليون شيوعي في موسكو لـ(يلتسين) عندما أعلن حل الحزب الشيوعي. إن (يلتسين) لم تكن تخيفه الدبابات، لكن كان يخيفه لو أحاط به عُشر هؤلاء وأعلنوا رفضهم حل الحزب وإغلاق صحيفته المركزية. لماذا لم تخرج الطبقة العاملة السوفيتية هي الأخرى، وعددها عشرات الملايين.. والتي حققت بالفعل مكاسب ملموسة في عهد النظام السابق!»

■ويزيد «أبازيد» قائلاً: " لقد تحولنا نحن الشيوعيين إلى شيوعية أصولية بكل معنى الكلمة.. نصفع محدثنا باستشهاد من (لينين) أو (ستالين) أو (ماركس).. يعود في أحسن الأحوال إلى قرن مضى أو نصف قرن!

مأساتنا وقد انهار الاتحاد السوفيتي أننا عندما يسألنا سائل: ما الاشتراكية التي تنوون بناءها؟.. كنا في السابق نضع يدنا على أطلس العالم ونقول: هل تشاهدون سدس المعمورة هذه.. أي الاتحاد السوفيتي.. إننا ننوي بناء مجتمع مثله.. وعندما انهار الاتحاد السوفيتي لم نعد نعرف بماذا نجيب.. إننا في أحسن الأحوال أصبحنا نقول بالمحافظة على القطاع العام وتطويره.. مسخنا نظرية جبارة.. فحولناها إلى مهزلة "

(4)

تلك مشاهد من بداية ونهاية الشيوعية في روسيا.. عشرة رجال مثلوا بداية ونهاية الحزب الشيوعي والاتحاد السوفيتي.. الخمسة الذين مثلوا رحلة الصعود «ماركس + إنجلز + لينين + ستالين + جوركي»، والخمسة الذين مثلوا رحلة الغروب (خروشوف + بريجينيف + أندربوف + تشيرننكو + جورباتشوف).

ولما جاء سياسي محدود.. لا ثقافة ولا فكر ولا رؤية.. لا يملك إلا الجرأة.. تمكن ذلك الجريء الجاهل «يلتسين» من إزالة تراث عشرة رجال في لحظة واحدة!

محا «يلتسين» وراء ثلاثة أرباع قرن من السياسة، وقرن ونصف القرن من الفلسفة، بأستيكة صغيرة.. فمسح كل شيء!

أصدر .يلتسين. الذى لا يفيق طويلا من الخمر قراره بحل الحزب الشيوعى السوفيتى.. لم يتحرك أحد من (25) مليون عضو، ولم يتحرك أحد من (100) مليون عامل مستفيد.. هزم يلتسين .المحدود. عشرات الملايين من الحزبيين والثوريين والمنظرين!

(5)

إننى أفهم الآن.. كيف انهزم الحزب الوطنى فى لحظات، كيف أنهى حكم قضائى حزبا كان يمرح وحده على ساحة أكبر بلد فى العالم العربى والشرق الأوسط.. قبل قليل.

■انهزم الكمبيوتر المحمول لرجال لجنة السياسات، وانهزم ثلاثة ملايين عضو فى خمس دقائق.

■ ■لكن الشىء الوحيد الذى يمكن ان يفخر به الحزب الوطنى أن الحزب الشيوعى السوفيتى كان يضم خمسة وعشرين مليونا من الأعضاء وقد انهزم أمام رجل مخمور.. أما الحزب الوطنى الديمقراطى فقد كان يضم ثلاثة ملايين وقد انهزم أمام ثورة وطنية عظيمة.

ولكن جمال عبد الناصر
أفضل من جيفارا

حكى لى الرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا جانباً من الصراع بين كاسترو وجيفارا. كان الاثنان رفيقين في العمل الثورى، ثم كان الافتراق بعد النجاح - اختار كاسترو بناء الدولة واختار جيفارا بقاء الثورة. وبدأ كاسترو أول خطوة في البناء على طريق الألف ميل، أما جيفارا فقد اختار مشروعه الحالم لإشعال الألف ثورة!

■ ثمة قصة طويلة مثيرة في ذلك الطريق الشاق.. من «الثورة» إلى «الدولة».

(1)

أقمت أسابيع في مدينة ستراسبورج الفرنسية قبل أعوام، كان ذلك لأجل المشاركة في دورة دراسية عن القانون الدولى وحقوق الإنسان. وكان من حظى أنى التقيت شباباً من أكثر من مائة دولة كانوا يتحدثون في كل شيء.

ذات صباح كنا في حديقة كلية الحقوق جامعة ستراسبورج، وكان الأغلبية من أمريكا اللاتينية. ودار الحوار بلغات مختلفة حول موضوع الثورة والثائرين وقد ساعدنى صديق عربى في ترجمة ما يدور وفجأة سألنى احدهم من أين انت؟ قلت له: من مصر. قال: بلد ناصر «جمال عبد الناصر». قلت: نعم. قال: كان ثائراً جيداً، ولكن جيفارا أفضل منه بكثير.. لقد فعل ناصر ما فعله كاسترو.. اختارا السلطة وتركا الثورة.. تركا مكانة الثوار ليأخذا مقاعد الرؤساء!

كان ذلك القول دافعاً لى في بحث تحولات الثائر والسياسى.. والمناضل والمسؤول والثورة والسلطة وجاء كتابى «خريف الثورة» الذى تضمن فصلاً كاملاً حول محاوراتى مع بن بيللا.. مرحلة في بحث لايزال.

(2)

يعرف الكثيرون جيفارا عبر صورته التى باتت أشهر صورة في العالم، وأخذ جيفارا من المجد ما لم يأخذه ثائر على مر التاريخ.

وفى تقديرى.. فإن جيفارا لم يكن ليستحق هذا المجد ولا تلك الهالة الأسطورية التى احاطت بحياته ومماته. كان جيفارا ثائراً عظيماً وحسب ولا أظنه كان ملهماً لثورات عظيمة قدر ما كان ملهماً لحالات ثورية متقطعة، وملهماً لنماذج متفرقة من الفوضى.

أصبح جيفارا بمرور الوقت رمزاً للاعتراض المفتوح والسخط المستمر.. وبات بعض من يمثلون مدرسته الثورية اسرى صيغة جديدة هى «أيديولوجيا الرفض».. وهى أيديولوجيا غير جادة.. عمادها «الرفض للرفض».

■ لدى الذين يعتنقون «أيديولوجيا الرفض» لا يوجد شىء في نهاية النفق ولا عائد في نهاية الرحلة ولا إنجاز في نهاية الطريق..أصبح الرفض بذاته هو الوسيلة وهو الغاية.. هو البداية والنهاية.

(3)

قال لى الرئيس بن بيللا: لم يكن جيفارا استراتيجيا بل كان ثورياً دائماً، ولكن رأيه أن «الثوار لا يقيمون دولة.. بل يثورون دائماً».. ويكمل بن بيللا: «كنت عند فيدل كاسترو في كوبا.. وكنت اشرح له كيف كان كينيدى يريد ضرب طائرتى القادمة من أمريكا إلى كوبا.. وكان جيفارا جالساً معنا.. ولكنه كان ساكتاً لا يتكلم.. ورأى جيفارا وقتها أن عليه ألا يقضى حياته وزيراً.. واتفق مع كاسترو وترك منصبه كوزير للاقتصاد، كان يرى أن برنامجه الأهم ليس في كوبا.. بل في كل العالم.. إشعال الألف نار.. أى إشعال ألف ثورة حول العالم!

(4)

ثمة معضلة أخرى.. تتمثل في الخصومة الكبرى.. إذا ما اختار بعض الثوار طريق الدولة واختار آخرون بقاء الثورة.

وفى حالة جيفارا وكاسترو فقد وقع خلاف كبير بينهما وزاد الخلاف إلى خصومة.. وزادت الخصومة إلى الحد الذى اعتبر فيه كاسترو أن أى تعاطف مع جيفارا هو نقد لنهج

كاسترو. وحين ذهب جيفارا إلى الجزائر، حيث أمضى ستة أشهر في ضيافة بن بيللا حدثت الجفوة بين الثورة الجزائرية والثورة الكوبية.. وحين سألت الرئيس بن بيللا عن ذلك قال: «جاء جيفارا إلى الجزائر بعد خلاف مع كاسترو.. وقال جيفارا: إن كاسترو يريد بناء دولة، وأنا لا أريد قضاء عمرى وزيراً». ويكمل بن بيللا: «لكن استضافتى لجيفارا في الجزائر أدت إلى تدهور علاقتى مع كاسترو.. ولم يعد بيننا ما كان من تفاهم وتحالف.

كان كاسترو يعتقد أن استضافتى لجيفارا هى عمل معادٍ له.. وأنها انحياز لجيفارا نكاية في كاسترو.. ورداً عليه، فحدثت الجفوة بيننا.

وقد استمرت هذه الجفوة حتى جاء انقلاب بومدين على سلطتى وإزاحتى من الحكم وإيداعى السجن.. فأصبح التقارب شديداً بين كاسترو وبومدين نكاية فىّ!».

(5)

كان جيفارا وبن بيللا يمثلان الثورة.. وكان كاسترو وبومدين يمثلان الدولة.. وفى حالة الرئيس جمال عبدالناصر فقد كان يمثل الثورة والدولة معاً.

واجه عبدالناصر تحديات فكرية كبرى وهو ينتقل من الثورة إلى الدولة.. كان هناك الشيوعيون المصريون في الداخل وحزب البعث في الخارج.. وكانت الشيوعية والبعثية تطرحان مقولات هائمة بشأن الثورة الدائمة والنقاء الثورى والثورة المضادة.. ما جعل عبدالناصر مضغوطاً باستمرار تحت وطأة المزايدات الشيوعية والبعثية، التى اتهمت عبدالناصر بالسلبية والرجعية!

■ غير أن أكبر ضربة واجهها نموذج الرئيس عبدالناصر.. وهى ضربة جاءت نتاج خليط بائس بين الشيوعية والبعثية معاً.. إنها الظاهرة الثورية للرئيس الليبى معمر القذافى.

(6)

جاء القذافى بدعم أمريكى ليقضى على جمال عبدالناصر.. فكراً وتياراً، أخذ القذافى يطرح نفسه امتداداً لجمال عبدالناصر.. وبدأ رحلة تسفيه عبدالناصر والناصرية.. بدأ القذافى يخطب في الجماهير كما كان يخطب عبدالناصر.. وذهب يهاجم أمريكا وإسرائيل كما كان يفعل عبدالناصر.. وشرع يقدم كتاباً ووثيقة ورؤى مكتوبة كما كان يطرح عبدالناصر، وراح يدعم حركات ثورية خارج الحدود كما كان يدعم عبدالناصر.. لكن

ذلك كله كان تدميراً منظماً لجمال عبدالناصر، فمن الخطاب السياسى العالى لمصر الثورة.. راح القذافى يهذى في خطابه الكارثى.. ومن معركة شريفة القصد والغاية ضد إسرائيل وأمريكا.. راح القذافى يحول رسالة النضال إلى حالة نفسية مضطربة.. أظهرت الفكر العربى وقد أصابه الجنون!

ومن أدبيات جادة ورصينة في مصر الثورة.. راح القذافى يقدم للعالم مخلفات على ورق باسم الكتاب الأخضر والنظرية العالمية الثالثة! ومن دعم مصرى عظيم لحركات التحرر والنضال راح القذافى يمول عصابات طائشة حول العالم بلد عليها ثروة شعبه وبلاده.

(7)

■ نجح القذافى، رجل الولايات المتحدة القوى، في أن يقدم للغرب أعظم خدماته.. تسفيه الفكر الثورى العربى وتسفيه نموذج جمال عبدالناصر وإذا كان جيفارا وبن بيللا يمثلان نموذج الثورة، وكاسترو وبومدين يمثلان نموذج الدولة.. فإن القذافى كان الأسوأ في كل التاريخ: لا ثورة ولا دولة!

■ إن المحنة الكبرى التى خلقها جيفارا للعالم هى تقصير المسافة بين الثورة والفوضى.. وخلق نموذج "الثائر السفيه".. كان نموذج الرئيس عبدالناصر أفضل من جيفارا.. ثورة لها هدف ودولة لها طريق.

ماسبيرو.. ترميم القوة الناعمة

جاء قرار رئيس الوزراء باختيارى عضواً في مجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتليفزيون مفاجأة لى ولبعض العاملين في ماسبيرو.

ذلك أننى لم أنخرط في عمل إعلامى بحت طيلة حياتى.. فعملى بالأهرام تراوح ما بين المشاركة في أعمال مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية وكتابة المقالات في صفحات الرأى بالأهرام. وهى كلها على مسافة من المطبخ الصحفى الذى ينتج الخبر والتقرير والتحقيق والحوار. وتمثل مقالاتى في المصرى اليوم امتداداً لما كنت أكتب في الأهرام في الاجتهاد والاعتقاد.

ثم إن تجربتى في تليفزيون دريم هى إطار ثالث يضاف إلى الأهرام والمصرى اليوم.. وهو إطار يختلف كثيراً عن السائد.. حيث يمثل برنامج الطبعة الأولى حديثاً يومياً له غاية وهدف، أكثر منه برنامجاً يخضع لقواعد المهنة الصارمة. وكثيراً ما قالت لى الإعلامية الأستاذة منى الشاذلى: إن برنامج الطبعة الأولى في التليفزيون يعادل المقال السياسى في الصحافة. ثم يجىء اجتهادى الرابع عبر مشروعى البحثى الذى تمثله ستة كتب في الشؤون المصرية والإقليمية.

■ وعلى ذلك.. فإن الاجتهادات الأربعة التى مررت بها تجىء جميعاً خارج الصناعة اليومية في الصحافة والإعلام. وانتمت جميعها، بدرجات متقاربة، إلى جانب الرأى والتعبئة أكثر منها إلى جانب الحرفة والمهنة.

■ وكان من حظى في أول اجتماع لنا في مجلس الأمناء مع رئيس الوزراء ونائبه ووزيرى العدل والتعاون الدولى.. أن أجد نفسى بين كبار الأسرة الأهرامية.. الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة والشاعر الكبير فاروق جويدة.. وكان أول لقاء لى بالكاتب الأستاذ لبيب

السباعى بعد رئاسته لمؤسسة الأهرام وقبيل نجاحاته اللاحقة بعودة الأستاذ هيكل إلى الأهرام متحدثاً وكاتباً وزائراً.

(2)

لا أقول ذلك الآن من باب استعراض صفحة في مذكرات شخصية، ولا إعادة تقديم لمشروعى في الصحافة والسياسة الذى قارب العشرين عاماً.. ولا هو أيضاً استعراض لمقدمات قرار حكومى جعلنى مسؤولاً ضمن آخرين عن واحد من أخطر وأصعب ملفات بلادنا.. إعادة ماسبيرو إلى واجهة الإعلام العربى من جديد.

(3)

لقد جرى تجريف ماسبيرو على مدى عهد حسنى مبارك.. ففى عهده فقدت مصر الريادة الإعلامية التى تمتعت بها في عهدى الملكية وثورة يوليو. في عهد مبارك كان هو ورجاله ينتظرون ما تقوله الفضائيات العربية.. ثم يهددون ويفاوضون العواصم المالكة لها.. ثم ينشغلون في كل سياساتهم وتصريحاتهم بما تبثه هذه الفضائيات. كانت هذه الفضائيات، بدرجة أو بأخرى، تسيطر على جانب من مركز القرار في مصر.

كان الأمر يشبه المؤامرة على القوة الناعمة في مصر.. بل إنه في يقينى كان مؤامرة لكسر مكانة الدولة المصرية في الداخل والخارج. في عهد مبارك جرى تمهيد كل الأجواء لتدمير صناعة المنوعات لصالح المؤسسات الإعلامية السعودية، وتدمير صناعة الأخبار لصالح المؤسسة الإعلامية القطرية. وتآكلت القوة الناعمة المصرية بين ثلاث قوى عربية: اللوبى السعودى واللوبى القطرى واللوبى اللبنانى.. ولم يعد لبلادنا نفوذ في ذلك الفضاء الممتد من بغداد إلى الدار البيضاء!

(4)

■ كانت الفضائية المصرية، هى أول ما رأى العرب باللغة العربية عبر الأقمار الصناعية، لكن سرعان ما تمكن رجل مبارك القوى صفوت الشريف من تدمير الفضائية المصرية عبر هبوط متدرج ومتعمد أدى إلى إفساح الساحة للإعلام السعودى.. من MBC إلى ART إلى أوربت إلى روتانا. وأصبح كل رصيدنا من السينما والدراما والموسيقى والغناء يراه العالم العربى عبر الشاشات السعودية القوية وليس عبر الشاشات المصرية المتهالكة.

■ كانت الفضائية المصرية هى أول ما رأى العرب، لكن قناة الجزيرة كانت أخطر ما رأى العرب. ترك رجال مبارك افضل العناصر الإخبارية في ماسبيرو حتى يطلقوا قناة الجزيرة في قطر.. لم يتحرك لحظة شعورهم بالحقد او بالغيرة أو بالندم او بالرغبة في التصحيح.. لأن ابناء ماسبيرو هم من بنوا واطلقوا القنوات الإخبارية العربية الكبرى.. لقد بنى أبناء ماسبيرو قناة الجزيرة كما بنوا قناة العربية كما بنوا قناة «بى. بى. سى» العربية كما بنوا قناة أبوظبى الإخبارية في زمن صمودها في حربى افغانستان والعراق.

كانت كل المحطات الإخبارية العربية تتصارع على اسمين بارزين من ماسبيرو تمكنا وحدهما من صياغة عصر الأخبار المرئية في العالم العربى.. حيث أصبح إبراهيم هلال وصلاح نجم هما الإعلاميين الأبرز في كل الفضاء العربى في صناعة الأخبار. كما أن أيمن جاب الله - وهو الثالث من أبناء ماسبيرو - ساهم كثيراً في تجارب إخبارية بارزة.

ولقد اختارت مؤسسة MBC وهيئة الإذاعة البريطانية BBC الإعلامى صلاح نجم «ابن ماسبيرو» لكى يطلق قناة العربية من دبى و«بى. بى. سى» العربية من لندن، كما اختار منتدى دافوس «إبراهيم هلال» واحداً من أفضل الإعلاميين في العالم.

(5)

لقد تدهورت صناعة الإعلام في ماسبيرو.. وأصبحت الرياض والدوحة هما الحاكمتين في مخاطبة الرأى العام العربى.

■ يخطئ الذين يهاجمون أبناء ماسبيرو الآن أو يصفونهم بعدم الكفاءة أو البلادة أو الضعف. ذلك أن أبناء ماسبيرو هم الذين صنعوا القوة الناعمة لبلادنا في الماضى وهم الذين صنعوا القوة الناعمة خارج بلادنا في الحاضر.

■ إن في ماسبيرو أعداداً وفيرة من المتميزين والموهوبين ومن الذين يقتلهم الحب والانتماء لمكانهم.. غير أنهم قد عانوا لعقود ممتدة من الإدارة الفاسدة أو الجاهلة.. أو هما معاً. إن ضعف ماسبيرو ليس في أبنائه بل هو في قادته وإدارته ومسؤوليه. لقد بنى أبناء ماسبيرو الإعلام الخاص في مصر في لمح البصر.. بنى أبناء ماسبيرو قنوات دريم والحياة والمحور و«أو» كما بنوا المكاتب العربية الدولية في القاهرة.

■ إن السؤال الآن: كيف نجح أبناء ماسبيرو في بناء المحطات المصرية الخاصة وكيف

نجح أبناء ماسبيرو في بناء المحطات العربية الكبرى وكيف لم يتمكن أبناء ماسبيرو من النهضة بصناعتهم إلى المستوى الذى برعوا فيه خارج المبنى؟

■ إن الإجابة سهلة للغاية.. إنهم قادة ماسبيرو وليسوا أبناء ماسبيرو.. إن الكوادر واحدة.. ولكن حسن الإدارة في الخارج وسوء الإدارة في الداخل هو ما يفرق بين أدائهم هنا وأدائهم هناك.

(6)

لقد أذهلنى حجم الديون الذى تكبده اتحاد الإذاعة والتليفزيون في مصر.. إنها تصل إلى 13 مليار جنيه.. رغم أن الرواتب رديئة للغاية والناتج النهائى لا يلبى طموحات أبناء المبنى.. إذن أين تم إنفاق كل هذه الأموال؟ كيف أنفقنا ثلاثة عشر مليار جنيه ومعظم أبناء ماسبيرو يعانون أوضاعاً مالية سيئة.. كما أن الشاشة في ماسبيرو فقيرة للغاية وبائسة بلا حدود.. أين ذهبت هذه الأموال.. إذا لم تكن قد ظهرت على الشاشة ولا في أوضاع العاملين؟

(7)

لقد قلت في اجتماع رئيس الوزراء إننى أفهم أن تخسر المحطات التليفزيونية في سبيل أداء رسالة وطنية أو فكرية أو أخلاقية.. لكنى لا أفهم أن تكون هناك خسائر دون رسائل.. الأصل في صناعة التليفزيون للمكسب.. لكن يمكن الخروج على ذلك الأصل إذا ما كانت هناك رسالة تستحق.. في هذه الحالة يمكن قبول تلك المعادلة «الخسارة مقابل الرسالة».

■ إن المعادلة التى حكمت ماسبيرو في عصر مبارك «خسارة بلا رسالة». واليوم يشعر أبناء ماسبيرو بأنهم أصبحوا في مرمى النيران.. وأنهم يحاسبون على أخطاء الإدارات المتعاقبة والمسؤولين الفاشلين.

اليوم ينتظر أبناء ماسبيرو الرواتب على نحو غير كريم.. ويجدون سياسة فاشلة أضعفت المبنى في حقبة ما بعد الثورة.

■ كان تركيز عصر مبارك على المبنى لا المعنى.. والخسارة لا الرسالة.. وأخشى، إن بقى ذلك الفكر حاكماً حتى الآن، أن يصل ماسبيرو إلى ما هو أسوأ.. لا مبنى ولا معنى!

عودة الملكية..
أحمد فؤاد الثاني رئيساً لمصر

سألتُ الأميرة الراحلة فريال فاروق، هل كان والدك الملك فاروق يفكر في احتمالات عودة الملكية في مصر؟ هل كان يضع في حساباته اثناء المنفى ان ثمة احتمالاً ولو ضئيلاً بفشل الثورة ورحيل عبدالناصر وعودة الملكية؟.. اجابتني الأميرة، لا أعتقد ابداً ان والدى فكر في هذا الاحتمال.. كان والدى يرى ان الملكية انتهت بلا عودة.. لكنه كان يتمنى ان يعود إلى مصر مواطناً وزائراً.

(1)

■ قلت للأميرة فريال: وهل يرى اخوك الملك احمد فؤاد الثانى ما كان يراه الملك الأب.. ام ان احمد فؤاد قد يغامر بطرح نفسه سياسياً في اى تحولات مقبلة في مصر؟

تراجعت الأميرة فريال في مقعدها وقالت في حزن وانكسار، للأسف فإن زواج أخى فؤاد من «دومينيك فرانس - الملكة فضيلة - قد انهى كل الاحتمالات.. ليس فقط احتمالات السلطة.. بل حتى احتمالات المكانة الرفيعة في مصر، واستطردت الأميرة فريال، إن زوجة فؤاد يهودية.. وقد تم وضعها في طريق أخى ليتزوجها.. لقد حاولت منع ذلك ولكن «المخطط» كان اكبر منا.. وتزوج اخى منها.. وانت تعرف أن اليهودى ينتسب للأم اليهودية.. وهكذا نجح «المخططون في أن تصل وراثة العرش إلى ابناء نصف يهود!

■ قلت للأميرة فريال - وكنا جلوساً في فندق البرنس دوجال في باريس - إن «فضيلة» اسلمت، وذهبت مع زوجها احمد فؤاد إلى مكة المكرمة.. وأديا مناسك العمرة معاً.. وهى إذن مسلمة وزوجها مسلم وابناؤها الثلاثة.. محمد على وفوزية لطيفة وفخر الدين من المسلمين.

(2)

■ لم تقتنع الأميرة فريال بما قلت.. وشرحت لى قصة مثيرة بشأن زواج أخيها واحتمالات المؤامرة.. وقالت لى، لا تذكر شيئاً من ذلك ولنا على قيد الحياة.. لكن يمكنك أن تقول كل ما أقوله لك.. بعد وفاتى!

(3)

■ سألت «الملكة فضيلة»، الزوجة السابقة لأحمد فؤاد، أم أبنائه الثلاثة، وكانت وقتها لاتزال زوجة للملك السابق: هل تظنين أن أحمد فؤاد أو أحد أبنائك يفكر في دور سياسى في مصر إذا ما تغير نظام مبارك؟ كنت لاأزال موضع ثقة لدى «فضيلة» قبل أن أفقدها لاحقاً إثر توطد علاقتى مع الأميرة فريال.. قالت لى فضيلة: نحن نحترم نظام الرئيس مبارك، ونحن نؤيده، كما أننا لا نريد إثارة حفيظة زوجته السيدة سوزان مبارك، إنها قوية جداً ويمكن أن تسبب لنا متاعب.. ونحن نريد أن نعود تدريجياً إلى مصر، ولكن دون أن يقلق منا أحد.

واصلت فضيلة: إننى أفكر في التجهيز لكتاب يحمل أوراق وأسرار الملك فاروق، كما أننى أنوى كتابة قصة حياتى «ملكة خارج المملكة» وقد تحدثت مع فريدريك ميتران «ابن أخ الرئيس فرانسوا ميتران ووزير الثقافة الفرنسى لاحقاً»، بشأن كتاب «أوراق الملك فاروق» وبشأن كتابى.. ولى صديق حائز على الأوسكار.. وأعرفه عن طريق عائلتى في استراسبورج.. وسوف أناقش معه عمل فيلم سينمائى عالمى عن حياتى «قصة حياة الملكة فضيلة». ثم انتهت فضيلة بالقول: إن ذلك كله بمثابة تمهيد الأرض لعودتنا «أحمد فؤاد وأنا والأولاد» إلى مصر.. والقيام بدور!

(4)

■ رحلت الأميرة الرائعة فريال فاروق.. واكتمل طلاق فؤاد وفضيلة بعد عشر سنوات من الصراع في محاكم سويسرا وفرنسا.. وجاءت فوزية إلى القاهرة في ضيافة عائلة الوزير السابق أحمد المغربى، ثم غادرت!

■ والآن.. يعود أحمد فؤاد إلى مصر بعد ثورة أسقطت الرئيس الرابع.. في نظام الثورة التى أسقطت عائلته ووالده!

(5)

■ عرفت من بعض الأصدقاء أن هناك من يدفع «أحمد فؤاد» للعب دور في السياسة

المصرية.. وقد بدأ هؤلاء - حسب معلومات وصلتنى مؤخراً، قد تكون صحيحة - في دفع احمد فؤاد للزواج من مصرية وإعادة تقديمه كوريث للعرش.. وجمع شتات العائلات الأرستقراطية وبعض قطاعات الليبراليين.. من اجل مشروع سياسى سوف يأخذ شعار «الملكية الدستورية في مصر».. ويتمنى هؤلاء أن يسود النظام البرلمانى في مصر من اجل تسهيل مهامهم في طرح «الملكية الدستورية».

■ وقد انتشرت على «فيس بوك» صفحات عديدة تدعو لهذا الطرح.. وعلى الرغم من أنها لا تضم أعداداً مؤثرة.. ولا حتى لافتة للانتباه غير أن تعددها واستمرارها يؤكدان أن ثمة مئات أو آلافاً يفكرون في ذلك أو يخططون له.

إن عناوين بعض الصفحات كالتالى: 1- نطالب بعودة الملك احمد فؤاد لعرش مصر. 2- عودة الملكية وجلالة الملك المعظم احمد فؤاد الثانى. 3- عودة الملكية الدستورية إلى مصر. 4- حملة لدعم الملك احمد فؤاد رئيساً لمصر. 5- معاً لترشيح أحمد فؤاد رئيساً للجمهورية. 6- الدعوة إلى عودة الملك احمد فؤاد إلى مصر المحروسة. 7- عودة الملك أحمد فؤاد ملك مصر الشرعى. 8- نريد عودة الملك احمد فؤاد. 9- معاً لعودة الملك. 10- معاً لاختيار احمد فؤاد رئيساً.

■ ثمة صفحات أخرى على الطريق نفسه.. وباللغة الإنجليزية توجد صفحة تحمل فكرة مثيرة «احمد فؤاد ملكاً وعمرو موسى رئيساً للحكومة»!

■ وقد بدأت الهمهمات تزيد بشأن الدور السياسى لأحمد فؤاد.. وقد نشرت صحيفة «الأخبار» المصرية تحقيقاً بعنوان: «هل يترشح احمد فؤاد رئيساً للجمهورية؟».

(6)

■ سوف يجد الكثيرون في ذلك امراً بعيداً للغاية.. وربما يجدون فيه شططاً يفوق الخيال ويبتعد كثيراً عن السياسة والتاريخ. وتقديرى أن ذلك - من حيث بعده وقربه - فهو بعيدٌ تماماً ومستحيل تماماً. ولكنه من حيث التاريخ والسياسة يمثل امتداداً لمحاولات عديدة في دول متعددة.

■ حين سقط حكم الديكتاتور شاوشيسكو في رومانيا عام 1989 بدأ البعض يطرح اسم الملك الرومانى «ميشيل» الذى أطيح به عام 1945.

■ وحين عاد ملك بلغاريا السابق «سيميون» إلى بلاده بعد سقوط الشيوعية لقى محاولات لدفعه للحياة العامة رغم فقدان العرش عام 1945.

■ ولما سقط الديكتاتور اليوغوسلافى سلوبودان ميلوسيفيتش جرى الاحتفاء بولى عهد يوغوسلافيا السابق الكسندر ديفيتش.

■ وفى افغانستان بعد سقوط طالبان جرى التفكير في عودة الملك ظاهرشاه إلى السلطة.. وفى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين كانت بريطانيا تدفع لعودة الملكية إلى العراق.. وقد التقيتُ في أبوظبى «الشريف على بن حسين» في تلك الأثناء.. وقال لى إنه قادم ملكاً على العراق!

■ ويتحدث البعض في ليبيا الآن عن عودة الأسرة المالكة السنوسية.. كما أن خصوم النظام الإيرانى يناورون دوماً باحتمالات دور لابن الشاه رضا بهلوى!

(7)

لا يمكن إذن أن نتجاهل النماذج السابقة.. لكن المؤكد تماماً أن هذه النماذج جميعها قد فشلت.. ولم يحدث - على الإطلاق - أن عاد ملك إلى ملكه.. أو قبلَ الشعبُ عودته إلى مكان بارز.

■ إن التاريخ أصبح عدواً للنظم الملكية.. وإن النظم الجمهورية لا تقبل شعوبها أبداً بالعودة إلى الوراء.. وفى مصر لا أظن أحداً من العقلاء يمكنه أن يكون جاداً في دعم الملك أحمد فؤاد.. وريثاً أو رئيساً.. ليس فقط لما قالته لى الأميرة فريال بشأن الزوجة والأبناء.. ولكن أيضاً لأن فؤاد في حد ذاته.. لا يملك المؤهلات للقيام بأى دور في الحياة السياسية. لقد خرجت أسرة محمد على باشا من السياسة ولن تعود.. ولا ينبغى أن تعود. وسوف تبقى مكانتها في التاريخ بقدر ما قدم ملوكها.. من قادة عظام مثل محمد على وإبراهيم باشا والخديو إسماعيل.. إلى قادة أقل.. إلى مليك خائن وعميل كالخديو توفيق.

■ إننى أدعو ملك مصر السابق أحمد فؤاد الثانى.. وهو يحمل من الخصال الطيبة والسمات الرقيقة الكثير والكثير.. ثم إنه يحمل لوطنه الحب والتقدير، ولا يحمل حقداً على ما واجهته العائلة في مصر أو في المنفى.. إننى أدعوه للعودة مواطناً صالحاً له كل الاعتبار والتقدير.. أما أن يكون أداة في أيدى منتفعين وباحثى شهرة ودور.. فسوف يطيح ذلك بصورة أحمد فؤاد كما نعرفها.. ثم إنه لن يصل إلى شىء كما يتوهم المنتفعون.

■ إن مصر وهى تمضى من الثورة إلى الدولة.. لا تحتمل عواصف غبار تعوق البصر عن معالم الطريق.

مصر.. البحث عن نظرية سياسية جديدة

مضت مصر في العقود الأخيرة دون نظرية سياسية.. كان الأداء أقرب إلى العمل «باليومية»، لم يكن وارداً أي حديث جاد عن «الاستراتيجية».. وفي أحيان كثيرة لم يكن ممكناً إنجاز «عمل تكتيكي» بالكفاءة اللازمة.

سمعت من أحد سفرائنا في الخليج قصة موجعة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية تزيد وجودها العسكري في منطقة الخليج.. وثمة حديث دائم عن سيناريوهات قادمة في المنطقة.. هناك من يتحدث عن نهاية الدولة العراقية المعاصرة.. وهناك من يتحدث عن حقبة مستجدة من الصراع المذهبي بين السنة والشيعة. وهناك من يتحدث عن تمدد إمبراطور شيعي من وسط آسيا إلى إيران إلى العراق إلى البحرين إلى شرق السعودية.. وعن تحالف مع سوريا وتنسيق مع حزب الله وحركة حماس. وهناك من يتحدث عن صعود للنزعة الإسلامية في تركيا أو صعود مضاد للنزعة الأتاتوركية.. وهناك من يزيد إلى احتمالات انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي أو احتمالات انسحابها من حلف شمال الأطلنطي.

كان سفيرنا حائراً للغاية.. ما النظرية التي تحكم السياسة المصرية وسط هذه التقلبات العاصفة؟ وما خريطة الطريق للدبلوماسية المصرية تجاه الدول والقوى والمذاهب والطوائف.. المتشابكة؟

سأل سفيرنا وزير خارجيتنا حين التقاه في إحدى المناسبات الاجتماعية: سيادة الوزير.. ما رؤية الدولة في مصر للخرائط السياسية الجديدة؟ وما تعليمات القاهرة.. بشأن هذه

الأطراف المتعددة في هذه الخرائط؟

■ كانت صدمة سفيرنا فوق الاحتمال. تجاوز وزير خارجيتنا شرح السفير وتساؤلاته.. وقال: سيادة السفير: كم بقى لكم في بعثتكم الحالية؟ قال السفير: بقى لى هناك ثلاثة أعوام، قال الوزير: هى مدة جيدة لكى تجمع بعض الأموال وتستمتع بالمأكولات الهندية المنتشرة في الخليج.. لا تشغل بالك بأكثر من ذلك حتى تعود!

***

كان من المعتاد أن يقول الدبلوماسيون والباحثون السياسيون ،إن ملف ليبيا والسعودية مع صفوت الشريف، وإن ملف ،كذا وكذا مع المخابرات، وإن ،ملف كذا وكذا أخذه جهاز أمن الدولة من المخابرات،. كما أن ،ملف كذا أصبح مع مكتب جمال مبارك،.. ولم تبق لوزارة الخارجية إلا الملفات الأقل سخونة!

وأذكر أننى قابلت عدداً من سفرائنا في عواصم عديدة.. وكنت أجد فيهم الإلمام المتميز بملفاتهم.. من علاقات نافذة إلى صداقات مؤثرة.. ومن معرفة سياسية واقتصادية رفيعة إلى تصور دقيق لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين البلدين. لكن سرعان ما يبدأ سفراؤنا الشكوى من أن كل ما يأتى إليهم من القاهرة مرتبك وضعيف وأنه في حالات كثيرة.. تأتى تعليمات القاهرة خاطئة تماماً.. وبعيدة عن أى طموح وطنى أو منطق سياسى.

كانت كل الأيدى تعبث في سياستنا الخارجية.. من موظفى الرئاسة إلى الأجهزة الأمنية إلى رجال الأعمال إلى الوزراء والصحفيين.. وفوقهم جميعاً عائلة الرئيس والعائلات القريبة والصديقة.

لقد أدى ذلك كله إلى أن يتحول الكثير من سفاراتنا إلى ،مكاتب تشهيلات،.. وأصبحت مهام عدد من دبلوماسيينا مرافقة المسؤولين إلى المراكز التجارية والترفيهية واصطحابهم في المحطات والمطارات.. أصبح جزء كبير من المدرسة الدبلوماسية المصرية العريقة مجرد مكاتب للعلاقات العامة والاستقبال!

***

كان من المعتاد أيضاً أن يبذل الدبلوماسيون المصريون جهوداً جليلة في مفاوضات

ثنائية أو متعددة.. ثم يجهدون الأطراف المفاوضة إلى الحد الأقصى من أجل المصلحة الوطنية المصرية.

ثم إذا بهم يفاجأون بتلك الأطراف تقول لهم: إننا لا نحتاج إلى أن نمضى معكم في هذه المفاوضات الشاقة.. إننا سنرفع سماعة الهاتف إلى بلادكم.. ونحن نعرف جيداً ما الأرقام التى نطلبها في القاهرة.. ومتأكدون تماماً أننا سنضع معهم السماعة ليرن الهاتف عندكم، حاملاً الأوامر من القاهرة بما نريد!

كانت الملفات الاقتصادية هى الأخرى تمضى في هذا السياق، لم تعرف مصر السابقة جهوداً كبيرة في «دبلوماسية المال».. في حين أن مصر خضعت كثيراً لدبلوماسية «المال الأجنبى». وقد تابع المصريون رئيسهم السابق وهو يسافر إلى كل بلاد العالم في أوقات متقاربة دون عائد سياسى أو اقتصادى. كان مبارك يتصرف كسائح معجب بما يزور.. لذا يتردد على المكان نفسه باستمرار وانتظام.

وقد كسر مبارك بنظريته الفريدة «الرئيس السائح» كل التقاليد والأعراف، كان مبارك يزور العاصمة الواحدة مرات عديدة دون أن يأتى رئيسها إلى القاهرة مرة واحدة، وكان رجال مبارك يروجون لهذه الزيارات باعتبارها رؤى جديدة في السياسة العالمية.

تمكن قادة أوروبا وآسيا من احتلال مساحات نفوذ كبيرة في مصر، وكانت كل زيارة للرئيس السابق إلى بلدانهم تعود بالمزيد من النفوذ لهم!

■ كان قادة الخارج جاهزين في كل مرة لأن يوافق مبارك على شىء.. شركات للأسمدة أو الأسمنت أو شراء شركات حكومية بثمن بخس.. أو إعفاءات ضريبية أو مد مرافق من حساب الميزانية المصرية.. أو الحصول على مساحات شاسعة للأراضى بأسعار تعادل شراء سيارة حديثة!

■ ذهب رجال مبارك يتحدثون طويلاً عن كثير من هذه الصفقات «غير الوطنية» باعتبارها فتوحات استثمارية.

أما رجال الأعمال المصريون المرافقون للرئيس في بعض رحلاته.. فقد كان معظمهم يعود بعقود توكيلات لمصانع وشركات الدول الأجنبية.. وكان القليلون جداً هم من يتمكنون من إبرام عقود للتصدير وبدورهم كان الصحفيون والإعلاميون المرافقون

للرئيس يعتبرون غاية نجاحهم وارتياحهم.. هو إمكانية مصافحة الرئيس أو الفوز بمداعبة أو مشاغبة. ولم يكن هؤلاء من العلم والإخلاص بما يجعلهم كاشفين لحجم الادعاء والفشل في زيارات الرئيس.

* * *

لقد هبطت مصر بهبوط الرئيس والرئاسة.. وانتهت بلادنا على «هزيمة بلا حرب».. اقتصاد ضعيف لم يصمد في أى أزمة، وسياسة ضعيفة أنزلت مصر من مكانتها كقائدة للإقليم وصانعة لجزء من سياسة العالم إلى دولة محدودة.. تراجع جدول أعمالها من إدارة الصراع مع واشنطن إلى إدارة الصراع مع قناة الجزيرة!

القذافي مفكراً.. غروب العقل

كان القذافى يتحدث إلى الشعب في النيجر، وفجأة ترك سياق الحديث ثم قال للجمهور، لماذا تتحدثون اللغة الفرنسية، والرسول «صلى الله عليه وسلم» والصحابة لم يكونوا يعرفون اللغة الفرنسية؟!

وفى إحدى السنوات ألغى القذافى الأعوام الأربعة الأولى من التعليم الابتدائى، وقرر الاكتفاء في تلك المرحلة العمرية بالتعليم في المنازل.. وفى سنة أخرى قرر إلغاء تدريس اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية في الجامعات.. لأن دراسة طلاب الجامعة لهاتين اللغتين تمثل عملاً غير ثورى، والثورى الحقيقى هو الذى لا يدرس اللغات الأجنبية.. وقد قام الطلاب الثوريون في جامعة الفاتح بإغلاق قسمى اللغة الفرنسية والإنجليزية في الجامعة، وأحرقوا عدداً من المراجع والكتب باللغتين.

لكن القذافى سرعان ما قرر تدريس اللغة الروسية في جميع المراحل الدراسية بعد إلغاء اللغة الإنجليزية!

- 1 -

لقد أسهم «اللاعقل» عند معمر القذافى في ركود الحياة الفكرية والثقافية في البلاد، ولم يتمكن المثقفون ولا الرأى العام في ليبيا من صياغة أى مشروع فكرى، حيث لم يكن هناك سوى «المشروع الفكرى العالمى» للقذافى.

وقد أدى عدم استقرار «الديكتاتور الهارب» على رأى واحد.. خطأ كان أو صواباً.. وكذلك الجو القمعى للجان الثورية.. إلى تحول الفكر السياسى الليبى طيلة أربعين عاماً إلى متفرقات من أقوال القذافى!!

ففى مرة يفتى القذافى بعدم أحقية المسلمين في البوسنة والهرسك، وبأن الأديب البريطانى الأشهر «وليم شكسبير» هو مواطن ليبى اسمه «الشيخ زبير»، ومرة يقرر نقل العاصمة

من طرابلس إلى «رأس لانوف» مسقط رأسه في خليج سرت، لأنه لم يرض عن موقف سكان العاصمة الذين لم يثوروا ضد الغارة الأمريكية على منزله عام 1986!

ومرة يطلق نظرية عن «الراهبات الثوريات» التى تقول إن الرجل العربى مهزوم ولا يشرف أى فتاة أن تكون زوجة له، لذا على الفتاة العربية رفض الزواج والتفرغ للرهبنة الثورية، والراهبة الثورية لا تتزوج، وهدفها استفزاز الرجال العرب الخانعين ليعودوا لسلاحهم ونضالهم، وشعارها «لا اتزوج مهزوماً لأنجب مهزومين.»

ومرة يقول «التعليم تدجيل.. والتعليم الإلزامى تدجيل إلزامى.. ومرة يهدد «سأحرق كل الكتب المضللة، سأشن ثورة على المكتبات والجامعات والمناهج الدراسية وعلى أى شىء مكتوب!!!»

ومرة يحرق الآلات الموسيقية والمصنفات الغربية، وفى أحد الأيام فوجئ مشاهدو التليفزيون الليبى بصورة حذاء تعترض الشاشة عدة أيام، وعلموا أن ذلك الحذاء الموضوع فوق الشاشة بسبب استياء القذافى من عدم تحقيق الوعى الثورى غايته!!

ومرة أصدر الفريق الغنائى «فرسان القذافى» أسطوانة بعنوان «العالم الثالث.. الطريق الثالث» نسبة إلى نظرية القذافى، وقالت صحيفة إنجليزية «من الواجب نقل أعضاء الفريق إلى مستشفى أو احتجازهم بإحدى المصحات العقلية!!»

ومرة يقول «تلقّوا الواحد منهم يقول الدعوة ولّا الإخوان.. هذا تقطعوا له رقبته وتلوّحوه في الشارع.. الآن نستطيع أن نعدم أى أحد، ما نخجل أبداً، نأتى به في التليفزيون أمام العالم، نحضر جميع صحفيى العالم واتركهم يتفرجون عليه.. نعدم حتى الأبرياء بقصد إرهاب الجانى الحقيقى الذى قد لا يكون معروفاً في تلك اللحظة.»

ومرة يقوم بافتتاح المؤتمر التأسيسى الأول لمقاومة الاستسلام والتطبيع مع العدو الصهيونى، وقبل أن ينتهى المؤتمر يقرر طرد آلاف الفلسطينيين من ليبيا إلى لهيب الصحراء في انتظار المغادرة!!

ومرة يقرر تخصيص ثلاثين رأس ماشية لكل صاحب أغنام بعد أن تبين أن أصحاب العقارات الذين قام القذافى بتأميمهم قد اتجهوا لشراء الآف الماشية.. ومرة يوجه نداء إلى جميع الممنوعين من السفر ليجتمعوا أمام إدارة الجوازات للتظاهر ضد قرارات المنع!!

ومرة يقول للجان حقوق الإنسان الغربية ليس لدينا معتقلون سياسيون، وأنا لا أعرف من الذى أدخل هؤلاء إلى السجون.. ينبغى أن يخرجوا.. وأن يحاكم الذين أدخلوهم!!

-2-

لقد عرضت تحليلاً مطولاً في كتابى «حقوق الإنسان في ليبيا.. حدود التغيير» الذى صدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان عام 1999 ـ للانهيار الفكرى والثقافى في ليبيا بسبب استحواذ المفكر الأوحد والفيلسوف الأول معمر القذافى على كل شىء.

ويصف المعارض الليبى «السنوسى بلالة» حالة العقل في ليبيا في عصر القذافى قائلاً: إن القذافى عمل طيلة عهده من أجل ترسيخ فكرة أنه هو شخصياً وفقط مصدر الإشعاع الوحيد للفكر والثقافة في ليبيا، وسعى لإقناع الجماهير بذلك.. سواء بالإرهاب الذى ألمّ بالمثقفين أو المبدعين، أو بالقمع الذى أحاط بالثقافة ووسائلها داخل البلاد عموماً، مما أدى إلى تردى وبؤس الواقع الثقافى واضمحلال مستواه على الجوانب كافة.

ولقد أتاح ذلك للقذافى فرص الظهور كبديل فكرى وثقافى وحيد، بعد إهالة التراب على إبداعات الأدباء الراحلين «خليفة التكبالى و«يوسف الدلنسى» وغيرهما، وتوقف «الثقافة العربية»، المجلة الثقافية الوحيدة في ليبيا، عن الصدور ليسطع نجم الكاتب والأديب معمر القذافى!

-3-

إن الفكر السياسى بل عموم التفكير في ليبيا قد أصابه الكساد طيلة عهد القذافى، فالكتب والدراسات ومراكز البحث والجامعات والمعاهد والسينما والمسرح والتليفزيون والقصة والرواية والقصيدة.. كلها دخلت في طور السكون!

وطيلة عهد القذافى لم يكن ممكناً سماع شىء عن فيلم أو مسرحية أو مطرب أو شاعر أو باحث ليبى له صيت خارج بلاده!

-4-

يروى الأستاذ محمد حسنين هيكل في «المقالات اليابانية» أن وفداً ليبياً أمره القذافى بشراء قنبلة نووية من الصين بعد قيام الثورة الليبية عام 1969، وقد طلب الوفد أثناء مروره بالقاهرة لقاء الرئيس عبدالناصر ليطلعه على الموقف، فضحك عبدالناصر وقال: «هى

وبعد ذلك قرن قرر القذافى طواعية أن يسلم محاولاته من أجل الحصول على القنبلة النووية إلى مسؤولى المخابرات المركزية الأمريكية!

أقام القذافى فكرة الجماهيرية على الاشتراكية التامة، ثم قام لاحقاً بتعيين شكرى غانم رئيساً للوزراء وأعلن عن خصخصته للمصانع والنفط والبنوك والمطارات والشركات العامة.. أى كل شىء تقريباً!!

أقام القذافى نظامه السياسى على المعاداة الظاهرية الشديدة للولايات المتحدة، وكان يتهم النظام الملكى السابق بالتبعية لأمريكا والغرب.

ثم فتح القذافى كل أبواب ليبيا للولايات المتحدة وأوروبا في أخطر المجالات، وقال سيف الإسلام معمر القذافى في حوار لصحيفة «صنداى تايمز»: «لن تمانع ليبيا في أن تقوم قوات بريطانية أو أمريكية بعمل تدريبات عسكرية على أرض ليبيا»، وأعلن القذافى عن قرار ليبيا بحل مشكلة لوكيربى كما يريد الغرب، وكذلك تسليم كل مشروعها لإنتاج أسلحة الدمار الشامل إلى أمريكا، قائلاً: «سوف نحول سيوفنا إلى مناجل!»

كان القذافى يتحدث دوماً عن العروبة والقومية العربية والناصرية كمشروع أساسى لبلاده.. ولكنه طلب عدة مرات انسحاب بلاده من عضوية الجامعة العربية.. وشرح القذافى الابن «سيف الإسلام» التحولات الليبية التى سمحت بوجود عسكرى أمريكى وبريطانى في ليبيا بقوله: «بمجرد أن أكد لى الأمريكيون والبريطانيون أنه لا توجد لديهم نية في تغيير نظام القذافى.. فإن كل شىء سار بسلاسة!!»

-5-

لقد كان عهد القذافى أربعة عقود كاملة من غياب العقل.. وفى تقديرى أنه من المستحيل «يقيناً» أن يكون القذافى وهو بهذا المستوى العقلى قد تمكن من حكم ليبيا أكثر من أربعين عاماً.. بقدراته وإمكاناته وأطروحاته، شىء واحد يفسر بقاء القذافى رغم قوة المعارضة.. كل هذه السنوات.. كان القذافى عميلاً متميزاً لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية «سى. آى. إيه.»

خريف القذافي*

تشرفت بتحرير مذكرات الفريق سعدالدين الشاذلى قبل أعوام قليلة.. تقع المذكرات، التى لم تنشر بعد، في سبعمائة وأربعة صفحة، تشمل حياة ورؤى الفريق الشاذلى منذ نشأته في قرية شبراتنا مركز بسيون محافظة الغربية، مروراً بالحروب المصرية والعربية، ووصولاً إلى ما بعد سقوط بغداد وتحولات العالم العربى.

كان علىّ أن أجلس ساعات طويلة فاقت المائتى ساعة من أجل إنجاز تلك المذكرات.. وكانت هذه الجلسات تسمح بالحديث في قضايا متنوعة كان بعضها خارج السلاح والسياسة.. لكن معظمها كان في شأن الحرب والسلام.

(1)

ذات صباح.. كان الفريق الشاذلى يتحدث عن الرئيس الليبى معمر القذافى، وكان الفريق معتدلاً في طرحه بشأن العقيد وجماهيريته، ولكننى لم أكن على نفس القدر من الاعتدال.. وفاجأت الفريق الشاذلى بقولى: سيادة الفريق.. إن القذافى عميل أمريكى، ولا يمكن لنا بناء سياسة خارجية ولا نظرية للأمن القومى دون أن تكون إحدى فرضياتها أن القذافى رجل الولايات المتحدة. إنه لا يمكن للمرء أن يتصور - تحت اى مستوى عقلى - أن رجلاً كالقذافى يمكنه أن يحكم بلاده لعقود متصلة دون أن يكون واجهة لقوة أكبر وأخطر.

كان رد الفريق الشاذلى مفاجئاً للغاية.. قال: إن هذه الفرضية كانت هى الحاكمة لتفكير الدولة المصرية تجاه القذافى طيلة عصر السادات. واعتدل الشاذلى على مقعده وقال: لستُ أوافق على هذه الفرضية، وأراها تجنح إلى المبالغة، وربما اعتمدت على غرابة أطوار القذافى أكثر مما اعتمدت على حقائق ووثائق.

---

*نشر هذا المقال في 14 مارس عام 2011 قبل سقوط ورحيل القذافي.

وواصل الشاذلى، ولكن الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل وممدوح سالم وآخرين كانوا يرون القذافى رجل واشنطن.

(2)

إننى واحد ممن يرون أن القذافى هو رجل الغرب وأنه لم يكن يوماً صادقاً فى ادعاءاته القومية العربية، وأنه ربما كان يمثل «الطابور الخامس» داخل الجامعة العربية وفى قلب الجماعة العربية. وقد نجح القذافى فى أن يحرم مصر من الانتعاش الاقتصادى على إثر الوفرة النفطية الليبية، كما أنه كان يستخدم المصريين العاملين فى ليبيا كورقة ضغط دائمة على القاهرة لا كرؤية عروبية وإيمان حقيقى بأى تكامل عربى، وكثيراً ما كان القذافى يغلق الحدود ويفتح الحدود ويأخذ قوارب الصيد ثم يفرج عن قوارب الصيد، ويعتقل ويحاكم آلاف المصريين.. فى إطار عدائى بحت لا علاقة له بأى مقولات تخص الوحدة العربية والآمال العربية.. نجح القذافى فى أن يخطف صورة الرئيس جمال عبدالناصر لتكون غطاء لكل ما يخالف فكر ورسالة جمال عبدالناصر.

(3)

كان الأجدر - فى تقديرى - أن تقوم مصر بقلب نظام الحكم فى ليبيا وإسقاط القذافى منذ سنوات طويلة. إن ليبيا امتداد مصر، وشعبها امتداد لجزء من شعبنا، ومناخ ليبيا معتدل وجاذب، وصحراؤها تملك جمالاً خاصاً وآسراً، وساحلها الشمالى هو امتداد ساحلنا الشمالى، واللهجة الليبية متصلة بلهجة مواطنينا فى الشمال الغربى لمصر، وثمة اتصال تاريخى منذ عهد الفراعنة بامتدادنا الجيواستراتيجى فى ليبيا، ثم إن قيام دولة العدو الإسرائيلى عند الشمال الشرقى لمصر قد ضاعف من أهمية الاتصال الشمالى الغربى عند ليبيا، وقد كان بإمكان الثروة الضخمة التى امتلكها شعبنا فى ليبيا أن تمثل «مشروع مارشال» عربياً لدعم الاقتصاد المصرى بعد حروب إسرائيل، كان يمكن لهذه الثروة أن تكون دافعة للاستثمار وجاذبة للعمالة وقائدة لمنطقة اقتصادية متميزة تشمل بلدينا معاً.

لكن القذافى كان حائط الصد الأكبر ضد تلك الأحلام العربية. أظهر القذافى لشعبه أن مصر تطمع فى نفط ليبيا، وأن المصريين إذا تمكنوا سيأخذون آبار النفط لهم ويتركون الليبيين بلا ثروة، وقد ظهر ذلك تماماً فى تصريحات سيف الإسلام القذافى أثناء الثورة الليبية 2011 كى يخلق الخوف لدى الشعب الليبى من أشقائهم المصريين.

(4)

إن القذافى الذى حرم مصر من استثمار ثروة عربية لصالح شعبينا.. زاد إلى ما هو أسوأ.. حيث كان القذافى وسيف القذافى وراء انقلاب دول حوض النيل على مصر.. تجاوز القذافى مرحلة «الدفاع» إلى «الهجوم».. وبدلاً من أن يكون الحوار حول كيفية خلق «بينولوكس» عربى بين مصر وليبيا والسودان.. دفع القذافى ومعه الولايات المتحدة وإسرائيل الحوار إلى «إعادة النظر في مياه النيل».. وكان القذافى هو من نبه ودفع لقادة وساسة أفارقة من أجل رفع شعار «قطرة الماء تساوى قطرة نفط».

■ ويروى دبلوماسيون نافذون كيف أن القذافى قال لعدد من قادة حوض النيل إنكم تروننا أغنياء، لأننا نملك النفط.. وتنسون أنكم أيضاً أغنياء لأنكم تملكون الماء.. وقد حان الوقت لكى تبيعوا المياه لمصر كما نبيع نحن النفط للغرب.

وقد سمعت من مسؤولين مصريين أن الأجهزة المصرية كانت تعرف ذلك جيداً.. لكن السلطة السياسية في عهد مبارك التزمت الصمت!

■ لقد كان دور القذافى لصالح الغرب في تلك الأثناء قوياً للغاية.. أدى خلاله مهمتين جليلتين.. الأولى ضد باكستان حين كان «المصيدة» التى أوقعت شبكة العالم النووى الباكستانى «عبدالقدير خان». والمهمة الثانية أنه لعب دوراً كبيراً في رشوة ودفع قادة إثيوبيا ودول حوض النيل من أجل إلغاء الاتفاقية وحرمان مصر من جانب مياه النيل، على أن تأخذها مصر بمنطق البيع والشراء!

(5)

لم يكن عصر حسنى مبارك بالزمن الجاد في السياسة الخارجية أو حماية الأمن القومى.. وفى عهده كان دور بلادنا الخارجى أقرب إلى العلاقات العامة.. مساحات رخوة من التلطيف الإقليمى والدولى.. كانت كل دولة هى «الشقيقة والصديقة»، وكل رئيس هو «أخى وشقيقى العزيز فخامة الرئيس..»!

ولو كان مبارك قائداً جاداً، ولو كانت إدارته إدارة وطنية.. واعية وقادرة لتغير وضع بلادنا تماماً.

■ إن عصر مبارك لم يشهد حرباً ولا اشتباكاً.. ولم يواجه تحديات داخلية ولا

خارجية صادمة.. ولو أننا امتلكنا في الثلاثين عاماً الماضية قيادة غير مبارك لتغير وجه المنطقة إلى الأفضل.

كان مبارك أوفر حظاً من عبدالناصر والسادات، وكان الإقليم المحيط والعالم المعاصر أكثر ملاءمة لممارسة الدور والمكانة بما يليق، لكن مبارك الذى انهزم في السودان وانهزم في فلسطين وانهزم في العراق.. وانهزم في ليبيا.. ترك بلادنا وقد امتلكت كل ركائز الضعف.. لكننا الآن لدينا فرصة عظيمة للعودة من جديد، لكن أولى خطوات العودة.. إسقاط نظام القذافى.

يمكننا الآن أن نسقط زمن «العلاقات العامة» لنشهد زمن «عودة الدبلوماسية».

الأسطول السادس

قابلت الرئيس معمر القذافى ذات خريف قبل سنوات، كنت ضمن وفد مصرى ذهب للمشاركة في احتفالات ثورية. وكان الراحل النبيل الدكتور محمد السيد سعيد قد كلفنى بعمل بحث عن «حقوق الإنسان في ليبيا»، وقد نشرته لاحقاً في كتاب صدر لى عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. أثناء إعداد البحث جاءتنى دعوة ليبيا وكنت أعرف أنى لن أدخلها بعد نشر البحث.. ومن ثم فإن هذه الدعوة هى فرصتى الأولى والأخيرة.

■ ■ كنت أفكر طيلة الوقت.. من هو القذافى هل يمكن لرجل بهذا المستوى أن يحكم دولة واسعة مثل ليبيا؟.. إن القذافى يبدو شخصاً غير طبيعى.. وهو يتحدث كثيراً ولا يقول شيئاً.. وهو يقدم حالة استعراضية من الكلام «قذافى شو» أكثر مما يقدم خطاباً سياسياً مسؤولاً أو موزوناً.. من يكون هذا الرجل؟.

إننى أتذكر الآن ذلك التعبير الأخاذ الذى صاغه الرئيس الكوبى فيدل كاسترو عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن «كل ما أخشاه أن يكون هذا الرجل بالغباء الذى يبدو عليه»!

(1)

أقمنا في «الفندق الكبير» في العاصمة طرابلس على شاطئ البحر المتوسط، وحين تجولت على كورنيش طرابلس.. كانت صدمتى كبيرة في حالة الفقر الشديد الذى يعانيه عدد كبير من الليبيين هنا ليس بالخليج العربى، لا مظاهر للثراء ولا أثر للنفط.. وقد استقبلت في ساعة واحدة عشرات المتسولين الليبيين الذين يطلبون الصدقات والإحسان!

كان ينبغى أن يكون الشعب الليبى أغنى شعوب العالم، إنه يملك أكبر ثروة على عدد قليل من السكان في دولة ساحلية سياحية معتدلة المناخ والبشر.. كان ينبغى أن تكون

ليبيا سويسرا العالم العربي حتى لو لم يفعل الشعب اى شيء غير الإنفاق والاستمتاع.

كان دخل ليبيا من البترول عام 1980 يزيد على العشرين مليار دولار.. استقبلت ليبيا في اكبر ثروة استقبلها شعب على مدى ثلث قرن، لكن نجاح القذافى كان منهلاً في تبديد اكبر ثروة في التاريخ!

ضاعت وعود القذافى بتقسيم عائدات النفط وحلت محلها طوابير للتسولين امام الجمعيات التعاونية.. وكلما بدات ملامح طبقة وسطى او ملامح طبقة من القادرين كان القذافى يدعهم حتى يصلوا إلى قرابة اهدافهم.. ثم يسحقهم ليعودوا إلى الصفر من جديد!

وفى عام 1996، اعلن القذافى عن «عمليات التطهير» القى القبض على رجال الأعمال واصحاب المحال والعقارات والمصانع، واقام لذلك الهدف الفاً ومائتى لجنة تطهير وإحدى وثمانين محكمة عسكرية!

(2)

غادرت العاصمة طرابلس إلى مدينة سرت حزيناً على ما رايت، وفى مطار سرت تضاعف ذلك الحزن.. دخلت إلى صالون الاستقبال من أجل بعض الراحة وبعض الشاى.. وكان الفيلسوف الفرنسى الشهير روجيه جارودى قد سبقنى إلى الشاى وإلى الجلوس.. كان من حظى انى قضيت الوقت مستمعاً إلى جارودى.

كان جارودى يتحدث إلىّ بإنجليزية سهلة عن السياسة السياسيين.. ولقد صدمنى راى جارودى في القذافى.. قال لى: «إن القذافى سياسى ومفكر.. وهو صاحب رسالة صعبة في زمن صعب» لم تكن ملامح جارودى بالصدق الكافى وهو يمتدح معمر القذافى، وقد قابلت جارودى مرة ثانية في طريق العودة إلى مطار سرت وكان جارودى لايزال على موقفه.. وقد عرفت فيما بعد أن الفيلسوف الفرنسى الكبير كان يتقاضى اموالاً من القذافى.

(3)

قابلنا الرئيس القذافى في خيمة فاخرة.. ولو كانت الخيام كالفنادق تقاس بالنجوم.. لقلت إن خيمة القذافى مائة نجمة.. ولكن القذافى بدا حديثه بالقول: إننى قائد بسيط اعيش في خيمة متقشفة!

كانت تلك العبارة هى افتتاحية خطاب عبثى امتد ثلاث ساعات لم يكن هناك رابط

واحد بين كل ما يقول إلا «العبث».. وبينما يواصل القذافى نوباته الكلامية.. توقف فجأة ثم قال: لماذا أنتم هنا؟.. ماذا تفعلون في هذه الخيمة؟.. إن العدو أمامكم فلماذا لا تواجهونه؟.. لماذا جئتم بالطائرة من القاهرة إلى تونس ولماذا دخلتم إلى طرابلس عن طريق البّر؟.. الثائر الحقيقى لا يخاف.. عليكم أن تكسروا الحظر الجوى علينا.. الآن بعد أن تخرجوا من الخيمة عليكم أن تركبوا الطائرة من سرت إلى القاهرة.. وأن تواجهوا الأسطول السادس الأمريكى.. ماذا سيحدث لكم؟.. لا شىء.. سيضربكم الطيران الأمريكى.. ستموتون.. نعم سوف تموتون، ولكنكم ستموتون أبطالاً.. بدلاً من أن تعيشوا خائفين من أمريكا!

(4)

لا يؤمن القذافى بقيمة الحياة إلا حياته هو وحياة أبنائه.. الموت للشعب من أجل أن يعيش القائد.. بل الموت للوطن من أجل أن يحيا الزعيم.. إن أول ما يفكر فيه القذافى تجاه أى رأى مخالف هو الموت.

لا يعرف القذافى أى تدرج في الخلاف أو العقاب.. وحين تولى السلطة في عام 1969 أصدر قانوناً بإعدام كل من تعتقد السلطة أنه يقاوم الثورة، وفى عام 1972 أصدر قانون «تحريم الحزبية» والذى يقضى بإعدام كل من يشكل حزباً سياسياً، ثم أصدر قانوناً بإعدام كل من يخالف سعر الصرف السائد، ثم كان «قانون تعزيز الحرية».. والذى يقضى بإعدام كل من تشكل حياته خطراً على المجتمع!

كان القذافى مجرماً في تنفيذ تلك الأحكام.. وكان يتوسع فيها بلا خوف أو رادع.. وفى عام 1984 أمر القذافى بإعدام طالبين أمام زملائهما.. الأول في فناء كلية الزراعة والثانى في فناء كلية الصيدلة.. ولما تظاهر الطلاب أطلق عليهم الرصاص، وفى عام 1996 أطلق الأمن الليبى النار على الجمهور الذى حضر مباراة لكرة القدم بين فريقى الأهلى والاتحاد بعد أن ردد الجمهور هتافات سياسية.. وكانت نتيجة المباراة مقتل خمسين وإصابة خمسمائة!

(5)

أصبحت ليبيا جماهيرية بلا جماهير.. ودولة بلا رموز.. لا أغنياء ولا أقوياء ولا ساسة ولا مفكرون ولا نجوم.. تم إطفاء ليبيا بكاملها من أن أجل يضىء معمر القذافى.

الشعبية واللجان الثورية والقائد اللهم.. يرى القذافى في نفسه زعيماً أكبر من بلاده، وكان يرى نفسه جديراً بحكم مصر.. ومنها يحكم العالم العربى.. ثم إنه رأى نفسه جديراً بحكم أفريقيا، فأعلن نفسه ملكاً على ملوكها.. ثم انه رأى نفسه أميراً للمؤمنين، فكان يخطب الجمعة ويؤم الصلاة.. وزعيماً للصوفية العالمية.. ثم إنه زاد في تثمين قدراته الدينية فراح ينافس بيت النبوة ذاته.. فألغى السنة النبوية والتقويم الهجرى واتهم عبدالمطلب جد النبى «صلى الله عليه وسلم» بالعمالة لأبرهة الحبشى!

■ ■ دارت السنوات اثنين وأربعين عاماً.. كان القذافى في أولها يتحدث عن الثورة والثوار وعن مناهضة أمريكا والغرب.. ثم مضت السنون.. ليخرج جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة الأحد عشر من السلطة ومن الحياة.. ثم ها هو القذافى يواصل جدول أعماله.. «قَتْلَ الشعب في بنغازى وطرابلس ومصراته وراس لانوف.. وكل مكان.. ثم ها هو يأتى بالقوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية إلى بلاده من جديد.

■ ■ اثنان وأربعون عاماً.. لا ثروة ولا حرية ولا استقلال.. عاش القائد الأول ليعيش الأسطول السادس!

كونفيدرالية جديدة..
مصر وليبيا والسودان

إننى واحد ممن يؤمنون بالتوسع الخارجى والأحلام الإمبراطورية، واعتقد، جازما، أن عددا من أزمات الداخل تكمن حلولها الوحيدة في الخارج. ولو أننى عشت قبل قرن من الآن لكنت من دعاة «الإمبريالية المصرية»، أى التوسع الاستعمارى لبلادنا في الخارج، غير أن مستجدات السياسة وتحولات التاريخ قد فرضت علينا حماية حدودنا كحد أقصى.

■ الآن.. وقد فتحت ثورة 25 يناير 2011 أبواب التاريخ.. يمكنها أيضا أن تفتح أبواب الجغرافيا.. يمكن لبلادنا أن تتجه ذات الغرب وذات الجنوب.. من أجل إنشاء كونفيدرالية جديدة تشمل القاهرة وطرابلس والخرطوم.

■ ■ هذه دعوتنا.. وهذا مشروعنا وهذا بالإمكان.

(1)

■ زرت ليبيا قبل أعوام، واستمعت إلى الرئيس القذافى وإلى سيف الإسلام القذافى.. وقابلت عددا من أفراد اللجان الثورية واللجان الشعبية وعددا وفيرا من معجبى الكتاب الأخضر!

■ ولقد قابلت نخبة من المثقفين الليبيين في المنفى على مدى سنوات فائتة وكان الحزن والألم يلف الجميع جراء ما يفعله القذافى بالمال والانسان ذلك أن القذافى أهدر أكبر ثروة أتيحت لشعب في كل العصور. وبينما كان ينبغى أن يرفل الليبيون في مليارات النفط التى لا تنقطع، كان الليبيون يعانون - مثل باقى شعوب العالم الثالث - مدنا فقيرة وبائسة.. وخدمات ضعيفة وفاشلة.. وإمكانات ضحلة لا تليق ببلد غنى.. فكل ما فعله القذافى لشعبه

هو ضمان التدفق الرخيص للسلع التموينية. ولا يتجاوز عطاء القذافى لشعبه نطاق «الأكل والشرب».. كأنه يتعامل مع ضيوف مؤقتين.. ما عليه إلا أن يكرم وفادتهم بالطعام حتى يرحلوا!

(2)

إن ليبيا بلد رائع ومهم. وقد ألغى القذافى روعته وأهميته.. وأصبحت الصورة الذهنية لليبيا في العالم أنه «بلد غريب الأطوار».. إن مساحة ليبيا تصل إلى مليون وثلاثة أرباع المليون كيلو متر مربع.. ويصل طول ساحلها على البحر المتوسط إلى (2000) كم.. وبذا يصبح «الساحل الشمالى» في ليبيا هو أطول ساحل شمالى وجنوبى على امتداد البحر المتوسط أوروبيا وعربيا، وفى ليبيا واحدة من أبدع وأجمل الصحارى في العالم.. وهى الأكثر جذبا لسياحة السفارى.. وفى ليبيا أكبر حجم وقيمة للآثار الرومانية خارج إيطاليا.. وتنتشر فيها المدن التاريخية السياحية البحرية في آن واحد.. وفى ليبيا أيضا مرتفعات للثلوج.. حيث تسقط الثلوج على مرتفعات الجبل الأخضر.. وفى فصل الشتاء تكون مدينة البيضاء - وهى من المدن الليبية المهمة.. مكسوة بالثلج مثل مدن أوروبا الباردة.. مع جمال عربى خاص وآسر.

■ وتحت الطبيعة الساحرة يقبع احتياطى ضخم من البترول والغاز.. حيث يصل احتياطى النفط الليبى المؤكد إلى أكثر من (40) مليار برميل، ويصل احتياطى الغاز المؤكد إلى (50) تريليون قدم. وتصدر ليبيا من النفط سنويا ماقيمته (40) مليار دولار.

(3)

لم يكن ممكنا الإفادة المشتركة من الثروة والخصوصية الليبية.. ذلك أن القذافى حرم الليبيين منها قبل أن يحرم الآخرين.. كما لم يكن ممكنا التعاون الاقتصادى الجاد في ظل حاكم كالقذافى في ليبيا ومبارك في مصر. ولم يكن ممكنا كذلك أن يقوم القطاع الخاص المصرى والأفراد الموهوبون بالانطلاق في ليبيا للمساهمة في الازدهار والتنمية المشتركة.. ذلك أن القذافى يحكم بلدا بلا قوانين، لا قضاء ولا محاكم ولا حقوق ولا التزامات.. ولا دولة!

■ إن شعبنا الليبى، يمكنه أن يتوجه إلينا.. وعلينا أيضا أن نتوجه إليه.. وإننا لسنا جيرانا فحسب، بل إن لنا وجودا مشتركا في غرب مصر وشرق ليبيا.. ذلك أن العائلات والقبائل عند حدودنا الغربية مختلطة ومتوافقة. وللأسف الشديد.. فإن عصر مبارك والذى

أدى إلى الضعف المزرى للدولة المصرية، قد فتح الباب لخرافات القذافى وجولات احمد قذاف الدم التى ظهر منها أن المصريين من أصل ليبى.. من اجل زعامة موهومة للديكتاتور القذافى..

وتركت سلطاتنا للقذافى ساحة واسعة للعبث في الفيوم والبحيرة والإسكندرية ومطروح وغيرها.. والآن حان وقت التصحيح.. ذلك أن الحياة المشتركة لشعبينا في غرب مصر وشرق ليبيا لا يمكن الجنوح بها إلى هذا الشطط القذافى.. وكل ما هو مؤكد ومناسب أن المصريين الذين أطلقوا على غرب بلادهم اسم «ليبيا» يجدونها ذات مكانة خاصة عندهم.. وأن الليبيين الذين تعاملوا كمصريين فراعنة وشاركوا في الحكم لبعض الوقت يجدون مصر ذات مكانة خاصة لديهم.

■ لقد حان الوقت إذن لأن تدخل ليبيا مع مصر وشمال السودان في كونفيدرالية واحدة.

(4)

لقد زرت السودان قبل أعوام والتقيت عددا من ساستها ومثقفيها.. واقابل في القاهرة وعواصم عديدة أشقاءنا السودانيين دون انقطاع. إن السودان موجود في مصر كاننا في اتحاد حقيقى.. ومصر موجودة في السودان بالفكر والثقافة والفنون والمجتمع وإن كانت غائبة بالسياسة والتأثير.. إننا لن نبذل جهدا في إقامة كونفيدرالية مع السودان.. ذلك اننا قضينا عقودا عديدة في دولة واحدة. كما ان ملايين السودانيين يعيشون في مصر وآلاف المصريين يعيشون في السودان دون ضجيج.

إن انفصال شمال السودان عن جنوبه - رغم الأسى - يمكن الإفادة منه.. يمكننا التحالف مع شمال السودان بعيدا عن ملف الجنوب والتكاليف العسكرية والأخلاقية للحرب الأهلية..

■ لقد خسر شمال السودان - بانفصال الجنوب - أغلب موارده من النفط.. كما أنه خسر مساحات واسعة من الأراضى الزراعية والثروة الحيوانية ثم إنه فقد ربع سكانه.. وأصبح عدد السكان (30) مليونا بعد انفصال عشرة ملايين في دولة الجنوب.. ثم إنه قد يواجه خسائر نفطية اكبر فيما لو قررت حكومة جنوب السودان أن تستغنى عن ميناء بورسودان في التصدير واعتمدت ميناء مومباسا في كينيا.. ويواجه شمال السودان معضلات

في دارفور وفى الشرق لكن السودان الشمالى، رغم ذلك كله، لايزال قويا وغنيا. من المياه إلى الأرض إلى الذهب.. والسودان في احتياج إلينا كما اننا بحاجة إليه..

(5)

هذه مقدمة عامة فى الدعوة إلى تاسيس كونفيدرالية تشمل ثلاث دول: مصر حيث البشر والسودان حيث الأرض وليبيا حيث النفط.. إنها شركة عالية لا مثيل لها.. لن نذهب إلى السودان لنأخذ الأرض ونرحل أو نذهب إلى ليبيا لنعبئ النفط ونمضى، بل نذهب إلى هناك ويأتون هم إلى هنا من اجل إنجاز أمل شعوبنا في الرخاء.

■ ■ إن فرص تاسيس هذه الكونفيدرالية كبيرة للغاية.. بعد أن غادر مبارك والقذافى.. وبعد أن تنضبط أصوات الفوضى في السودان..

■ ■ الكونفيدرالية هى الحل.

القابلية للإستعمار.. مالك بن نبي

«لو طلبت منى فرنسا ان اقول لا إله إلا الله.. ما قلتها»

الشيخ عبد الحميد بن باديس

■ يرى الفيلسوف الجزائرى «مالك بن نبى» أن الحضارة الإسلامية قد استقالت من التاريخ بعد زوال دولة الموحدين فى المغرب، فبعدها دخل المجتمع الإسلامى فى العدم، فيما كانت الحضارة المسيحية تنطلق إثر الحروب الصليبية، وأول لقاء بين الحضارتين كان حوالى 1858 م، حيث استعمر الغرب الهند والجزائر.

■جاء لقاء الحضارتين الغربية والإسلامية كاشفاً لهوة شاسعة ومقارنة محبطة.. فنادى «بن نبى» بإيجاد علم جديد يبحث فى ذلك، سماه «علم اجتماع الشعوب التى لاتزال خارج إطار الحضارة المعاصرة.»

■يُرجع مالك بن نبى أساس تدهور المسلمين حضارياً بعد زوال دولة الموحدين إلى الفردية والأنانية اللتين صبغتا الروح الإسلامية.

يقول «بن نبى» فى كتابه «الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة»: «إن التخلف الذى حصل سببه روح الفردية وحلول نظرية الجزء، فقامت الدويلات واستعر القتال وحصل الانحطاط والسقوط.»

(1)

إن ما يراه مالك بن نبى هو أن هناك مشكلة داخلية فى العالم الإسلامى، بغض النظر عن المشكلات والضغوط والمؤامرات الخارجية، أى أنه حتى لو استبعدنا وجود وتوحش الاستعمار للدول العربية والإسلامية فإن العطب والخلل الداخلى هو كاف وحده بتأخر

المسلمين وتخلف بلادهم.

وقد وضع الفيلسوف الجزائرى «مالك بن نبى» فى ذلك نظريته الشهيرة» القابلية للاستعمار».. يقول فى كتابه «الصراع الفكرى»: «إن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامى نتيجة مرض أساسى عندنا، هو القابلية للاستعمار ..وهو نتيجة الصراع الفكرى الذى خطط له الاستعمار وأحسن إحكام الخطة.. لقد سلط الاستعمار الأضواء على المشكلات الهامشية، بينما ترك فى الظلام كل رؤية منهجية سليمة.. تفتح الطريق أمام حركة التاريخ.»

■وقتها كانت اليمن تستقل عن بريطانيا وكانت إندونيسيا تستقل عن هولندا.. ولكن مالك بن نبى كان يرى ذلك الاستقلال استقلالاً ضعيفاً.. ذلك أن هذه الدول لم تسيطر بعد على شؤونها وتحقق التقدم، وهو ما يجعل إمكانية عودة الاستعمار واردة من جديد «إن الاستقلال لا يعنى شيئاً فى ميدان التقدم طالما ظلت الأرض صالحة لإعادة الكرّة مرة أخرى.»

(2)

امتداداً لفكرته فى نقد الحفاوة بالهوامش لا بالجواهر يعيب «بن نبى» على المدرسة الاستعمارية إسهامها فى ذلك من خلال وسائلها التربوية للقادمين من العالم الإسلامى إلى الغرب «فالطالب يسافر إلى أوروبا وهدفه الوحيد اللغة أو الحرفة لا اكتشاف الثقافة.. لم تهتم المدرسة الاستعمارية بنشر عناصر الثقافة الأوروبية اهتماماً يعادل حرصها على توزيع نفاياتها التى تحيل المستعمر عبداً للاقتصاد الأوروبى. ويدلل «بن نبى» فى كتابه «وجهة العالم الإسلامى» يقول: «الطالب الذى يعيش فى باريس لا يرى المرأة التى تجمع العشب للأرانب.. وإنما يرى التى تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن فى المقاهى والندوات.. وهو لا يرى الصانع والفنان منكبين على عملهما ليحققا فكرة على صفحة المادة.»

والحل فى رأى «بن نبى» هو التغيير الاجتماعى والإصلاح الفكرى الذى يرفع من كفاءة الإنسان المتخلف، وحيث إن الطفل يمر فى حياته بعالم الأشياء والأشخاص والأفكار تباعاً، فإن المجتمعات المتخلفة تمر بالمراحل ذاتها، والعالم الإسلامى بقى بالنسبة للحضارة الغربية فى عالم الأشياء والأشخاص ..ولقد تعاون التخلف والاستعمار على وقف تطوره إلى عالم الأفكار.

(3)

يلخص مالك بن نبى فى كتابه «بين الرشاد والتيه» رؤيته للحل يقول: «يجب تصفية

الاستعمار فى العقول قبل كل شىء، فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة، فهى لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، ومجرد إعلان الاستقلال وتحرير دستور.»

■يعقب المفكر محمد الميلى على نظرية «بن نبى» فى القابلية للاستعمار، بأن فكر الفيلسوف الجزائرى كان مرشحاً لأن يؤدى دوراً معتبراً فى مرحلة ما بعد الاستقلال، لكن نظريته هذه لم تفهم كما يجب، فالاتجاه الذى كان سائداً منذ حروب الاحتلال هو تحميل كل المسؤولية للاستعمار. ولعل أحد القلائل الذين فهموا فكرة مالك بن نبى هو الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة الذى لا يحمّل كل المسؤولية للاستعمار. وقد عمل «بورقيبة» بسياسة المراحل.. أى التخلص من الاستعمار بالتدرج فى الوعى والمسؤولية.. وهى سياسة تتوافق مع فكر «بن نبى» فى القابلية للاستعمار. فالنظرية تسجل مسؤولية البلد المتخلف.. من أجل دفعه إلى اكتساب التقنيات التى مكّنت البلد الأجنبى من استعمارنا.

(4)

أتذكر اليوم الفيلسوف الجزائرى الكبير مالك بن نبى على أثر التحولات الجارية فى العالم العربى.. ثمة محاولة جماهيرية جسورة تحاول فيها شعوبنا أن تمضى إلى الجزء الثانى من الاستقلال.. كان الجزء الأول فى حركات التحرير الوطنى ضد الاستعمار الخارجى.. والآن يبدأ «عصر الاستقلال الثانى».. حركات التحرير الوطنى ضد الاستعمار الداخلى. فى «عصر الاستقلال الأول» كان الهدف خروج الاحتلال الأجنبى من البلاد، وفى «عصر الاستقلال الثانى» كان الهدف خروج الديكتاتورية العميلة من السلطة أو تصفية بقايا الاستعمار.. الذين يجمعهم بالاستعمار الأجنبى إطار واحد.. «لا حرية ولا كرامة ولا تقدم ولا عدالة».. ذلك الإطار الذى قاد فى الحالتين إلى تخلف العالم العربى والإسلامى.. مرة بأيدى الآخرين ومرة بأيدى الفاسدين.

■لقد تأملت كثيراً ما كتبه الفيلسوف الجزائرى مالك بن نبى الذى تألق مشروعه الفكرى فى الخمسينيات والستينيات.. وقد كتبت فصلاً كاملاً عنه فى كتابى «خريف الثورة.. صعود وهبوط العالم العربى».. وقد عدت إليه الآن لأننا نمضى إلى مرحلة الاستقلال الثانى.. وكنا قد فشلنا فى عصر الاستقلال الأول.. فلم تسفر ثوراتنا الوطنية ضد الاستعمار عن دولة متقدمة يمكنها أن تمنع الكرّة من جديد، بل إن الديكتاتورية العربية قد

قادت إلى عودة الاستعمار إلى منطقتنا من جديد.. أدى حزب البعث الثورى فى العراق إلى احتلال بغداد.. وتهتك الدولة.. والوجود الأمريكى البريطانى الإيرانى على حساب الدولة والشعب فى العراق.. خرج الإنجليز فى عصر الاستقلال الأول ليعودوا من جديد بصحبة الجيش الأمريكى وبعد مليون قتيل وخمسة ملايين لاجئ وشبه حرب منهبية بين المسلمين والمسلمين! وإن الثورة اليمنية التى قادت فى بلادها عصر الاستقلال الأول لا تريد أن تغادر الآن إلا وقد انتهت الدولة إلى دولتين أو ثلاث أو خمس دول يمنية!

(5)

إن حزب البعث السورى الذى ملأ العالم العربى ملايين الخطب حول الكرامة والاستقلال.. يجد نفسه الآن فى حرب مع الشعب بعد أن انقطع الرصاص عن إسرائيل اربعين عاماً!

وأما الفوضى الثورية التى خلقها معمر القذافى فى عام 1969 وخطبه التى لا تنقطع فى مواجهة الاستعمار والاستكبار.. فلن تترك ليبيا الآن إلا بعد عشرات الآلاف من جثث الشعب.. وبعد الغزو البرى لقوات الناتو.. وبعد أن تتأكد من تقسيم الدولة إلى دولتين أو ثلاثا!..

يؤدى القذافى اليوم المهمة الأعظم للاستعمار.. الوجود البرى وامتلاك النفط وبدء حرب استنزاف مصرية على الحدود مع ليبيا. يريد القذافى الآن أن تنهار ليبيا وألا تصعد مصر.. وأن يعود الزمن الكلاسيكى للاستعمار من جديد.

(6)

وفى مصر الآن بدايات جهد جديد لصالح الاستعمار.. هناك من يقومون نيابة عن إسرائيل والغرب بالتمهيد لحرب متقطعة بين المسلمين والمسيحيين.. وبين المسلمين والمسلمين. فى مصر الآن ينمو ملوك الطوائف من جديد.. افكار من خارج العصر وأهداف من خارج الوطن وآفاق ضد التاريخ.

■لا يحتاج الغرب أن يأتى إلينا الآن.. فبعض الجهلاء فينا ينفذ ما يريد بأفضل وأسرع مما يستطيع.. وإذا كان هدف الغرب «إرباك مصر» فإن هدف الجهلاء» إسقاط مصر».. لا نحتاج الآن إلى استعمار جديد، ذلك ان العملاء الجدد يضاعفون "القابلية للاستعمار".

عن الطغاة والغزاة..
لقاء مع الأمير الحسن

كانت هذه هى المرة الثانية التى ألتقى فيها الأمير الحسن بن طلال في العاصمة الأردنية عمان. التقيت الأمير للمرة الأولى في منزل السفير المصرى في الأردن عمرو أبوالعطا.. كان ذلك في عشاء أقامه سفيرنا على شرف كبير العلماء العرب الدكتور أحمد زويل.

لم تكن المعرفة الواسعة للأمير الحسن وما يحمل من ثقافة عربية إسلامية رفيعة تمثل لى أدنى مفاجأة.. ذلك أننى تابعت الكثير من مقالاته وأحاديثه.. كما أن أستاذى "السيد ياسين" و"حسن نافعة" ممن عملوا مع الأمير في منتدى الفكر العربى لطالما تحدثا عن مناقب الحسن وعن ثقافته الرصينة.

لكن ما كان يمثل مفاجأة لى.. تلك البساطة وخفة الظل اللتان يحظى بهما الأمير.. إنها بساطة نادرة في عامة الناس فكيف بها عند الأمير الهاشمى الذى تحتل عائلته جانباً كبيراً من تاريخ العرب المعاصر.

(2)

التقيت الأمير الحسن هذه المرة في منزله في حى القصور الملكية في عمان، تقابلنا وتحدثنا على مدى يومين.. ودارت النقاشات في حديقة القصر التى تتألق بهاءً.. بتخطيطها الدقيق وأشجارها النادرة، وقد عرفت من الأمير الحسن أن هذه الحديقة قد شهدت قبل وصولى بأسبوع واحد حفل زفاف ابنه الأمير راشد بن الحسن بن طلال.

كانت الحديقة مزدحمة قبل أسبوع بالعائلات المالكة العربية والأوروبية، قبل أن تزدحم هذه المرة بكاميرات برنامج «الطبعة الأولى» وبأصدقاء الأمير الذين حولوا الحديقة إلى

مسرح مفتوح للفكر والسياسة.

(3)

فى الطريق إلى قصر الأمير الحسن مررت بقبر الملك حسين، ويبعد قبر الملك حسين عن قصر الأمير الحسن مسافة دقيقتين.. ولكن للمسافة النفسية بين الحسن والحسين أقل من ذلك بكثير. ذلك أن الأمير مولع بالملك.. الأخ مبهور بأخيه.. ورغم أن الانتقادات التى تلاحق الملك حسين عديدة وثقيلة.. غير أن الأمير الحسن لا يسلم بشىء من ذلك.. إلى الحد الذى وجدته ينتصر للعائلة حين تشتبك مع التاريخ.

إن الأمير الحسن يحظى بنسب رفيع.. لكن النسب الرفيع ظل ملاحقاً سياسياً لسنوات عديدة.. ولا تزال صورة ملوك عائلته ليست بالجاذبية التى يتمناها الأمير.

فالأمير الحسن ابن ملك وشقيق ملك وعم ملك وحفيد ملك وسليل العائلة الأكثر قداسة في العالم الإسلامى.

لكن شقيقه الملك حسين ووالده الملك طلال وجده الملك عبدالله الأول وجده الملك فيصل الأول ووالد جده الشريف حسين بن على جميعهم نالوا الكثير من نقد السياسيين والمؤرخين.

قال لى الأمير حسن إنه يملك إيضاحات وافية وردوداً شافية على مجمل النقد السياسى للعائلة.

(4)

تحدثت مع الأمير الحسن بن طلال في قضايا عديدة.. لكن واحدة منها ظلت تدور في ذهنى حتى اللحظة.. قال لى الأمير: إن معضلة العالم العربى الكبرى تدور في ثلاث كلمات: الطغاة والغزاة والغلاة.. الطغيان الذى يحكم.. والغزو الذى قد ينهى الطغيان لكنه يبدأ الاحتلال.. والتطرف الذى يقضى على المناعة الوطنية والحضارية للأمة .المجتمع يحكمه الغلاة، والسلطة يحكمها الطغاة. وفى صراع المجتمع مع الطغاة والغزاة.. تكون الفرصة سانحة لأن يحكم الغلاة!

(5)

إن حكم الطغاة يدفع الناس للبحث عن اى مخرج والسعى إلى اى حليف.. يشعر الناس بأنهم إزاء احتلال داخلى.. وهو ما يتوجب معه إدارة معركة الحرية على أنها معركة

عسكرية، تجرى فيها الحسابات بمنطق نفعى تام.. عدو عدوى هو صديقى.. والتحالف مع الأجنبى في مواجهة الحكم الديكتاتورى الوطنى هو عمل وطنى لا حرج فيه.

كان المناضلون ضد صدام حسين يدفعون أمريكا دفعاً إلى التدخل العسكرى في العراق، وكان المناضلون ضد القذافى يدفعون الناتو دفعاً إلى التدخل العسكرى في ليبيا.

لقد كان مشهد الثورة الليبية 2011 يحمل تلك المفارقة بجلاء.. ذلك أن الطاغية معمر القذافى كان يقتل الشعب الليبى بلا توقف، وكان وقف القتل وهزيمة القذافى رهناً بتحالف الثوار مع الناتو.

كانت الوطنية تقتضى ألا يستعين الثوار بالغزاة ضد الطغاة، وكان بقاء الشعب ونجاح الثورة يقتضى تقديم البراجماتية السياسية على المثالية الوطنية!

(6)

كان السؤال الذى طرحته قبل سنوات في كتابى «خريف الثورة» ما الذى يعنيه الوطن إذا تم إلغاء المواطن؟ وكان السؤال يبحث فيما أجمله لى الأمير الحسن في محنة الاختيار بين الطغاة والغزاة والغلاة.

وأذكر أننى كنت موجوداً في غرفة الأخبار في قناة أبوظبى حين قصفت قوات التحالف الأمريكى- البريطانى بغداد في أول مساء للحرب الأمريكية على العراق. كانت بغداد تحترق، وكانت الصور الحية التى ينقلها مراسلو القناة تبدو أقرب إلى فنون الجرافيك والألعاب النارية أكثر منها إلى واقع مروع يلخص كلمة الحرب، في تلك الأثناء قهرنا دموعنا وأمسكنا بقلوبنا كالقابضين على الجمر، لأن بغداد تغادر تاريخها أمام عيوننا.

(7)

نظرت في وجوه زملائنا العراقيين باحثاً عما يقال في عزاء الحروب، وكانت المفاجأة أن أحداً من العراقيين لا ينتظر المواساة، بل إنهم كانوا يتابعون الحرب طيلة أيامها المريرة وهم ينتظرون الهزيمة بفارغ الصبر، وحين لم يخذلهم صدام حسين طويلاً، وأدى في ساحة القتال أداء يليق بما كان عليه في ساحة السياسة.. عاراً وراء عار، راح العراقيون يهنئون أنفسهم في كل مكان، وحدث في بعض مدن الخليج أن عراقيين خرجوا يوم التاسع من أبريل عام 2003- يوم سقوط بغداد- إلى الفنادق والنوادى الليلية يبحثون عن أمريكى أو بريطانى

ليتوجهوا إليه بالشكر!

وقد قال لى ايمن جاب الله، رئيس «قناة الجزيرة مباشر» وكان وقت الحرب رئيساً لتحرير قناة «العربية» وكبير مراسليها في بغداد، وكان ذلك أثناء وقائع الحرب: "لم يخطئ الأمريكيون حين قالوا إن العراقيين سيقابلوننا بالزهور، فالعراقيون يشعرون فعلاً بامتنان كبير للولايات المتحدة وقد وجدت العراقيين على وجه العموم مؤيدين لواشنطن."

وقد غلب شعورهم بالتخلص من صدام على شعورهم بوجود الاحتلال. وبالطبع فإن هناك أقلية ضد الولايات المتحدة، لكنها تظل أقلية إلى جوار التيار العام الذى يرى أن صدام حسين كان «جهنم» الحقيقية وأن الاحتلال ليس إلا "مستصغر الشرر".. كان حديث أيمن جاب الله معي أثناء الحرب وقد تغيرت ملاحظاته فيما بعد.

(8)

لقد دفع الاستبداد الناس لإعادة النظر في كل شيء، فما رآه المصريون عدواناً أمريكيا على العراق، رآه معظم العراقيين عوناً أمريكياً للعراق، وما رآه المتظاهرون شرقاً وغرباً سقوطاً لبغداد رآه العراقيون سقوطاً لصدام!

وما اعتبره العالم العربى في التاسع من أبريل 2003 يوماً للنكبة حيث تمت هزيمة العراق، رآه أول مجلس للحكم في العراق يوم «العيد الوطنى»، حيث عاد العراق إلى العراقيين بعد عقود من الاختطاف.

■وحين نقلت ذلك إلى الفيلسوف المصرى د.حسن حنفى.. عارضاً تلك الأفكار حول بؤس الاستبداد الذى جعل المواطن عدواً للدولة- فلما جاء أحد من الخارج يقاتل الدولة، وجد المواطن فيه سنداً ومعيناً.. وحتى لو كان القادم عدواً.. فإنها حرب الأعداء.. فليهلك كل الظالمين بالظالمين- قال لى د.حسن حنفى.. إن ذلك يخلط الأمور خلطاً كبيرا، ويذهب تماماً بقيمة الوطنية والوطن. مثل هذا الشعور أو السلوك.. اى التحالف مع «عدو خارجى» للقضاء على «عدو داخلى» هو خيانة واضحة لا جدال فيها.. ولا يجوز للخيانة أن تكون وجهة نظر!

(9)

قابلت الشريف على بن الحسين الذى كان يخطط ليكون ملكاً على العراق بعد رحيل نظام صدام، جادلت الشريف على بن الحسين فيما سمعته من الدكتور حسن حنفى..

واجهنى معترضاً: «لم يكن أمامنا شىء. لم يكن بإمكاننا أبداً إسقاط صدام من الداخل لقد فعلنا ذلك طويلاً وفشلنا، وكنا سنفشل لو بقينا، كان صدام سيورث السلطة لابنه.. ديكتاتور آخر.. باختصار.. لسنا خونة ولا عملاء، ولكننا حاولنا الثورة ضد الظلم وفشلنا، وجاء من يساعد قضيتنا ويعيد إلينا الوطن وينهى حياة المنفى والسجون لملايين العراقيين، هل نقول لهم: لا.. ابقوا مكانكم واتركونا نقاتل الديكتاتور حتى آخر عراقى عندنا!

■وهكذا اختلف السياسى والفيلسوف من رؤية بسقوط بغداد، إلى رؤية بسقوط صدام.. ومن رؤية بقدسية الوطن إلى رؤية بقدسية المواطن.. والواقع أن السؤال خطأ.. ومن محنة الأقدار أن تطرح أمة على نفسها هذا السؤال.

(10)

لقد تذكرت ذلك كله على أثر الثلاثية التى طرحها الأمير الحسن.. محنة الطغاة، ومحنة الغزاة، ومحنة الغلاة. ولا شك أن مستقبل أمتنا رهن بالمحن الثلاث.. انتصار أى منها هزيمة لمستقبلنا.. وهزيمتها جميعاً انتصار لوجودنا وانتصار لرسالتنا.. الحرية والوسطية والاستقلال.

الفصل الرابع

المؤرخون الجدد في مصر

المؤرخون الجُدد في مصر

قالت لي الفنانة فاتن حمامة كلاماً كثيراً وخطيراً حول مصر التي كانت ومصر التي أصبحت. تحدثت عن الوفد والنحاس وعن الثورة وعبدالناصر وعن زمن الانكسار وزمن الانتصار.

وفاجأتني السيدة فاتن بآراء صادمة وصادقة، وقد نشرتُ جانباً من ذلك اللقاء الطويل في ست عشرة صفحة ضمن دورية «أحوال مصرية» التي يصدرها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

وقد أعاد الأديب يوسف القعيد نشر أجزاء من ذلك الحوار في صحيفة «الحياة» اللندنية، أما الأستاذ إبراهيم عيسي فقد قال لي إنه أعاد نشره في سبع صحف صُودرت في المطابع.. قبل أن تصدر الدستور.

قبل ذلك الحين وأنا أفكر في تأسيس تيار فكري جديد.. الاسم: المؤرخون الجُدد، والهدف إعادة النظر، والغاية: الوطن ولا شيء غير الوطن، وهنا البداية.

قامت ثورة يوليو عام 1952 وانتهت عام 1954، أو أنها قامت عام 1952 وانتهت عام 1956.. أو أنها لا تزال قائمة حتي الآن. لقد عادت ثورة يوليو وعهد الرؤساء نجيب وعبدالناصر والسادات إلي الواجهة من جديد، وبعد أن كانت الإشادة بإنجازات الثورة أو الحفر في مخلفاتها حصراً في الفئات المثقفة، بات العوام من جملة من يعيدون النظر فيما مضي وفات.

لقد أصدرت المكتبات المصرية في الآونة الأخيرة كتباً تذكارية وأخري فكرية عن الملك فاروق والرئيس عبدالناصر والرئيس السادات، وقد سألت عن خريطة التوزيع لهذه الكتب، وفوجئت بأن كتب «الملك فاروق» يزيد توزيعها علي أضعاف كتب الرئيسين،

وأن كتب الرئيس السادات تتفوق علي كتب الرئيس عبدالناصر، وهو عكس التوقعات تماماً، إذ حظيت الثورة وقادتها باحترام كبير لعقود طويلة، وأهيل التراب علي الملك فاروق حتي لم يبق ظاهراً منه إلا أحاديث الغواني وحساء الحمام، كما لاقي الرئيس السادات هجوماً صحفياً واسعاً من قوي اليسار التي طالته في كل شيء.

الحاصل إذن اننا إزاء موجة واسعة لإعادة النظر، إعادة النظر في الثورة ذاتها، وفي كل رجالها، في المبادئ والأهداف، في الفكرة والحركة.. في كل الطريق الطويل الذي يعتقد انصار الثورة انه اعاد مصر إلي التاريخ، ويعتقد معارضوها أنه أخرج مصر من التاريخ.

ربما يكون مهماً في هذا المقام، أن نوجه الدعوة لعموم المؤرخين والمفكرين والصحفيين..إلي الراضين وإلي الساخطين.. إلي الذين شهدوا أو الذين سمعوا او الذين قرأوا، أن نبدا حركة فكرية شاملة عمادها إعادة النظر.

لقد فعلتها إسرائيل في موجة «المؤرخين الجُدد»، وهم جماعة من المعنيين بالتاريخ والسياسة في الحركة الصهيونية الذين اعادوا النظر في تاريخ الصهيونية وتاريخ إسرائيل، وقالوا كلاماً كبيراً وكثيراً.. احسب ان ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، وقد أشرت إلي ذلك تفصيلاً في كتابي «مابعد إسرائيل».

ليكن شان إسرائيل والحركة الصهيونية ما يكون، اما شاننا نحن فهو احوج ما يكون إلي المراجعة، إلي حركة «المؤرخين الجدد في مصر»، إلي طرح الأسئلة في كل شيء، دون رغبة في التخوين أو التشفي او الإحباط او التسلية، بل الغاية هي الإفادة من طريق طويل.. أزعم أنه كان يحمل من الخطا اكثر مما يحمل من الصواب.

لقد ساد مثلاً أن عهد ما قبل الثورة هو عهد الملك فاروق، وجري اختصار مصر كلها فيما قبل 1952 في ملذات الملك ومغامرات القصر، وهو تقييم قاصر، إذ انه لا يمثل إقلالاً من شان الملك وحطاً من قدر القصر، بقدر ما يمثل إقلالاً من شان الوطن وحطاً من شان مصر.

لقد كان ذلك الزمان يشهد دولة مصرية متميزة، نخبة رفيعة وشعباً عظيماً، أسماء شاهقة في كل مكان.. عاصمة تفوق باريس، وفناً وعلماً وأدباً وفكراً يمثل وضعية جيدة في سياق العالم. وإذا كان من تدمير لمجمل ذلك لأجل تدمير صورة الملك الفاسد، فإن التدمير في واقع الحال هو تدمير لجزء من التاريخ، تدمير للآباء والأجداد المباشرين، هو تمزيق جزء من سيرتنا الذاتية او تمزيق أوراق من عمرنا الإنساني والحضاري.

لم يكن ذلك عصر الملك فاروق بل كان عصر سعد زغلول والنحاس باشا أو عصر طه حسين وطلعت حرب أو هو عصر مصطفي مشرفة وام كلثوم، لكنه قطعاً لم يكن عصر فاروق.

لقد ساد ايضاً ان الثورة تعاظمت وتاكدت مبادئها بعد حرب السويس 1956، التي اسست لأسطورة عبدالناصر، ويعلم ابسط القراء أن ذلك كان بداية الأفول لا بداية الصعود، ففي 1958 دخلت مصر وحدة ضعيفة مع سوريا انتهت بفشل ذريع عام 1961، وفي 1962 دخلت مصر حرباً في اليمن كانت حرب استنزاف كبري للموارد والقيم في الجيش المصري، وفي 1967 كانت أحداث يوم القيامة، ولولا حرب 1973.. لمات هذا الشعب كمداً علي ما كان.

سيقول البعض: ولماذا نبش القبور الآن؟، وما الهدف من إعادة النظر في الثورة وما قبلها وما بعدها؟ ولماذا نترك العالم يتجه إلي للمستقبل علي هذا العجل ونتعثر نحن في ثوب الذكريات؟.. وظني أن الهدف من تدشين حركة «المؤرخين الجدد» لا يتوخي نبش القبور من اجل تمزيق ملابس الأحياء،

كما انه لا يستهدف شق صف الحركات السياسية «المشقوقة دون عناء».. وإنما الهدف، إحياء علم التاريخ وتعظيم الفائدة في علم السياسة، وتعليم الصغار أن الأشياء تتسع لأكثر من لونين وأكثر من رأيين.. وأن هذا الوطن يحتاج إلي من يدركون شخصيته ويفهمون حركته.. إلي من يقفون فوق الجغرافيا في ثبات وينظرون إلي التاريخ في هدوء.

الملك فاروق..
مصري من أسرة مصرية

يرى بعض الناس خطأ ان الملك فاروق وعائلته منذ محمد علي باشا إلي الملك احمد فؤاد الثاني هم حكام اجانب، والمنطق الساذج الذي يعتمد عليه هذا القول هو أن محمد علي باشا هو جندي الباني، ومن ثم فإن نسله من الألبان، أما أول حاكم مصري منذ عهد الفراعنة فهو جمال عبدالناصر.

لقد ادهشني ان اقرا ذلك في كتب عديدة، وأن يقول به مؤرخون ومفكرون وصحفيون وحزبيون، وأن يردده عموم القراء دون فحص أو تمحيص.

البداية

يقوم مفهوم الانتماء في العالم الحديث علي أساس «الجنسية»، أي بطاقة الهوية أو جواز السفر، فالترشيح للوظائف وتولي المناصب وأداء الخدمة العسكرية وسائر شؤون الحياة تقوم علي أساس الجنسية التي ينتمي إليها المواطن.

وفي القوانين الأوروبية والأمريكية يتم منح الجنسية للأشخاص لمجرد تواجدهم بضع سنوات علي أرض البلد، ويكفي للحصول علي الجنسية البريطانية ان يقيم اي فرد خمس سنوات، وبمجرد الحصول علي الجنسية يصبح الفرد مواطنا تاما.

وفي حالة محمد علي باشا أحد أعظم الحكام المصريين من ذوي الأصول الأجنبية، فقد كان الرجل مصريا بموجب قوانين الجنسية في العالم الحديث، فلقد مكث في مصر اكثر من خمس سنوات قبل أن يصل إلي السلطة، أي أنه اقام ما يكفي لمنحه الجنسية المصرية قبل ان يصبح حاكما للبلاد، وبنهاية حكمه يكون محمد علي باشا قد أقام في مصر نصف قرن متصل غير منقوص، اي ليس مجرد شخص حصل علي جواز سفر جديد، بل هو مواطن

مصري قضي في الحياة العامة في وطنه الجديد ما يزيد علي الخمسين عاما.

وإذا كان ذلك هو شان محمد علي باشا، فإنه لاشك علي الإطلاق في كل حكام مصر من نسل محمد علي، فابنه إبراهيم باشا أعظم القادة للمصريين، هو مصري لأبوين مصريين، ناهيك عن الحكام اللاحقين، عباس حلمي الأول ومحمد سعيد باشا والخديو إسماعيل وعباس حلمي الثاني والسلطان حسين كامل والسلطان احمد فؤاد والملك فاروق الأول والملك احمد فؤاد الثاني.. كلهم مصريون لآباء وأجداد من المصريين.

المفاجأة

لماذا فقط في مصر يجري اعتبار الأسرة المالكة أسرة اجنبية؟ هل من اجل إكساب الرئيس جمال عبدالناصر طابع الأسطورة؟ هل من قبيل التباهي بأن يكون عبدالناصر هو أول حاكم مصري منذ الفراعنة؟ أي تباه؟ وتباه لمن؟ لمصر أم لعبدالناصر؟ هذا شيء يفاخر به عبدالناصر ولا يفاخر به المصريون، لا يشرفنا أبدا أن يكون تاريخنا فقيرا كسيحا قبيحا إلي هذا الحد.

ثم إنه لو جري اعتبار الملك فاروق وآبائه واجداده من غير المصريين فإنه يمكن اعتبار الرئيس عبدالناصر نفسه غير مصري، وبالمنطق ذاته، فقد ولد الرئيس عبدالناصر في بني مرّ لعائلة يقول أفرادها إنهم ينتمون إلي القبائل العربية القادمة من الحجاز.

إن مثل هذا السفه في التحليل لا يقول به إلا جاهل، لأنه يحرم مصر من تاريخها، سيجعل محمد علي وإبراهيم وإسماعيل وعباس من الأتراك، وجمال عبدالناصر من الحجاز.

هل ادلكم علي ما هو أكثر تأكيدا لما أقول من أن فاروق وعائلته من المصريين، إن نابليون بونابرت وهو أعظم ما أنجبت فرنسا - قائدا وزعيما هو دفعة محمد علي باشا، كلاهما ولد في عام 1769، ولد محمد علي في مقدونيا، وولد نابليون في جزيرة كورسيكا، وجزيرة كورسيكا لم تكن فرنسية في ذلك الوقت، بل ضمتها فرنسا إلي أراضيها قبيل مولد نابليون بونابرت بأشهر قليلة، ولو تقدم مولد نابليون عاما واحدا لما حصل نابليون علي الجنسية الفرنسية، ولكان من مواليد وطن آخر غير فرنسا، وحتي اليوم فإن الحركة الانفصالية في كورسيكا لا تعتبر كورسيكا جزءاً من فرنسا.

وحين كان الرئيس جاك شيراك يحضر مباراة لكرة القدم قام مشجعو الفريق

الكورسيكي بإهانة النشيد الفرنسي بالتصفير والتوبيخ، مما أثار غضب شيراك الذي اعتبر ذلك عملا ضد الوطن.. إن نسبة نابليون إلي فرنسا كنسبة محمد علي إلي مصر، هذا من مواليد جزيرة لم تكن فرنسية، وذاك من مواليد مدينة لم تكن مصرية، وكلا الرجلين قاد وطنه الجديد إلي المجد.

هل أدلكم علي ما هو أشد وأوضح: إن العائلة المالكة السويدية من أصول فرنسية، حيث تنحدر العائلة من ضابط عينه نابليون حاكما علي السويد، وبذا فإن العائلة المالكة المصرية تماثل تماما العائلة المالكة السويدية، ومع هذا فإن أحدا لا يقول للملك كارل جوستاف وهو يمنح جوائز نوبل إنه من أصل فرنسي!

أيضا وأيضا.. فإن العائلة المالكة البلجيكية من أصل هولندي، والعائلة المالكة في موناكو من أصل إيطالي، والعائلة المالكة النرويجية من أصل دنماركي، وللملكة صوفيا الإسبانية من أصل يوناني، وأما العائلة المالكة البريطانية فهي كلها من أصل ألماني قريب، والملك فاروق أكثر امتدادا وتجذرا في مصر من الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا.

فعائلة الملكة إليزابيث هي عائلة «ساكس - كوبرغ - غوتا» الألمانية، وهي تنتسب إلي الأمير الألماني «البرت» زوج الملكة فيكتوريا، وفي الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تحارب ألمانيا، وقد غيرت العائلة المالكة البريطانية اسمها أثناء الحرب من الاسم الألماني إلي اسم بريطاني هو «وند سور»، أما ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز فهو لأم من أصل ألماني هي الملكة إليزابيث ولأب يوناني هو الأمير فيليب.

.... الصافي من هذا كله.. أن الملك فاروق هو حاكم مصري من عائلة مصرية، وأن النيل من ذلك هو نيل من مصر لا من الملك، وتكريس أسطورة كون الرئيس عبدالناصر هو أول حاكم مصري علي نحو ماكتب «انتوني ناتنج» هو أمر يعظم من شأن ناصر ويحط من شأن الوطن.. إن أول ما نعتقده نحن الداعون إلي تأسيس حركة المؤرخين الجدد هو أن مصر أولا ومصر أخيرا، ومصر ما بينهما.

عيد الاستقلال

* زرت عدة بلدان أوروبية في مناسبات مختلفة.. وكان من حظي أني حضرت احتفال عيد الاستقلال في هذه البلدان، حيث يبتهج الناس جميعاً بيوم وطني، لا اختلاف فيه ولا خلاف عليه.

فكرت في بلادنا.. لماذا لا تحتفل مصر بعيد الاستقلال؟ وجدت السؤال غريباً تماماً.. .عيد الاستقلال في مصر!.. إنني لم أسمع في حياتي تلك العبارة الرائعة. لقد سمعت عن عيد الثورة وعيد الجلاء وأعياد النصر.. أما عيد الاستقلال فلا..

* وفي سفريات أخري كان من حظي أن حضرت احتفالات السفارات المصرية بعيد ثورة يوليو، إنه العيد الرسمي للبلاد، وهو الاحتفال الرسمي الرئيسي الذي تقيم فيه سفاراتنا أكبر احتفالاتها، ويلقي فيه رئيس الجمهورية أهم خطبه.

وقد فكرت طويلاً في يوم 23 يوليو، وأنا واحد ممن يحترمون ويؤيدون الثورة المجيدة.. هل يصلح يوم 23 يوليو ليكون اليوم الوطني لمصر؟.. تقديري: لا، إنه في نهاية المطاف حدث سياسي داخلي يختص بتغيير نظام الحكم، هو يوم جاء نتيجة صراع بين قوي سياسية عديدة، كانت الغلبة فيه للرئيسين ناصر ونجيب ومن معهما.

لدي شكوك واسعة في صلاحية هذا اليوم لهذا الشأن العظيم، وتقديري أن اليوم الوطني لمصر ينبغي أن يكون يوم 28 فبراير من كل عام.. إنه يوم الاستقلال في مصر.

إن تصريح 28 فبراير 1922 هو الذي أنهي الحماية البريطانية علي مصر، وأعلن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وقد جاءت ثورة يوليو 1952 علي بلد استقل قبل ثلاثين عاماً.. وكانت فيه حكوماته وسفاراته وأحزابه ونوابه.. وفيه العلم والنشيد.

* سيقول البعض.. إن تصريح 28 فبراير هو تصريح غير مشرف، بل هو منحة من

بريطانيا، لا يليق الاحتفال به.. وهذا رأي غير صائب، ذلك أنه تصريح يشرف كل المصريين، وهو ليس منحة من المحتل، بل هو نتاج ثورة عظيمة هي ثورة 1919، ونتاج جهد نخبة وطنية رفيعة، يتصدرها زعيم عظيم هو سعد زغلول.

لقد جاء تصريح فبراير بعد ان خاض الشعب معركة الاستقلال، وذهب ممثلوه إلي مؤتمر الصلح، ولما خذلهم الرئيس ويلسون ومعه المؤتمر، عادوا للكفاح حتي تكلل بالنجاح.

* سيقول آخرون، إنها سيادة ناقصة، حيث بقيت لبريطانيا أسباب وأشكال عديدة للبقاء، وهذا قول صحيح.. ولكن نقصان السيادة لا يلغي السيادة. إن اوروبا تمتلئ الآن بالقواعد العسكرية الأمريكية، وفي اليابان يكاد الجيش الأمريكي أن يكون محتلاً.. وفي طوكيو وحدها ست قواعد عسكرية امريكية.. لكن احداً لم يقل إن هذه البلدان محتلة.

ثم إن الشعب المصري العظيم لكمل فيما بعد مسيرة التحرير حتي جلاء آخر جندي بريطاني، ثم إسرائيلي.

** الصافي إذن.. أن يوم 28 فبراير من كل عام هو يوم الاستقلال في مصر، فهو نتاج ثورة عظيمة، وهو أساس دستور عظيم، وحقبة زاهية من تاريخ الوطن.

إن يوم 28 فبراير هو يوم في مواجهة الاحتلال، اما يوم 23 يوليو فهو يوم في مواجهة السلطة.. ومواجهة الاحتلال أولي بالاحتفال.

بلاك ووتر الفرعونية

■ يقول السفهاء من الناس إن مصر ظلت دولة محتلة ألفى عام، وإن الشعب المصرى لم يواجه أشكال الاستعمار المتعاقبة.. وإن ما حدث أن كل استعمار جديد كان يطرد الاستعمار القديم دون أن يتدخل المصريون وكان الأمر لا يعنيهم. ويحلو للناصريين المتشددين القول بأن الرئيس جمال عبدالناصر هو أول حاكم مصرى بعد ألفى عام.. وهى الخرافة التى روجها عالميا الكاتب البريطانى «أنتونى ناتنج» الذى افتتح بهذه العبارة البغيضة كتابه الشهير «ناصر».

■ لا يعلم الكثيرون أن الحقبة الأخيرة من العصر الفرعونى قد شهدت ما يمكن تسميته "حل الجيش المصرى"، واصبحت مصر بلا جيش منذ ذلك العهد. كان أساس ...حل ذلك الغرور والاستعلاء الذى أصاب قادة مصر فى تلك الحقبة.. حيث رأى فرعون مصر أن الشعب المصرى أعظم وأقيم من أن يكون محارباً، وأن مهمة القتال ينبغى أن يعهد بها المصريون إلى الشعوب الأدنى، أما المصريون سادة العالم فلهم أعمال الفكر والفلسفة والدين وهم إما رجال سياسة أو رجال دين أو رجال حضارة يبنون المعابد والأهرام.

لقد تعاملت مصر وقتها كما تتعامل الولايات المتحدة الآن.. حيث اعتمد المصريون على المرتزقة للدفاع عنهم، حيث إن دماء المصريين مقدسة، أما دماء المرتزقة فلا ثمن لها.. فليكن الجيش والدفاع إذن من نصيب غير المصريين الذين رأيناهم وقتها أناسا لا قيمة لهم.

والفارق الرئيسى بين فراعنة مصر وحكام واشنطن.. أن الجيش الأمريكى يعتمد على المرتزقة بدرجة هامشية وفى مهمات محددة وتحت مسميات لائقة، لكن بناء الجيش الأمريكى بضباط وجنود أمريكيين هو الأصل، لكن فراعنة مصر المتأخرين قاموا بحل الجيش المصرى تماماً، وأصبح كل الجيش من الأجانب المرتزقة. فى الولايات المتحدة تعمل

شركة بلاك ووتر في تجنيد المرتزقة للدفاع عن الولايات المتحدة.. وفى مصر الفرعونية الأخيرة كانت شركة بلاك ووتر الفرعونية هى كل الجيش.

* * *

يذهب البعض إلى أن أساس الاستعانة بالمرتزقة لم يكن الاستعلاء وإنما الحاجة إليهم فى تأمين حدودنا الواسعة والمفتوحة أمام الأعداء. ويذهب البعض أيضاً إلى أن القيادة والإدارة العسكرية والمواقع الرئيسية تم إسنادها إلى المرتزقة الأجانب لكن المصريين بقوا فى العمل بالجيش.

وأيا ما كان الأمر.. سواء كان الاحتياج الوطني أو السمو المصري هو ما يقف وراء ذلك.. وسواء بقى بعض المصريين فى الجيش أو تقلص وجودهم إلى الحد الذى يعادل اللاوجود. فإن النتيجة الحاصلة.. أن بلادنا قد وهنت وفقدت السيطرة على جيشها قادة وجنداً.

لقد لعب المرتزقة لاحقاً دور "الطابور الخامس" العميل الذى "باع الوطن" فى كل التحديات. كان المرتزقة العاملون فى خدمتنا هم العنصر الحاسم فى الغزو الفارسي لمصر فى عهد قمبيز، كما كانوا عاملاً رئيسياً فى دعم حملة الإسكندر على بلادنا.

* * *

لقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دولة بلا جيش، لذا كان طبيعياً أن يكون صراع الرومان والفرس والعرب على مصر صراعاً ثنائياً دون أن يكون المصريون طرفاً ثالثاً.. ذلك أن جيشين أجنبيين يتصارعان في بلد بلا جيش.

* * *

إن الذين يسخرون من مصر في هذه الأثناء ويهينون الدولة والشعب ويحتقرون تاريخنا في هذه الحقبة.. لم يكلفوا أنفسهم لحظة واحدة كى يفهموا.. لماذا حدث هذا؟

بل راح هؤلاء يفسرون ذلك بصفات ألصقوها بالمصريين.. فأصبح المصريون في نظرهم جبناء وراضين وراضخين.. لا همة ولا كرامة ولا ثورة..!

عن الشعب الذى لا يثور

يقول السفهاء من الناس إن الشعب المصرى لا رجاء منه ولا رجاء فيه، وإنه شعب جبان ومستسلم ولا يمكنه أن ينهض في مواجهة الظلم. ويعاير هؤلاء السفهاء شعبنا العظيم بأن الدول الأخرى شهدت العديد من ثورات شعوبها، ومن ثم لا مقارنة بين شعوب جسورة جريئة تقوم بالثورة إذا واجهت الظلم، وبين شعب خامل راكد بارد لا تستيقظ مبادئه أبداً. لقد تأملت شعوب العالم لأنظر في هذه الأقوال الجاهلة.. فلم أجد شيئاً من ذلك، تأملت الشعب السويدى وشعوب إسكندنافيا في الدنمارك وفنلندا.. ثم تأملت إيطاليا وألمانيا وفرنسا.. ثم وجهت نظرى إلى إسبانيا واليونان والبلقان.. ثم إلى خريطة أوروبا وأمريكا وآسيا.

ثمة قراءة ساذجة لهذه الخريطة الواسعة.. أو أنها ،لا قراءة.. واعية حتى يتولد لدينا وحدنا الشعور بالعار على مدار الوقت.

إن المرء ليتساءل: ما هو كفاح الشعب السويدى ضد الاستبداد وتزوير الانتخابات؟ ماذا فعل الشعب الألمانى القوى في مواجهة هتلر والذين معه..؟ ما هو الصوت الذى تجرأ على هتلر في ألمانيا.. ما هو الحزب المتحضر المتحرر الجرىء المغوار الذى قال لأدولف هتلر :كفى؟!

ما هى عظمة الشعب الإيطالى في مواجهة الحكم الفاشى؟.. وما هى المظاهرات التى خاضها الإيطاليون بالملايين ضد هذه السلطة الظالمة؟.. وما هو النضال العظيم الذى خاضه الشعب الأسبانى ضد فرانكو.. ومن هم الكتاب وما هى الصحف والأحزاب الذين داسوا على ديكتاتورية فرانكو؟

إلى اليمين قليلاً.. ماذا فعلت شعوب أوروبا الشرقية في مواجهة السوفيت وحلفائهم الشيوعيين الذين حولوا شرق أوروبا إلى معسكرات اعتقال واسعة؟ سيقول البعض: لقد انتفضت وتحررت ورأينا صور الشعوب وهى تحمل أعلام الحرية.. وهو

قول بسيط لا يدرك ان كل ذلك كان نتاج رجلين غيرا التاريخ.. ميخائيل جورباتشوف ورونالد ريجان.. ولولا هذا من هنا وهذا من هناك.. لما سقط الاتحاد السوفيتي.. ولو لم يكن هذا السقوط السوفيتي.. لما تحررت شعوب أوروبا الشرقية.. ولبقيت على حالتها.. مناضلون أفراد مغلوبون على امرهم، ومغامرون ابطال لا حيلة لهم ونوبات وطنية تسحقها الدبابات السوفيتية.

إلى اليمين اكثر.. إلى الاتحاد السوفيتي نفسه.. ما هو نضال الشعب السوفيتي.. أو بالأحرى ما هو نضال الشعوب السوفيتية ضد الحكم الشيوعي الديكتاتوري؟ ما هي بطولات الروس وآسيا الوسطى أمام جرائم ستالين الذى قتل من شعبه أضعاف أضعاف كل شهداء العالم من اجل الاستقلال؟

الم يسأل احدهم الزعيم خروشوف وهو يهاجم ستالين: اين كنت وقتها يا رفيق؟ ثم رد خروشوف: من الذى تكلم الآن؟ لم يرد احد.. قال خروشوف: وأين انت الآن يا رفيق؟!

■ثم يقول السفهاء من الناس إن الشعب المصرى الذى يتسم بالجبن والانبطاح ونفاق الحاكم والاكتفاء بلقمة العيش هوا....

في مديح الشعب المصري

ذهبت في صحبة الكاتب الكبير محمود عوض، تلبية لدعوة كريمة من الدكتور أحمد الغندور، العميد الأسبق لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. كانت الدعوة علي عشاء وحوار، وكانت الحصيلة فاخرة.. صالونا ومائدة.

كان أول جلوسٍ لي متوسطًا الأخوين أمين، المفكر الكبير حسين أحمد أمين، وشقيقه المفكر الكبير جلال أمين، ثم جاء جلوسي الثاني إلي جوار د. حازم الببلاوي، ود. كمال أبوالمجد.

وفي كل مرات جلوسي، كنت مواجهًا لصورة رائعة للأديب الكبير يوسف السباعي، والد السيدة نفيسة السباعي، حرم الدكتور أحمد الغندور.

كان مستوي الصحبة أعلي كثيرًا من مستوي الأوضاع في مصر، وقد تذكرت علي الفور قول الشاعر الكبير حافظ إبراهيم: «عجيب أمر المصريين تكمن القوة في أفرادهم، ويكمن الضعف في مجموعهم»!

حين دعانا الدكتور الغندور لبدء تناول العشاء، كان الدكتور حازم الببلاوي قد بادر بسؤالنا الأستاذ محمود عوض وأنا، عمّا يجري في مصر.. وقد سعدت لانشغال الأستاذ محمود عوض بالإجابة، لأذهب وحيدًا إلي المائدة، ذلك أنني تذكرت عشاءً قديمًا في فندق شيراتون أبوظبي، وكان العشاء بدعوة من السفارة المصرية هناك.. وكان عامرًا بالطيبات من الرزق والثمرات.. وكنت جائعًا علي نحو استثنائي مشين، وبينما أنا أدلف إلي مواضع الطعام، كان الدكتور حازم الببلاوي قد بادر بالسؤال نفسه.. وقد كان حديثه ممتعًا وساحرًا، إلي الحد الذي شغلني عن الطعام.. حتي رفعت الموائد.. ولم يبق لنا إلا نصف طبقٍ من البصارة تم اقتسامه بيننا!

تولي الدكتور جلال أمين سُلطة الحوار دون شورى، وكان أول قراراته ،أعطي الكلمة لأخي حسين احمد أمين.. وعندما تطور الحوار.. قال، ،لنعط الكلمة لإحدي السيدات.. تفضلي..، ولما سأل أحدنا عن منطقه في إدارة الحوار قال، ،إنها زوجة أخي،!

لقد امتلأ لقاء الدكتور الغندور بالكثير من الأفكار والرؤي.. لكن ما استوقفني أكثر.. هو تحليل الدكتور حازم الببلاوي للأوضاع في مصر.. قال: إن في مصر مجتمعًا راقيا، وهناك رقيا حقيقيا في مستوي الشعب المصري، وهذا الرقي ناتج عن سبعة آلاف سنة.

وقال د. الببلاوي: إن البعض يعتبر سكون المصريين استكانة وضعفًا وانبطاحًا، ولكنه ليس كذلك علي الإطلاق.. بل هو رقي حقيقي من شعب يدرك قيمة الأمن وقيمة الاستقرار.. ومعني الدولة.. لكن سوء الحظ يجيء من أناس ليسوا جديرين بحكمه.. لدينا إذن سلطة أقل من الشعب، وليست سلطة في مستوي الشعب.

وأضاف: إن المجتمع المصري - نتيجة سوء الأداء وليس تدهور الشخصية - يعيش في القرن السابع عشر.. الجامعات والهيئات والمؤسسات.. مجمل مكونات المجتمع يعود للقرن الـ 17، أما السلطة السياسية فإنها تعتمد في ممارساتها وبقائها علي منجزات التكنولوجيا في القرن الحادي والعشرين.. لدينا مؤسسات أمنية بقدرات القرن الحادي والعشرين، ومؤسسات مدنية بقدرات القرن السابع عشر!.

الجزء الثاني من الحضارة المصرية

■يقول السفهاء من الناس إن الفتح العربى لمصر دون مقاومة المصريين كان دلالة جُبن وانبطاح.. وتضحية بحضارة فرعونية مجيدة تحت أقدام الخيول العربية.

قلنا في السابق إنه قد تم حلّ الجيش المصرى في نهايات العصر الفرعونى.. ونجحت العنصرية المصرية في أن تحرم حضارتنا من جيش يدافع تحت مقولة عنصرية.. ،أن الحياة والمجد للمصريين وأن الدفاع والموت للخدم من الشعوب الأخرى، ونجحت العنصرية المصرية في حل الجيش والتفرغ للدين والفلسفة!

■لم يـر المصريون في الفتح العربى لمصر استعماراً للبلاد، ذلك أنه لم يكن دخولاً بالسلاح.. وإنما كان دخولاً برسالة تسبق السلاح.. ثم إن السلاح جاء موجهاً للرومان وإن الرسالة جاءت موجهة إلى المصريين.

لقد بدا الفتح العربى الإسلامي لمصر بمثابة إهداء حضارى عظيم لبلد يعرف قيمة الكلمة ومقام الحكمة، قام العرب بتخليص المصريين من الرومان، فكان إهداء السلاح الذى جاء صديقاً لا عدواً.. ثم قام العرب بإبلاغ المصريين رسالة سمحة عذبة.. تضىء طرقات الدنيا وتنير طريق الآخرة.. وأدرك المصريون أنهم إزاء بداية جديدة.. بداية الجزء الثانى من الحضارة المصرية.. لم يكن للجزء الأول في الحضارة المصرية مثيل.. ولا منافس.. كانت كل حضارات العالم أقل من حضارة المصريين.. وكان كل تاريخ العالم أقل من تاريخ المصريين.. وكانت كل جغرافيا العالم أقل من جغرافيا المصريين.

لقد انتهى ذلك الجزء المجيد المتفرد.. وأصبح على المصريين في الجزء الثانى من حضارتهم أن يقبلوا وجود حضارات أخرى منافسة أو غالبة.. وأن يشاركهم في وظيفتهم الحضارية الجديدة شركاء الدين الجديد.. ذلك أن دين المصريين انتقل من حدود المعابد إلي

رحاب السماوات. إذن ما معنى الثورة والمقاومة.. لم يجد المصريون في العرب المسلمين غزاة ولا محتلين وإنما طليعة تجديد حضارى.. أو أداة تنبيه لمعالم عصر جديد.

مثل دخول الإسلام إلى مصر عودة الروح لحضارة منهكة.. ومثل المسلمون القادمون حلفاء حضاريين بمقولات جديدة.

لم يكن سكون المصريين إزاء المجددين العرب سكون الجبان والخائف والمستسلم الذى لا حيلة له.. بل سكون من يستعد لقيادة الحضارة الإسلامية الجديدة وقيادة القادمين أنفسهم في المعارك العالمية الكبرى التى خاضتها الحضارة العربية الإسلامية في حطين وعين جالوت بقيادة مصر.

لم تكن الدولة الطولونية ولا الاخشيدية ولا الأيوبية ولا عصر المماليك.. نموذجاً للحكم الأجنبى لمصر.. كان حكام تلك الأسر ذوى أصول غير مصرية.. لكن باتوا مصريين تماماً.. واستوعبتهم مصر استيعاب دولة كبرى تعطى جنسيتها لمن يضيف أو يفيد دون وجل أو خوف.. فأصبحت الدولة الطولونية المصرية والدولة الأخشيدية المصرية مراحل في الجزء الثانى من الحضارة المصرية.

وإذا كان البعض مندهشاً من تلك الرؤية وميالاً للانسحاق أمام المقولة الوضيعة إن مصر جرى حكمها ألفى عام بلا مصريين.. فما على هذا البعض إلا أن يبحث في جنسية ملكة بريطانيا الحالية، أو ملوك السويد والدنمارك وإسبانيا الحاليين.. لقد خاضت بريطانيا الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا.. وكانت ملكة بريطانيا ألمانية من أب ألمانى وكان زعيم ألمانيا نمساوياً من أب نمساوى.

عصر الاستقلال (1)

إنها المرة الوحيدة التى تعاملت فيها مع كتاب بهذا المستوى غير المتحضر.. كنت في مكتبة عامة في مدينة خليجية، ووقعت عيناى على كتاب «ناصر» لمؤلفه الشهير أنتونى ناتنج، كان المؤلف وزيراً بريطانياً وهو كاتب سياسى مرموق.. وكتابه هذا هو اشهر كتاب في العالم عن الرئيس جمال عبدالناصر. إن اول سطر في الكتاب أصابنى بالغثيان.. «جمال عبدالناصر هو أول حاكم مصرى بعد ألفى سنة من الاستعمار».. قلت في نفسى.. يا إلهى.. كل هذا الهوان أصابَنا. هل ظلّت مصر مستعمرة عشرين قرناً متصلة حتى جاء الرئيس عبدالناصر.. وإذا كان الأمر كذلك.. فنحن الآن إذن في مرحلة استثنائية لا تمثل مصر. لدينا وقت قصير للغاية في تجربة الاستقلال امام مساحة عملاقة من زمن الاحتلال.

لقد شعرت بانقباض شديد.. أهذا أنا؟ اهذه بلادى؟ اهذا وطنى؟ اهذا تاريخى وأصلى وفصلى؟

***

قطع انقباضى وحزنى صديق لبنانى طلب أن يرى الكتاب بعد أن انتهى من تصفحه.. وما إن استدار الصديق حتى مزقت تلك الصفحة.. والصفحة التى تليها.. وجعلتُ الكتاب يبدأ من صفحته الخامسة.

لقد شعرت بالعار والخجل ان أقدم لصديق غير مصرى.. تاريخى المصرى غير المشرف. إن ما وجدته في كتاب «ناتنج» وجدته في كتب ومقالات عديدة تروج لتلك الخرافة.. إن مصر هى أطول المستعمرات عمراً، وإن تاريخ الاستقلال في بلادنا استثناء.. وإنه لن يصلح مصر إلا حكم الأجانب الذين وحدهم يملكون وضع «السيستم» والإدارة الرشيدة للبلاد.

لو اننى اجريت بحثاً عن هؤلاء الذين قالوا إن تاريخنا كله استعمار وإن استقلالنا محض استثناء.. وإن شعبنا لم ينهض إلا مع حاكم قادم من ارض اخرى ووطن آخر ولسان آخر، لاحتجت إلى مجلدات تضم هذه «القذارة النظرية».

* * *

لقد استمتعت بمقال بديع للدكتور طه عبدالعليم، نشرته صحيفة «الأهرام» حول «خرافة نظرية ان مصر اطول المستعمرات عمراً».

اعتمد الكاتب على كتاب الدكتور جمال حمدان «شخصية مصر» وكتاب الدكتور حسين فوزى «سندباد مصرى».. وهما كتابان رائدان لمؤلفين عظيمين.

يذهب الدكتور حسين فوزى إلى ان مصر اطول الأمم تاريخاً، وهى ايضاً الأطول استقلالاً.. ومن بين 5 آلاف سنة عمر الدولة في مصر عاشت مصر دولة مستقلة او إمبراطورية مصرية 3500 سنة، اى ان مصر عاشت 70٪ من تاريخها دولة مستقلة، وانها في تاريخها الثرى العظيم عاشت أطواراً من الحضارات.. من حضارة فرعونية خالصة.. إلى حضارة مصرية يونانية إلى حضارة مصرية رومانية الى حضارة مصرية إسلامية، ويصل الدكتور جمال حمدان بعمر الاستقلال في مصر إلى 4 آلاف سنة كاملة لم تخضع فيها مصر لأى من الغزاة الأجانب.

ويقول جمال حمدان: لا توجد دولة لم تعرف الاستعمار، وهناك دول عرفت الاستعمار طوال تاريخها، وبلد مثل بريطانيا رغم انه «بلد متطوّح» وليس مركز العالم مثل مصر.. بريطانيا خضعت للغزو الأجنبى كل تاريخها حتى العصور الحديثة.. تم استعمار بريطانيا بتتابع وبلا انقطاع.. وكان بعض ملوكها المستوردين لا يعرفون الإنجليزية!

ويزيد الدكتور جمال حمدان توضيحاً وتعظيماً.. أن بعض الذين احتلونا سبق لنا احتلالهم.. وان الثورات المصرية اندلعت وغطّت جميع عصور الاحتلال.. وان مصر انفردت بزعامة المنطقة لأطول مدى ممكن.. نصف العصور الوسطى ومعظم العصور القديمة.

عصر الاستقلال (2)

عاشت مصر ثلاثة أرباع تاريخها دولة مستقلة، وهى النسبة الأعلى في تاريخ العالم، وينقل د. طه عبدالعليم، في مقاله بالأهرام، عن د. جمال حمدان ود. حسين فوزى خلاصة بحثهما بأن مصر قد عاشت أكثر من سبعين بالمائة من تاريخها دولة مستقلة.. ثم ينقل الكاتب عن المؤرخ «فيرجريف» دهشته في كتابه الشهير «موجز تاريخ افريقيا»: «في تاريخ كل الدول في العالم.. ما من دولة واحدة استمرت نصف الوقت وهى متحررة من الغزو»!

وقد جاءنى من الدكتور جلال الشايب — الأستاذ في كلية الفنون الجميلة- تعقيبًا إضافيًا يمضى في الطريق الذى ذهبنا فيه مع الدكتور طه عبد العليم في نقد خرافة أن مصر اطول المستعمرات عمراً.

يذهب د. جلال الشايب إلى ان مصر قد عاشت أكثر من تاريخها الإسلامى دولة مستقلة ويوجز رؤيته في التالى:

■ يبدأ تاريخ مصر الإسلامية عندما فتح عمرو بن العاص مصر في عام 640م.

أصبحت مصر ولاية تابعة لمركز الخلافة في عصر الخلفاء الراشدين «640 ـ 660» م، وولاية تابعة لمركز الخلافة في دمشق في عصر الدولة الأموية «660 ـ 750» م، وولاية تابعة لمركز الخلافة في بغداد في عصر الدولة العباسية «750 ـ 868» م.

■ إلا ان مصر استطاعت الاستقلال بشكل نسبى في بعض الفترات مثل العصر الطولونى «868 ـ 905» م والعصر الإخشيدى «935 ـ 969» م، حتى أصبحت مصر دولة مستقلة تماماً، بل إمبراطورية إقليمية مهمة تبسط سلطانها على بلاد الشام والحجاز واليمن في العصر الفاطمى «969 ـ 1171» م، وصارت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية لا تقل شهرة ومكانة في العالم الإسلامى عن مدينتى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، أو قرطبة، عاصمة

الخلافة الأموية في الأندلس.

■ وفي العصر الأيوبي ،1171 ـ 1250، نجح صلاح الدين الأيوبي في ضم دمشق وحلب وطرد الصليبيين من القدس.

وفي العصر المملوكي ،1250 ـ 1517، م أصبحت مصر قوة عظمى.. حيث وصلت حدودها حتى الدولة العثمانية، كما تمكنت من الاستيلاء على جزيرة قبرص.. وبعد سقوط الخلافة على يد المغول نقلت الخلافة العباسية إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس في عام 1260م، وانتقل مركز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة، عاصمة الدولة المملوكية، وصارت القاهرة بمثابة الحصن للحضارة العربية الإسلامية.

■ لكن انهيار الوضع الاقتصادي في آخر العهد المملوكي ،بعد اكتشاف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح، قد أدى إلى وقوع مصر فريسة سهلة للدولة العثمانية، ومن ثم عادت مرة أخرى ولاية تابعة لمركز الخلافة في إسطنبول ،1517 ـ 1805،.

■ ولكن مصر حصلت على درجة من الاستقلال تحت حكم أسرة محمد على منذ عام 1805 وحتى الاستعمار البريطاني في عام 1882.

■ يخلص د. جلال الشايب من كل ما سبق ،من الفتح الإسلامي حتى الغزو البريطاني، إلى أن مصر قد عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامي دولة مستقلة ،بنسبة 56٪،، وعاشت ولاية تابعة ،بنسبة 44٪،، وهو ما ينفي تماماً فكرة أن مصر كانت مستعمرة طوال تاريخها الإسلامي، ولم تعرف الاستقلال، إلا في عصر محمد على فحسب.

عصر الاستقلال (3)

ذهب أعداء مصر والمصريين الى ترويج خرافة مؤداها أن مصر عاشت معظم تاريخها تحت حكم الاستعمار، وان عمر الاستقلال في تاريخ المصريين ضئيل للغاية وسط عصور متواصلة من حكم الأجانب.

ويكمل أعداء مصر والمصريين مقولاتهم التافهة بالقول إن عصور الاستعمار في مصر تمثل عصور الإنجاز والتعمير، وإن عصور التخريب والفشل هى في الأغلب فترات حكم المصريين لبلادهم.

فى مقاله بالأهرام، نقل د. طه عبدالعليم عن الجليلين جمال حمدان وحسين فوزى خلاصة ابحاثهما بان تلك المقولات خرافة تامة.. وان مصر هى الدولة الأطول استقلالاً في كل العالم وعلى مر التاريخ. وأن مصر عاشت ثلاثة ارباع تاريخها دولة مستقلة وهى اعلى نسبة في تاريخ الشعوب.

وفى تعقيبه المميز قال الدكتور جلال الشايب، الأستاذ في كلية الفنون الجميلة «إن مصر عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامى دولة مستقلة، وان القول بأن مصر كانت مستعمرة طوال تاريخها الإسلامى هو خرافة اخرى.. وفى هذه السطور يكمل د. جلال الشايب في نقد خرافة «البناء في زمن الاستعمار والفشل في أزمنة الحكم الوطنى. ويمكن تلخيص رؤية د. جلال الشايب في التالى:

1- الدارس للعمارة الإسلامية في مصر يكتشف أن نهضتها كانت مرتبطة دائماً باستقلالها، وفى الفترات التى كانت فيها مصر ولاية تابعة سواء للدولة الأموية أو للدولة العباسية أو للدولة العثمانية.. فإنها تتخلف معمارياً.

2- على مدى 228 سنة منذ فتح مصر وحتى قيام الدولة الطولونية المستقلة لم يشيد سوى جامع عمرو بن العاص الذى لم يتبق منه سوى حائط القبلة حيث شيد الجامع بشكله الحالى في عصور لاحقة. وكذلك جامع العسكر وهو غير موجود حاليا. وأما مقياس النيل في الروضة فقد شيد في العصر العباسى لأسباب تتعلق بجباية المال.

3- في العصر الطولونى عندما استقلت مصر عن الدولة العباسية تم تشييد جامع ابن طولون ،ثالث جامع في مصر ومن أجمل المساجد الإسلامية،.

4- في العصر الفاطمى أنشأ جوهر الصقلى مدينة القاهرة، وشيد الأسوار للدفاع عنها وأنشأ البوابات.. مثل باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة.

5- في العصر الفاطمى أيضاً تم تشييد الجامع الأزهر.

6- امتازت الدولة الأيوبية المصرية المستقلة بالعمارة الحربية، مثل القلاع والحصون والمعسكرات.. وإنشاء المدارس الكبيرة، ومن بين المنشآت المعمارية تميز ضريح الإمام الشافعى.

7- تمثل الدولة المملوكية المصرية المستقلة العصر الذهبى لفن العمارة الإسلامية في مصر. وهى عمارة تمتاز بضخامتها.

8- من إبداعات سلاطين المماليك البحرية ،1250 - 1382، جامع السلطان قلاوون، وجامع ومدرسة الناصر محمد، وجامع ومدرسة السلطان حسن ،الذى زاره الرئيس الأمريكى باراك أوباما في عام 2009، والذى يعتبر من أروع العمائر الإسلامية في العالم.

9- من إبداعات سلاطين المماليك البرجية ،1382 - 1517، جامع ومدرسة قنصوة الغورى، ضريح ومدرسة الظاهر برقوق، قلعة قايتباى بالإسكندرية.

10- الصافى من ذلك كله أنه حين تحكم مصر من داخل مصر يكون الصعود وحين تحكم مصر من خارج مصر يكون الهبوط.. إن عصور الاستقلال في تاريخ مصر هى عصور الازدهار في تاريخ المصريين.

جريمة رائعة (1)

لا يقف المؤرخون طويلاً لدي واقعة عظيمة وجريمة جليلة قدمها محمد علي باشا إلي مصر، لا يقفون بما يليق امام واحدة من اروع المذابح في التاريخ، وواحدة من افضل المآسي الإنسانية والمآثر السياسية.

في اول مارس عام 1811، اراد محمد علي ان ينتهي من المماليك في مصر، فدعاهم إلي حفل عشاء أخير، ثم جري حصادهم واحدًا وراء الآخر.. فلم يفلت منهم إلا مملوك واحد، انتهي أثره في سوريا.

***

إنسانيا.. لا يمكن أن يقف أحد مع مذبحة جماعية راح فيها كل من حضر، وإنسانيا لا يمكن أن يقبل أحد وقائع قتل وغدر مفجعة تزاحمت فيها الجثث فوق الخيول وتحت الأقدام، وإنسانيا لا يمكن أن يرتضي أحد أن يتحول حفل عشاء إلي حفل عزاء، تناول فيه الضيوف فاتحة شهية ونهاية حياة.

غير انني اقف تمامًا علي النقيض من ذلك الحسّ الإنساني هذه المرة، لأكون واحدًا من الذين يحترمون ويقدرون هذه المذبحة الرائعة.

إنني واحد ممن يرون أن بعض رؤي الإصلاح والتقدم لا تحتمل ترف الحوار والجدل والإقناع، كما انها لا يمكنها أن تبقي طويلاً أسيرة حرب باردة بين الرأي والرأي الآخر.

وأؤمن كذلك بأن كثيرًا من مشروعات النمو في الحالة المصرية وفي الثقافة العربية قد أربكها كثرة الحوار، وصخب الإفتاء والإنشاء!

وظني أن عددًا وفيرًا من نماذج التقدم قد أتت وعلت في ظروف حاسمة لا أجواء

مرتبكة وفي بيئة واضحة لا في غابة من الانتماءات والانحيازات والأيديولوجيات المتصارعة.

وفي حالة «مذبحة القلعة»، كانت مصر أمام خيارين واضحين، خيار التخلف الذي يحميه "المماليك المحدثون".. وهم جيل عنصري ضعيف وفاسد وهم غير " المماليك العظام " الذين ساهموا في تاريخ بلادنا المجيد، وبين خيار التقدم الذي أتي به محمد علي تعليمًا وتفكيرًا وجيشًا وإمبراطورية، كانت المعركة صافية لا لبس فيها، بين عصابات منظمة يقودها حفنة من العبيد، وبين أمل وطني وحضاري جامع لن يبدأ إلا علي جثث تلك العصابات.

لم يكن الحوار ولا الجدال ولا موائد المفاوضات لتجدي مع عصابات ذات مصالح كبري ومزايا عملاقة، من مال وأطيان ونفوذ ورجال، لم يكن الحوار ممكنا مع أناس يمتلكون الأرض ومن عليها، ولا يعرفون غير القتل وسفك الدماء ومؤامرات القصور والقري من أجل زيادة ما يملكون.

كان قرار محمد علي القضاء علي المماليك واحدًا من أعظم القرارات إن لم يكن أعظمها جميعًا، وإذا كان لمحمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة إنجازان يفوقان مجمل ما انجز ومجمل ما أنجزت مصر في القرنين الأخيرين، فهما بناء الجيش والقضاء علي المماليك.

لقد أسرفت كتب التاريخ بوصف ما جري بالمذبحة، لتجري إدانة محمد علي والتعاطف مع المماليك، وتقديري أن الصواب هو «معركة القلعة» لا «مذبحة القلعة»، فهي معركة بين محمد علي والمماليك، ولكنه اختار فيها أن تكون «معركة نصف بيضاء»، أي أن تسيل دماء العدو وحده في مكان أنيق ووقت محدود.

***

ما الذي كان سيحدث لو بقي المماليك في مصر؟

ماذا لو كان محمد علي قد انهزم ومضي المماليك معنا إلي اليوم؟

إنني إزاء «معركة القلعة» المجيدة، التي انتصر فيها التقدم علي التخلف، والمعرفة علي الجهل.. وفلاسفة النهضة علي أمراء العبيد.. لأتذكر محييا ومقدرًا ما فعله الزعيم العظيم محمد علي، في تلك الجريمة الرائعة.

جريمة رائعة (2)

دعوت في السابق إلي إعادة قراءة «مذبحة القلعة»، التي أنهي فيها محمد علي باشا عصر المماليك.

وهي المذبحة التي مثلت، في تقديري، معركة فاصلة بين العصور الوسطي المصرية والعصر الحديث.

وقد جالت بخاطري احتمالات عدة لردود الفعل علي ما كتبت، غير أن ما تفضلت به الكاتبة الأستاذة صافي ناز كاظم، جاء خارج ما توقعت وقدرت.

* كتبت الأستاذة صافي ناز كاظم في صحيفة «البديل» تحت عنوان: «نظرية المسلماني في مشروعية الحسم بالمذابح»، مقالاً قاسيا، ذهب بعيدًا في التحليل والتأويل:

1 - قالت الكاتبة: «في ظل المذابح المروعة التي يرتكبها إيهود أولمرت ضد الأطفال والنساء والمدنيين العزل، في ظل هذا البطش والتوحش، لا يتردد أحمد المسلماني في توثيق وتدعيم هذا الجبروت الأعمي، المستحل لدماء الأطفال والمدنيين.. يطرح نظريته الإرهابية في مشروعية الحسم بالمذابح في مقاله «جريمة رائعة» بـ«المصري اليوم».

* لقد ذهبت الأستاذة صافي ناز بعيدًا بعيدًا في ربط ما لا يربط، وخلط ما لا يختلط.. ودخلت بالتحليل إلي مناطق كانت نائية تمامًا عن جغرافية الفكرة.

إن ما يجري في فلسطين جريمة تطهير عرقي وإبادة جماعية، استخدم فيها نائب وزير الدفاع الإسرائيلي مصطلح «الهولوكوست»، مما دعانا في سياق سابق للدعوة إلي تأسيس «متحف هولوكوست فلسطين في رام الله».

لكن معركة القلعة المسماة «مذبحة القلعة»، هي معركة عسكرية بين محمد علي

والمماليك، جاءت في سياق صراع علي السلطة، رأيت أن أقف فيها إلي جانب محمد علي العظيم، ضد هؤلاء العبيد.

لم يكن في «معركة القلعة» طفل ولا امرأة، بل كانوا جميعًا من القادة السياسيين والاقتصاديين، كانوا ملاك البلاد والعباد، وأصحاب السلطة والثروة والنفوذ.

2- تعود الأستاذة صافي ناز كاظم لتقول: «إن مذبحة القلعة دعا فيها السفاح محمد علي (باني مصر الحزينة)، الأمراء المصريين.. ليتمكن من التخلص منهم.. هذا (الأرناؤطي المأجور)».. وهو رأي غريب في شأن محمد علي وشأن المماليك، فالرجل الذي يصفه عموم الوطنيين المصريين بـ«باني مصر الحديثة» وصفته الكاتبة بـ«باني مصر الحزينة»، وأما العبيد الذين وصفتهم بالأمراء المصريين،

فإنني أترك الرأي هنا للكاتب الدكتور نبيل فاروق، الذي كتب في «الدستور» تحت عنوان «المماليك» يقول: «كانت مصر تخضع كلها لحكم جائر ظالم مستبد، هو حكم المماليك الذين أتوا من كل بقاع الأرض كتابعين وحرس، ثم أصبحوا الحكام الفعليين يتقاسمون الثروة والقوة والنفوذ والسلطة، وعاش الشعب فقرًا ما بعده فقر، وفسادًا ما بعده فساد، وهم يزيدونه فقرًا وعذابًا، يفرضون الضرائب والجبايات لكي يزدادوا ثراء وطغيانًا.

وبقي المماليك ينتفخون من التخمة في بلد يموت من الجوع.. وعندما جاء نابليون لاحتلال مصر، كان هؤلاء الطغاة أول من فر، وأخذ ذيله في أسنانه وطار، ولما غادر الفرنسيون، عاد غضنفرات المماليك للظهور.. يتصارعون ويتقاتلون لقهر الشعب مرة أخري.

3 - اختتمت الأستاذة صافي ناز كاظم تقول: «صحيح يا حرام.. اللي خلف مامتش»، وهي خلاصة معيبة جاءت من مقدمات خاطئة، فما كانت دعوتي من أجل الديكتاتورية ولا المذابح الحمقاء ولا هدم الدول والأوطان.. بل كانت تقديرًا لتجربة زعيم عظيم، أخرج وطنًا كاملاً من الظلمات إلي النور، وتقديرًا لجريمة رائعة أنهت العصور الوسطي.. وبدأت العصر الحديث.

صلاح سالم.. ثائراً وشارعًا !

لا يستحق السيد صلاح سالم، عضو مجلس قيادة ثورة يوليو، ان يطلق اسمه علي اكبر واشهر شوارع القاهرة.. إنني ادعو إلي تغيير اسم شارع صلاح سالم الذي يمتد من الجيزة إلي مطار القاهرة، واختيار اسم آخر يتناسب وزنه واعتباره مع هذا الشارع الكبير.

لماذا لا يصبح اسم الشارع.. شارع جمال عبدالناصر، فالرئيس عبدالناصر هو قائد الثورة، ويحتل اسمه موقعاً بارزاً في تاريخ العالم في القرن العشرين؟ او ان يصبح شارع طه حسين أو نجيب محفوظ.. وكلاهما قيمة مصرية خالصة، وقيمة عالمية مؤكدة.. او ان يصبح سعد زغلول أو احمد عرابي.. وكلاهما قاد ثورة وطنية مجيدة.. تعثر عرابي وله أجر، واجتاز سعد وله اجران.. او أن يصبح احمس او إخناتون.. وكلاهما دلالة كافية علي حضارة خالدة. إن إطلاق، ثم إبقاء، اسم صلاح سالم علي هذا الشارع.. لهو دلالة فوضي في التقدير وخلل في التكريم.. وجهل كامل بحركة التاريخ.

* ولد صلاح سالم في عام 1920 في شرق السودان، تخرج في الكلية الحربية عام 1938، وانضم للضباط الأحرار قبل الثورة، ليصبح مع اخيه جمال سالم عضواً في مجلس قيادتها. وقف إلي جانب عبدالناصر في الصراع مع محمد نجيب عام 1954. تولي ملف السودان وملفات اخري، وعمل صحفياً واصبح رئيساً للتحرير ثم نقيباً للصحفيين، وتوفي عام 1962.

* اشتهر صلاح سالم بالقدرة علي الخطابة، واطلق عليه خطيب الثورة، وقد تقلبت علاقته بالرئيس عبدالناصر، وكان جريئاً عليه، وارتبطت العائلتان لاحقاً بعلاقة نسب، حيث تزوج حفيد الرئيس عبدالناصر من حفيدة السيد صلاح سالم.

* يحسب لصلاح سالم كونه وطنياً، عمل مع الفدائيين قبل الثورة، وفي عامي

1946 و1947 كان يشارك في جمع الذخيرة من معسكرات الجيش، من اجل للقاومة السرية ضد الإنجليز. واستطاع في حرب فلسطين عام 1948 أن يتسلل مع فدائيين آخرين إلي القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.. ومعه قافلة تموين.

كان صلاح سالم في هذا مثل مئات، بل آلاف، بل أكثر من عموم الوطنيين المصريين، وإذا كان هو قد خاطر بحياته، فهو يستحق بالقطع الإشارة والإشادة، لكن صلاح سالم بعد الثورة شأن آخر.

* مثل صلاح سالم حَصَنماً من الثورة، لا إضافة لها، كان وجهها المتهور غير الناضج وغير المسؤول. ولو كانت ثورة يوليو قد مضت في طريقها، دون رجال من نوع صلاح سالم وجمال سالم وعبدالحكيم عامر، لكان لدينا مصر أخري غير مصر اليوم. أضاع صلاح سالم السودان، ومثل في زيارته الشهيرة، التي رقص فيها شبه عارٍ مع زعماء القبائل، نموذجاً لضعف الراسل والرسول. كانت الثورة أصغر من إدارة وطن، وكان أعضاؤها أضعف من إدارة أنفسهم.

* يقول الأستاذ محمد صلاح سالم، نجل صلاح سالم في حوار، نشرته مجلة «الشباب» في مارس 2000: «لقد اختير أبي للمسؤولية عن قضية السودان، ربما بحكم ولادته بها، رغم أن معلوماته عنها لم تكن تزيد علي ما درسه في المدرسة!». ويضيف «كان أبي سريع الغضب حاد الطباع».. وأنه «ربما تعدي علي محمد نجيب أثناء أزمة مارس».

* لقد أشرت في كتابي «ما بعد إسرائيل» إلي أن صلاح سالم ألقي خطبة في المحلة الكبري عام 1953 نادي فيها بالصلح والتطبيع مع إسرائيل. وقد نشرت الأهرام حواراً مع الأستاذ أحمد نافع.. قال أحمد نافع: «أجريت حواراً مثيراً مع صلاح سالم عام 1954، وكان وزيراً للإرشاد القومي، وقد قال في الحوار إن مصر علي استعداد لإعادة النظر في موقفها من حلف بغداد، فيما لو وافقت إسرائيل علي السماح لمصر بإقامة ممر بري بين غزة والأردن.. وقد صدر الأمر باعتقالي بعد نشر هذا الحوار».

وكان الأستاذ مصطفي أمين قد نقل للرئيس عبدالناصر حواراً بين الأستاذ صلاح هلال والسيد صلاح سالم، قال فيه سالم لهلال: «إن بعثة مصرية سافرت إلي روسيا لشراء سلاح، وأن أول شحنة (ميج) قد شحنت فعلاً»، فاتهم عبدالناصر صلاح سالم بالخيانة وضرورة المحاسبة.

ويـذكر الجميـع موقـف صـلاح سـالم في حـرب 1956، حيـث طالـب بـان يـسلم عبدالناصر نفسه للسفارة البريطانية. ويذكر عبداللطيف البغدادي في مذكراته، ان «صلاح سالم ذهب إلي عبدالناصر، واقنعه بالانسحاب من سيناء.. ولما حدثت غارة جوية كان يصر علي أن نغادر مبني القيادة ونختفي»!

** إلي ان يتم تغيير اسم شارع صلاح سالم.. سنواصل بحثنا في إطار مركز المؤرخين الجدد.

أحدَ عشرَ عاماً

قامت ثورة يوليو في عام 1952، وانتهت في عام 1956، ثم توالت الأخطاء، من وحدة خاطئة مع سوريا في 1958، إلي فشل في حماية شمال الدولة من الانفصال في عام 1961، إلي حرب خاطئة في اليمن عام 1962، ثم إلي كارثة كاملة في عام 1967 يري التيار الناصري أن مجد الرئيس عبدالناصر قد تأسس عام 1956 ثم انطلق عاليا في السنوات اللاحقة، وأري أن مجد جمال عبدالناصر قد بدأ عام 1952 وانتهي عام 1956، لكي تبدأ مصر حقبة رديئة امتدت أحد عشر عاما من الأخطاء، من 1956 إلي 1967.

* أحد عشر عاما من تخريب الجيش، بدأ بترقية اللواء عبدالحكيم عامر إلي رتبة المشير، وبعد هزيمة في سوريا وهزيمة في اليمن وهزيمة في سيناء، فوجئنا بعد 1967، بأن لدينا رجال حرب كباراً بوزن الفريق فوزي والمشير الجمسي والمشير محمد علي فهمي، وأن لدينا قادة جو بوزن حسني مبارك وقادة مدفعية بوزن عبدالحليم أبوغزالة، ولدينا فوق هؤلاء جميعا قائد حرب عملاق بوزن الفريق سعدالدين الشاذلي، وأسطورة علم وأخلاق بوزن الفريق عبدالمنعم رياض.

* أحد عشر عاما من تكسير الحرية، أشخاص لا قيمة لهم ولا لرؤسائهم ولا لرؤساء رؤسائهم، كان يمكنهم أن يسحقوا من شاءوا ويسجنوا من شاءوا، يرفعون ويخفضون، يمنحون ويمنعون، بهم ومعهم تحولت السياسة إلي كاميرات وحراس القيم إلي لصوص صور كل هدفهم لقطة عارية أو سرير ممتلئ!

أحد عشر عاما من الكلام عن الاقتصاد، فقط أرقام عن الخطط وأرقام عن التصنيع المدني والعسكري، وحين أسمع السيد عزيز صدقي متحدثا عن عصر الصناعة في هذه السنوات- لا أذهب كثيرا في التحليل والتنقيب، ولا المراجعة والتقييم. ها هي مصر وها هي كوريا وسنغافورة وماليزيا وأيرلندا. ها ما فعلنا في أحد عشر عاما من المجد، وها ما فعل

الآخرون في أقل من عشر سنوات، هذه مصانعنا ومصانعهم، شركاتنا وشركاتهم، بدايتنا وبدايتهم، تكلفتنا وتكلفتهم.

* احد عشر عاما من تكسير القيم، نهاية قيم الكفاءة والامتياز، وحلول قيم الثقة والولاء، اختفي أهل العلم والدراية وساد السماعون للكذب الأكالون للسحت، اختفي الدارسون والعارفون وحل السكرتارية والسعاة المتلصصون وأهل الهوى!

* احد عشر عاما من المزايدات الرخيصة، من الفاسدين الذين يناهضون الفساد، من ضعاف النفوس الذين تدربوا علي افضل الطرق للتاثير، واسهل السبل إلي البكاء، من الذين توصلوا إلي أعظم حيلة سياسية في وطن جريح سحق أمريكا وإسرائيل أمام الكاميرات، ثم سحق الوطن بعد ان يصمت الميكروفون وترحل العدسات!

إنني واحد ممن يقدرون الرئيس عبدالناصر لسبع سنوات، كان الرجل عظيما ما بين 1952 و1956.. ثم عاد عظيما بعد يونيو 1967.

عاش ناصر 1952في 1956 ومات ناصر 1956، في 1967، وبعث ناصر 1967 في 1970، كانت حرب الاستنزاف هي التي صاغت لعبد الناصر هذه الجنازة التي تنبض بالحياة.

كل عام ونحن افضل، فمصر 2007 ليست بخير!

المشير عامر وحسن نصر الله!

خاض السيد عبدالحكيم عامر خمس حروب انهزم فيها جميعاً، خاض حرب 1948 ضابطاً وانهزم، وخاض حرب 1956 قائداً وانهزم، وخاض معركة انفصال سوريا وانهزم، ثم خاض حرب اليمن وانهزم، ولم يقبل الرجل أن يغادر عالمنا قبل أن يهدينا «أم الهزائم» في حرب 1967، ثم ترك المشير مدرسة كاملة في انتصار اللسان وانكسار السلاح.

حوّل المشير عامر علوم الحرب إلي مجرد ثرثرة عسكرية، وحوّل الخطط والخرائط في ميادين القتال إلي محافل ومكائد لا تليق بمقام الرجال!

كان عبدالحكيم عامر مجرد ضابط عادي لا يشي بالكثير مما يلفت الانتباه أو يثير الاهتمام، ثم كانت الثورة المجيدة التي أكلت أبناءها، وتركت مصائر الوطن في أيدي عدد من الذين لا تتجاوز قدراتهم إدارة اتحاد للطلاب أو جمعية تعاونية.

ابتعد عن الواجهة أولئك الضباط الذين كانوا يعرفون ما هو أكثر من الثورة، ممن كان لهم رأي ورؤية، وإدراك لعالم الخريطة وحقائق الأشياء، وبقي في الواجهة من يجيدون لغو الحديث ولهو السلوك.

تولي عبدالحكيم عامر - الذي لا يعرف شيئاً عن الحرب والقتال، ولا يعرف شيئاً مهماً عن أي شيء آخر - قيادة الجيش المصري في حرب 1956.

كان العدوان الثلاثي علي مصر في هذه الحرب مروعاً، وكانت تقوده عاصمتا القوة في العالم الحديث لندن وباريس، وكانت القاهرة خارجة للتو من جراح الثورة وآلام التحرير.

وقد أدي الوضع الدولي الجديد الذي كانت تحل فيه واشنطن وموسكو محل لندن وباريس، مضافاً إليه وسابقاً عليه موقف القيادة السياسية والمقاومة الشعبية العظيمة إلي

هزيمة العدوان وتأكيد الاستقلال الوطني.

لكن حرب 1956 قد انتهت إلي نجاح سياسي مصحوب بالفشل العسكري، وكان ذلك الفشل العسكري ذريعاً، ولم يكن عبدالحكيم عامر في أدائه يزيد علي الخطابة والدعاء!

وكان الطبيعي أن يرحل عامر غير مأسوف عليه، وأن يتولي قيادة الجيش من يعيد بناءه بعد عصور الاستعمار اللعينة، وأن يؤسس لقوة عسكرية محترمة تليق بمكانة الوطن وآمال المواطنين. لكن اللواء عبدالحكيم عامر صار مشيراً، والعسكري المتواضع الذي انهزم أصبح واحداً من مارشالات العالم الكبار!

كان بإمكان المشير عامر إذن أن يحمد الله ويشكر الظروف، ليبدأ بناء جيش وطني قوي ليستفيد من محنة 1956.

لكن المشير راح يدير جيشاً أكبر يتمدد من القاهرة إلي دمشق بمثل ما أدار به جيش 1956، وحكم المشير سوريا التي أصبحت تمثل دولة واحدة مع مصر منذ عام 1958 ثم انفصلت سوريا دون أن يطلق المشير رصاصة واحدة للدفاع عن دولة الوحدة، بل إنه هو شخصياً قد جري اعتقاله وإهانته وترحيله!

كان بإمكان المشير من جديد أن يستوعب الدرس، درس الأداء العسكري غير اللائق في حرب 1956، ثم العجز الكامل علي الإدارة العسكرية لانقسام الدولة في 1961. ولكن المارشال راح يعطينا درساً جديداً في اليمن!

مثل الأداء العسكري المصري في اليمن كارثة لا حدود لها، وبلغت خسائر جيشنا في اليمن أكبر من خسائره في حرب أكتوبر 1973.

فشل المشير في مواجهة قبائل يمنية فقيرة في المال والسلاح الحديث، وطيلة سنوات الحرب الممتدة من عام 1962 إلي عام 1967 لم يحسن المشير من أداء قواته حتي وقعت الواقعة فجري سحب قواتنا من هناك إلي هنا.. فقد حلت ببلادنا أم الكوارث في يونيو 1967.

لم يطلق المشير رصاصة ولا طائرة ولا دبابة.. لم يفعل الرجل أي شيء.. أي شيء.. وأكرر للمرة الثالثة أي شيء!

لقد تذكرت المشير عامر هذه الأيام، بينما حرب لبنان تتوالي يومياتها، وحين تابعت أداء السيد حسن نصر الله وما تضمن أداؤه من إطلاق لصواريخ وإزعاج لحيفا وإصابة لقطعة

عسكرية بحرية وقتل أربعة من طاقمها، والحفاظ لأكثر من عشرة أيام من القتال علي عدم أسر أي من مقاتليه!

تذكرت في هذه الأثناء المشير عامر الذي كان يملك جيشاً وسلاحاً وقضية، ولكنه....!

لا رحم الله من أسسوا للهزيمة في هز الوطن، ولا سامح الله كل من تسببوا في وضعنا الراهن.. فيمن جعلونا مجرد شهداء في الساحات ومناضلين علي الشاشات!
إن أداء السيد حسن نصرالله لا يمثل معجزة، ولكن اداء المارشال عبدالحكيم عامر كان هو المعجزة!

المشير عامر ليس حائط مبكي

أرسل الدكتور طارق حسن عامر نائب محافظ البنك المركزي وابن شقيق المشير عبدالحكيم عامر ردًا مطولاً علي مقالي السابق، وكنت قد كتبت مقالاً بعنوان «المشير عامر وحسن نصر الله» وقلت فيه: إن المشير عامر خاض خمس حروب انهزم فيها جميعاً، خاض ضابطا حرب 1948، ثم خاض قائداً حرب 1956، وانفصال سوريا 1961، وحرب اليمن 1962، وحرب يونيو 1967. وقلت: إن المشير عامر قد حوّل علوم الحرب إلي مجرد ثرثرة عسكرية، ثم ترك لنا مدرسة كاملة في انتصار اللسان وانكسار السلاح.

وقد تضمن ردّ الدكتور طارق عامر نقداً تفصيلياً لكل ماجاء في المقال، وفيما يلي النص:

إلي أحمد المسلماني.. تحية وبعد:

قرأت مقالك بعنوان «المشير عامر وحسن نصر الله» ولقد وجدت أن الكتابة قد تخطّت حدود النقد الموضوعي، فاخذت تكيل الاتهامات والأحكام القاسية والباطلة تقييما لشخص المشير عامر، وإنني لم أدرك علي ماذا من معلومات أو بحوث أو دراسات استندت وأهلتك للحكم علي أداء شخصية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ مصر الحديث.

ولا أعتقد أن خبرتك قد تؤهلك للحكم علي قدرات المشير عامر العسكرية، ولا أنت مؤرخ علي دراية بالأحداث، ومن الواضح أنك حديث السن، وغالبا لم تكن قد ولدت بعد حين فقد المشير حياته في سبتمبر 1967.

وقد وجدت من واجبي أن احيطك علماً بما لا تعرفه قبل أن تصبَ جام غضبك علي رجل لم تقابله في حياتك، وأصحح لك ما أخطأت في تقديره.

إن عبدالحكيم عامر ليس حائط مبكي، كلما أصابتنا مصيبة نهيل عليه التراب ونلعنه!

بداية.. المشير عبدالحكيم عامر خريج الكلية الحربية وحاصل علي شهادة كلية أركان حرب القوات المسلحة.

إن عبدالحكيم عامر لم يهزم في حرب 1948، لأنه لم يكن قائداً لتلك الحرب، فلقد هزمت كل الدول العربية مجتمعة في هذه الحرب بالرغم من أن إسرائيل كان جيشها محدوداً جداً، ولقد نال المشير عبدالحكيم عامر نوط الشجاعة، نتيجة بلائه بلاءً حسناً في تلك الحرب، ونال ترقية استثنائية، وأصيب وعاد إلي الجبهة بعد الإصابة بسبب العمليات العسكرية التي قادها.

لقد عرف عن عبدالحكيم عامر الرجولة والشجاعة الفائقة والوطنية والشهامة وإنكار الذات، وكان واحداً من أنبل وأشرف من أنجبتهم مصر، ونال شعبية في الجيش المصري لم ينلها قائد من قبله، وذلك لإنسانيته المتناهية في التعامل مع صغار وكبار الضباط، فهل حاربت أنت في سبيل مصر لتتطاول علي هذا الإنسان؟

لقد وصف الرئيس أنور السادات أداء المشير عامر في حرب فلسطين وقيادته للجيش ليلة الثورة بشجاعة فائقة، أنها أشبه بقصص الأساطير التي رواها لنا أجدادنا، هذا هو عبدالحكيم عامر.

وفي حرب 1956.. كانت مصر لديها جيش صغير يواجه جيوش ثلاث دول كبري، فماذا كنت تعتقد من نصر! ولكنك إذا كنت تقرأ التاريخ لجنرالات محترمين، لكنت قرأت مقالات أحد أكثر الشخصيات احتراما في الجيش المصري الفريق حافظ إسماعيل مساعد الرئيس السادات ومساعد المشير في حرب 1956، إن الجيش المصري أدي أداءً رائعاً في حدود الظروف التي كان يمرّ بها، وكانت القيادة علي أعلي مستوي من المسؤولية والأداء.

وللتاريخ.. فإن صاحب قرار الانسحاب وإنقاذ الجيش في سيناء من التدمير والتطويق هو المشير عامر، حيث اتخذ هذا القرار استشعارا منه بالخطورة رغم معارضة جميع زملائه بمن فيهم الرئيس عبدالناصر، تلك هي مواقف الرجال يا سيدي، وإنه من السذاجة الاعتقاد أن جيش مصر في ذلك الوقت كان ينتظر منه الانتصار في معركة غير متكافئة علي الإطلاق!

أما في حرب اليمن.. رجاء قراءة المراجع الدولية على أداء الجيش المصري في هذه الأراضي الوعرة الجبلية، بالرغم من الخسائر الكبيرة، ولم يكن عبدالحكيم عامر إلا منفذاً لقرارات سياسية بالدخول في اليمن، وكانت الثورة المصرية لها فلسفتها في ذلك الوقت.

إن هذا الرجل الشريف يستحق منكم أحسن من ذلك.

طارق حسن عامر

ابن شقيق المشير عامر

العُمدة والجنرال!

كتبت - في السابق - مقالاً بعنوان «المشير عامر وحسن نصرالله وانتقدت فيه مجمل مسيرة عبدالحكيم عامر ضابطاً وقائداً، ومشيراً.. وقد نشرت رد الدكتور طارق حسن عامر نائب محافظ البنك المركزي وابن شقيق المشير عامر، وهنا تعقيب من جانبي على ما أورده ابن شقيق المشير في رسالته «المشير ليس حائط مبكي.. والخونة تخلصوا منه لشجاعته».

البداية

إن ما دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو دافع وطني بحت، فليست الغاية من استحضار المشير عامر الآن هو النيل منه أو الحط من شأنه أو تشييده حائطاً للمبكي كلما حلت النوازل، ولا الغاية أيضا هي تكريس انفعال العامة بالأداء العسكري لحزب الله وحسن نصرالله، ولا أذهب في هذا أبداً إلي المقارنة بين تجربة أخلاقية يخوضها حزب الله وبين معركة عسكرية عملاقة خاضها جيشنا الباسل في عام 1973.

وقد قلت - ومازلت أقول - إن أداء حزب الله لا يمثل معجزة، ذلك أن قياس الجماهير العربية لأداء حزب الله مقارنا بحروب عبدالحكيم عامر وحروب صدام حسين هو قياس باطل، فلم تكن هذه حروبا ولم يكن هؤلاء قادة، وإذا كانت إسرائيل في لبنان قد قتلت ألفاً وأصابت ثلاثة آلاف وشردت مليون شخص واحتلت الشريط الجنوبي وأبادت الحرث والنسل ولم تترك جريمة إلا ارتكبتها، فإن أبسط أداء دفاعي هو ما يفعله حزب الله، إذا قصف إسرائيل بالصواريخ وإصابة بارجتين وتدمير دبابتين وقتل عدد من العسكريين الإسرائيليين، هو الحد الأدني وليس الحد الأقصي للأداء، وإلا فما هو تقديرنا لأرواحنا وأوطاننا إذا كان ثمن قتل لبنان أقل مما فعل حزب الله؟

إن حرب 1967 كانت كارثة لا تعبر أبداً عن وضعية ولا مكانة ولا كرامة الجيش

المصري، وإن حروب صدام حسين الثلاث لم تكن تعبيرا عن وضعية ولا مكانة الجيش العراقي، إن حرب صدام الأخيرة من ام القصر إلي بغداد كان أداؤه فيها أقل من أداء لصوص حديثي الإجرام أو حراس الملاهي الليلية، وأن اكبر جريمة يمكن أن نرتكبها في حق أنفسنا هو أن نعتبر ما يفعله حزب الله نوعا من المعجزة، ذلك أن ما فعله المشير عامر وصدام حسين كان هو المعجزة!

العمدة والجنرال

سوف أتجاوز ما قاله ابن شقيق المشير في رده من اتهامات لي بعدم المعرفة وضعف الاطلاع وقلة الخبرة وحداثة السن، وأذهب إلي خلاصة ما قال، يقول الدكتور طارق عامر: «لقد عرف عن عبدالحكيم عامر الرجولة والشجاعة والوطنية والشهامة وإنكار الذات.. وأنه نال شعبية في الجيش المصري لم ينلها قائد من قبله.. وأنه كان يتسم بالإنسانية المتناهية تجاه صغار وكبار الضباط».

وظني أنه لا يوجد من يختلف مع هذا القول إذ تكاد تجمع الكتابات الخاصة بهذه المرحلة علي شهامة ومروءة ودفء المشير تجاه رجاله وتجاه كلٍ من يصل إليه، إن أحداً لم يطعن المشير في صفاته الشخصية، فقد كان الرجل خلوقاً من بيت أصيل، كما أن أحداً لم يطعن المشير في وطنيته، وحتي الكتابات الصفراء والاتهامات الشاردة التي لم تترك أحداً دون وصمه بالخيانة والعمالة لم يجرؤ أي منها علي وصف المشير بشيء من ذلك، فالشهامة كصفة أصيلة في أخلاق المشير والوطنية كمرجع أساسي لوطنية المشير هما أمران مؤكدان تماما.

ولكن القضية ليست هنا، ذلك أن الوطنية أمر لا يثاب المرء عليه وهي ليست أساساً للمديح ولا سببا للتقدير، فالوطنية كالطعام والهواء، فلا أحد يستحق الشكر، لأنه تناول الغذاء أو يتوجب الإجلال والإكبار، لأنه ظل يتنفس علي مدار اليوم بلا انقطاع!

وأما قيم الشهامة والمروءة والإنسانية فهي قيم فاخرة توجب التقدير، لكنها جميعا قيم خارج السياق، فنحن لسنا بصدد تقييم عريس يتقدم للزواج ولا شريك يرغب في التجارة ولا جار يبحث عن سكن، إن تقدير الجنرالات، لا يكون بهذا القول إن أحدا لم يحدثنا عن شهامة الماريشال مونتجمري تجاه أصدقائه، ولا رجولة إيزنهاور تجاه رفاقه، ولا المروءة الشخصية لروميل في ميادين القتال إن الحرب لا تعطي انتصاراتها لمن يتسمون بالرقة وطيب الأصل، ولا تمنح ميادين القتال جائزة لأحسن أخلاق، بل الحروب مكر وخديعة ودهاء، وهي

فن وعلم، وهي تخطيط وتنفيذ، وهي مكان وزمان، وهي إقبال وإدبار وإقبال من جديد، وهي صواريخ وطائرات ودبابات وهي عقول وأنفس وأرواح.

الحروب جغرافيا لا مواعظ، وتغليب إرادة لا ارتفاع أصوات الحروب هي تخريب وتدمير، هي شر مطلق، والجنرالات العظام هم من يجيدون إدارة الشر وإحكام الخراب، إن الصفات التي تفضل بها الدكتور طارق عامر واصفاً بها عمه المشير عامر، هي صفات صادقة وصحيحة.. ولكنها صفات عمدة لا جنرال ورجل كلام لا رجل قتال، وهي تصلح حكاية للسمر لا حماية للوطن.

إن الحوار الآن بشأن «حروب المشير» ليس بكاء علي حائط قديم، بل هو إعادة نظر فيما فات تحسبا لما هو آت..

الفريق الشاذلي 1948

الفريق سعد الدين الشاذلي واحد من أعظم جنرالات الحرب المعاصرين.. خاض حرب 1948 ضابطاً في الحرس الملكي وقاد حرب 1973 رئيساً للأركان، وهو يقع في مصاف كبار العسكريين في العالم.

ولد الفريق الشاذلي في قرية شبراتنا مركز بسيون في محافظة الغربية عام 1922، كان والده من الأعيان حيث تمتلك أسرته سبعين فداناً، وابن عم والده هو عبدالسلام باشا الشاذلي مدير مديرية البحيرة.

ينتمي الفريق الشاذلي لعائلة عسكرية، وقد مات جده وهو يقاتل في حروب إسماعيل باشا في السودان، وشارك أفراد من عائلته في الثورة العرابية وثورة 1919، وانقطعت صلة العائلة بالحياة العسكرية بعد انكسار الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 لتعود الصلة بالتحاق أحد أفراد العائلة بالكلية الحربية عام 1933 ثم التحاق الفريق الشاذلي بها عام 1939، أصبح الفريق الشاذلي ضابطاً برتبة ملازم في يوليو 1940، ثم انتدب للخدمة في الحرس الملكي عام 1943.

سألت الفريق الشاذلي عن هذه المعادلة الصعبة، ان يكون ضابطاً في الحرس الملكي في ظل الاحتلال.. قال: كانت بريطانيا تحتل مصر، وكان الإنجليز موجودين، لكن سيطرتهم علي الكلية الحربية لم تكن كاملة، وكانت هناك إمكانية للضباط الوطنيين لأن يعملوا في حدود المتاح، وكان هذا المتاح موجوداً باستمرار.

وأما خدمتي في الحرس الملكي فلم تكن موضع اعتراض كامل في نفوسنا، فقد كان الملك هو الرمز السياسي للبلاد، ولم نكن نعرف الكثير عن فساده أو ولائه للإنجليز، وبعض الذي سمعناه فيما بعد كان يحوي درجة من المبالغة.

وبدورنا فقد كنا كضباط نعادي الإنجليز، كنا ننتقدهم ونهاجمهم دون أن نواجه بتحقيقات قاسية، وكان هناك من الضباط من يتجاوز النقد والهجوم إلي المشاركة مع التنظيمات السياسية في قتل وملاحقة الضباط الإنجليز.
في هذه الأجواء جاءت حرب 1948. سألت الفريق الشاذلي عن الحرب وعن دوره فيها، قال: حين صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام 1947 ورفض العرب، انعقد مؤتمر في أنشاص برئاسة الملك فاروق وتقرر دخول الحرب.

يتذكر الفريق الشاذلي: كنت في هذه الأثناء ضابطاً في الحرس الملكي، وقرر الملك أن تشارك سرية من الحرس في الحرب علي أن تشكل من المتطوعين، وكنت واحداً من الذين تطوعوا ضمن هذه السرية الملكية للقتال، وكان من حظي أنني شاركت في معركتين مهمتين: معركة دير زنين ومعركة ميت سليم.

سألت الفريق الشاذلي عن تقييمه لحرب 1948، قال: لم تكن رتبتي وقتها تسمح لي بالإلمام بالموقف العام، وما أراه أن هذه الحرب قد كشفت لنا مدي ضعف التعليم العسكري وتدهور عمليات القتال، كانت دراستنا في الكلية الحربية نظرية، كنا نخوض القتال علي الورق، إننا لم نر القنبلة اليدوية أثناء دراستنا قط، وحين تخرجنا وجدنا أنفسنا في جيوش لا تحوي غير البندقية والرشاش.

وفوق ذلك كان الاحتلال جاثماً علي صدورنا، وكان الوضع الدولي في صالح إسرائيل حيث أيدت موسكو وواشنطن قيام إسرائيل منذ اللحظات الأولي، وكانتا هما مصادر التسليح في العالم، من هنا جاء اللجوء إلي السوق السوداء،

وهي سوق تبيع مخلفات السلاح بغير ضمان، وكان من بين ذلك ما تم تسميته بالأسلحة الفاسدة، وقد كانت الأسلحة الفاسدة موجودة ولكنها محدودة للغاية، ولا يمكن أبداً تحميلها مسار الحرب، وبعض الأخطاء التي وقعت لم تكن نتيجة فساد الأسلحة، ولكن نتيجة عدم المعرفة العسكرية، مثل القنابل التي كنا نفاجأ بانفجارها بعد ثلاث ثوان لا بعد سبع ثوان كما كنا نعرف، وكنا نعتقد حينئذ أن القنبلة فاسدة، وهذا غير صحيح، أما علي صعيد القوات فقد كان أقصي ما حشدته الدول العربية من أربعين إلي خمسين ألف فرد بينما حشدت إسرائيل مائة ألف في جبهتها بينهم لواء يهودي قاتل إلي جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية!

كان العرب لديهم سلاح طيران ولم تكن لدي إسرائيل طائرة واحدة، ولكن حين قام الطيران العربي بقصف إسرائيل تصدي له الطيران البريطاني وأسقط خمس طائرات مصرية. لقد كانت بريطانيا هي الضامن الأساسي لعدم انتصار العرب في حرب 1948!

تجيء سطور هذا المقال في مناسبة حرب لبنان 2006، وهي الحرب التي تفرض على الفكر الاستراتيجي العربي إعادة النظر في مجمل ما كان من صراع وصدام.

الفريق الشاذلي وعبد الناصر

تحدثنا عن حرب 1948، التي كانت من بين الأسباب التي دعت إلي قيام تنظيم الضباط الأحرار، سألت الفريق الشاذلي عن التنظيم وعن عبدالناصر وعن الإخوان المسلمين وعن الثورة.. قال: كان جمال عبدالناصر قائد تنظيم الضباط الأحرار، الذي تشكل من مجموعة من الخلايات السرية التي لا يعرف بعضها بعضاً، وكنت واحداً من إحداها منذ عام 1951. كنت قد تعرفت علي جمال عبدالناصر قبل تأسيسه تنظيم الضباط الأحرار، بوقت طويل، حيث كنا نسكن سوياً في عمارة واحدة في الأربعينيات، كان عبدالناصر يسكن في الدور الثالث، وكنت أسكن في الدور الثاني، ونشأت بيننا علاقات أسرية في ذلك الحين.

وفي عام 1951 كنت أعمل ضابطاً مدرساً في مدرسة الشؤون الإدارية، وكان جمال عبدالناصر يعمل هو أيضاً في نفس المدرسة، وأصبح بيننا اتصال يومي، فقد كنا نتقابل يومياً في المدرسة التي نعمل فيها، وكنا نتحدث عن كتابات إحسان عبدالقدوس وأحمد حسين كضباط معنيين بما يجري في بلدهم.

ولما وجد عبدالناصر مني هذا الحماس فاتحني في موضوع الضباط الأحرار، وكانت المرة الأولي التي حدثني فيها عن التنظيم عام 1951، وعلي الرغم من ان علاقتي به تعود إلي الأربعينيات، فإنه لم يذكر شيئاً عن ذلك في هذه الأثناء، والأرجح - كما قال عبدالناصر لاحقاً - من تنظيم الضباط الأحرار لم ينشأ إلا بعد حرب 1948.

قبل أن يطلب مني عبدالناصر الانضمام، كنت قد سمعت عن التنظيم ربما في عام 1950، وأثناء مناقشات عبدالناصر المنفردة معي بشأن الانضمام للتنظيم، عرفت المزيد عن الفكر السياسي للضباط الأحرار، وافقت علي الانضمام، وأصبحت عضواً في إحدي خلايا الضباط الأحرار بقيادة معروف الحضري، وعرفت لاحقاً أن الحضري كان عضواً في جماعة

الإخوان المسلمين، وبالطبع فإن الحضري كان مع آخرين ضمن ضباط التنظيم الذين كانت لهم صلة بجماعة الإخوان، مثل عبدالمنعم عبدالرؤوف وأبوالمكارم عبدالحي. كان أبوالمكارم صديقاً شخصياً لي، كنت ازوره ويزورني، وكنت أعرف توجهاته، ولكني لم اهتم بعلاقته التنظيمية بالإخوان، أما معروف الحضري فقد كان شخصية دينية وكان مندفعاً بعض الشيء، ولا يخفي في أحاديثه انتماءاته الدينية، وقد احتفظت معه بعلاقة عادية، عمل مشترك في خلية التنظيم دون أن يمتد ذلك إلي صداقة أو علاقة وطيدة.

كنت أعرف عدداً من أعضاء الخلية مثل حلمي السعيد، ولم نكن نعرف شيئاً عن الخلايا الأخري في تنظيم الضباط الأحرار، وقد بقيت في عضويتي حتي قيام الثورة في 23 يوليو 1952. سألت الفريق الشاذلي عن الثورة وعن دوره فيها، قال: قامت الثورة بينما انا اتلقي دورة في كلية أركان الحرب، ولم اكن بالتالي املك القوة العسكرية التي يمكنها ان تساهم في تنفيذ الخطة، لذلك لم يتم تكليفي بدور مباشر في ليلة الثورة.

لقيت الثورة تاييداً في الجيش، ولقيت قبولاً كاسحاً لدي الراي العام الذي كان قد تهيا منذ عام لحدث كهذا، فقد كان الشعب يتابع الأوضاع العامة المتدهورة وصولاً إلي حريق القاهرة، وجاءت حركة الجيش لتمتص غليان الشارع ثم لتحظي بتأييد شعبي واسع.

يستطرد الفريق الشاذلي قائلاً: طلب مني عبدالناصر أن التحق للعمل في جهاز المخابرات في اوائل عام 1953، وهو الجهاز الذي اعيد تنظيمه عام 1954، وقد اعتذرت وطلبت البقاء في الجيش، وبعد ذلك بقليل ذهبت في دورة تدريبية إلي الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت العلاقة بين الثورة وامريكا جيدة إلي الحد الذي ترسل فيه ضباطاً للتدريب فيها.

وقد استفدت أثناء دراستي في الولايات المتحدة، وكان من السهل الاندماج في المجتمع الأمريكي، ولم يكن الاتحاد السوفيتي قد ظهر حتي هذه اللحظة في الميدان، حيث كانت وسائل الإعلام تهاجم الشيوعية وتخلق حالة قوية من الكراهية إزائها، وفي ظروف كهذه كنا ننظر للولايات المتحدة كدولة صديقة، وكانوا بدورهم ينادوننا كحلفاء، علي الرغم من أنهم لم يسمحوا لنا بحضور بعض المحاضرات، لقد تغيرت الأمور فيما بعد وصولاً إلي تأميم القناة ثم حرب 1956.

عدت من أمريكا لتأسيس سلاح المظلات، وقد جاء العدوان الثلاثي علي مصر، وأنا

قائد الكتيبة 75 مظلات، وصدرت لي الأوامر بأن تستعد الكتيبة للهبوط داخل سيناء خلف خطوط العدو، وكان من المفترض أن أقلع بالطائرات عند الفجر، حتي يتم إسقاطي مع جنودي في المطار، وفي هذه الليلة تدخلت القوات البريطانية والفرنسية وضربت المطارات، ودمرت القوات الجوية المصرية علي الأرض، بما فيها الطائرات المعدة لنقلنا إلي سيناء، ولم تعد لنا مهمة كمظلات في الحرب، وعملنا ككتيبة مشاة حتي انتهت الحرب. لقد مثلت حرب 1956 هزيمة عسكرية لمصر، ولكنها انتهت بانتصار سياسي وهزيمة قاسية للعدوان الثلاثي.

الفريق الشاذلي.. وحرب اليمن

رأى الفريق الشاذلي في حرب 1948 نصف هزيمة ونصف انتصار، وقال، إن الجيش الإسرائيلي كان قوامه نحو المائة ألف فرد، بينما كان قوام الجيوش العربية أقل من خمسين ألفاً، وقال: إن الأسلحة الفاسدة لم تكن موجودة علي نحو ما هو شائع، وانها لم تشكل سبباً مهماً في ضعف الأداء، وأوضح أن إسرائيل لم تكن تمتلك طائرة واحدة في هذه الأثناء، وان مصر كانت تمتلك سلاح طيران، وأن بريطانيا قد أسقطت خمس طائرات مصرية في هذه الحرب، ولولا دور بريطانيا لتغير الكثير مما جري.

ثم عرض الفريق الشاذلي لعلاقته بالرئيس عبدالناصر منذ السكن سوياً في عمارة واحدة في مصر الجديدة، ثم طلب عبدالناصر منه الانضمام للضباط الأحرار، وقال الشاذلي إن قائد الخلية التي انضم لها كان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين، ووصف حرب 1956 بأنها كانت تمثل بالنسبة لمصر هزيمة عسكرية وانتصاراً سياسياً.

سألت الفريق الشاذلي عن رأيه في حرب اليمن ومقدمات النكسة، قال: ذهبت في بعثة إلي الاتحاد السوفيتي عام 1958، عدت بعدها إلي مهامي، ثم ذهبت إلي الكونغو قائداً لأول قوة عسكرية مصرية تشارك في مهام الأمم المتحدة، ذهبت إلي الكونغو تحت علم الأمم المتحدة، ولكن أهداف مصر كانت قائمة تحت هذا العلم، وحين اشتدت متاعبنا في الكونغو أرسلت مصر لنا شيكاً بخمسين ألف دولار تم تحويله باسمي في بنك يقع في مقر وجودي لأنفق منه دون قيود، وكان هذا يبعث الثقة في دورنا، حيث كنا نتبع الأمم المتحدة ولكننا نحمل سمعة مصر وسمعة جمال عبدالناصر، كانت مصر تقود حركة التحرر الوطني، وكان اسم جمال عبدالناصر بالغ الشهرة والذيوع، كان بطلاً عربياً وافريقياً واسماً عالمياً بامتياز.

لقد انتهت مهمتي في الكونغو بعد أن استفدت كثيراً من خلال الاحتكاك مع القوات المسلحة الأجنبية هناك، عدت من الكونغو إلي مصر لأذهب بعد قليل ملحقاً حربياً في لندن

عام 1961، حيث قضيت عامين، كنت أحضر خلالهما مناورات الجيش البريطاني وقضيت أسبوعاً علي إحدي حاملات الطائرات، وكانت لي اتصالات مع الأحزاب والقوي السياسية واتهمني اللوبي اليهودي هناك بأنني أتواصل مع شخصيات نازية، وكتبت الصحف البريطانية عن انتهاك الكولونيل الشاذلي للقوانين البريطانية.

عدت إلي القاهرة في 1964 وصدر قرار إيفادي إلي اليمن في 1965، وهناك توليت قيادة لواء، ومكثت بقواتي في اليمن أكثر من عام وعدت قبل أن تنتهي الحرب في اليمن، وبقيت قوات مصرية هناك حتي عام 1967، لقد عانينا كثيراً في اليمن ولكن وجود الجيش المصري هناك مكننا من إسقاط هذا النظام البدائي، وأدي في نهاية المطاف إلي استقلال اليمن والخليج عن بريطانيا، وينتقد البعض الوجود المصري في اليمن تحت دعوي أنه كان السبب في نكسة عام 1967، وهو انتقاد غير دقيق ويعمل علي تسطيح واختصار أسباب هزيمة 1967.

كما أن الانتقادات تمتد إلي ضخامة الإنفاق المصري في حرب اليمن واستهلاك رصيدها من الذهب، وحيث إن قضية الذهب هذه لا تتوافر بشأنها أرقام دقيقة، فإن ما سمعته من الرئيس عبدالناصر هو أنها لم تزد علي الـ40 مليون جنيه شاملاً مجمل النفقات، وهو رقم محدود إذا ما قيس بضخامة الإنجازات، وعلي وجه العموم فإن الرئيس عبدالناصر قد رحل عام 1970 وديون مصر التي خاضت خمس حروب كانت 2 مليار دولار، وعندما توفي السادات كانت الديون قد صلت إلي 18 مليار دولار، ثم وصلت في الوقت الحاضر إلي 75 مليار دولار.

سألت الفريق الشاذلي عن مقدمات حرب 1967 قال: لم تكن الأسابيع السابقة لحرب عام 1967 توحي بأن ثمة حرباً علي الأبواب، فجزء كبير من قواتنا كان في اليمن، وكان اهتمام الرأي العام منصباً علي ما يجري هناك، ولم يرد علي الذهن أبداً أن تكون حرب أخري مع عدو متمرس سوف تنشب بعد قليل.

لم نكن نعتقد بأنه يمكن لنا أن نفكر في خوض حربين من صنعاء إلي سيناء في وقت واحد، ذلك أن قدرات جيشنا لا تمكّن من قتال علي جبهتين، لكن شهر مايو 1967 قد شهد تصعيداً خطيراً وسريعاً علي الجبهة مع إسرائيل، وكان أهم مظاهر هذا التصعيد هو حشد القوات ودفعها إلي سيناء فيما يشبه المظاهرة العسكرية، وقد اعتقدت الغالبية منها أنها استعراضات عسكرية لاغير، وكانت خطة الحشد مرتبكة بحيث تبدو هجومية تارة ودفاعية تارة أخري، وقد خلقت هذه الأجواء حالة من البلبلة لدي أوساط العسكريين عما إذا

كانت هناك حرب أم لا.

كنت برتبة لواء في ذلك الوقت، وقد تم انتدابي من هيئة التدريب لأكون بين القوات في سيناء، وفي النصف الثاني من مايو 1967 تم استدعائي للقيادة، وهناك أيقنت حالة التخبط وارتباك الخطط من طبيعة الأوامر التي تصدر لي، فمرة تأتي الأوامر بالتحرك جهة الشمال، ومرة الزم مكانك، ومرة تحرك إلي هذه المنطقة، وأخري... بل إلي هذه المنطقة!

لقد قطعت سيناء ذهاباً وإياباً عدة مرات، وكانت معي كتيبة دبابات تمشي علي الجنزير ويجري استهلاكها بلا خطة أو سبب.. ثم كان الخامس من يونيو عام 1967!

1967.. الفريق الشاذلي
يحتل موقعاً في إسرائيل!

سألت الفريق الشاذلي عن حرب 1967.. قال: عندما اندلعت الحرب عام 1967 كنت ضابطاً برتبة لواء وكانت مهمتي قيادة مجموعة مقتطعة من وحدات وتشكيلات مختلفة: كتيبة مشاة وكتيبة دبابات وكتيبتين من الصاعقة، وكان مجموع أفرادها حوالي 1500 رجل وكان الجميع يطلقون عليها «مجموعة الشاذلي».

وخلال الأسابيع الثلاثة السابقة علي الحرب، كلفت أولاً بمهمة في المحور الجنوبي ثم ألغيت ثم كلفت بمهمة ثانية في القطاع الشمالي ثم ألغيت ثم كلفت بالمهمة الثالثة والأخيرة وهي التمركز جنوب المحور الأوسط وعلي مسافة 20 كيلومترا من الحدود الدولية، وذلك لمنع وتعطيل أي قوات للعدو تنطلق من مضيق «لصان والعين» وعندما أنهيت استعدادي لتنفيذ هذه المهمة الأخيرة كنت قد قطعت حوالي ألف كيلومتر من التحركات التي أرهقت الجنود وكان لها تأثير سيئ علي كفاءة المركبات والدبابات.

في يوم 4 يونيو 1967 هبطت طائرة الهيلكوبتر في مركز قيادتي وبها ضابط اتصال أخطرني بأن «المشير عبدالحكيم عامر سيعقد مؤتمراً للقادة في الساعة الثامنة صباح باكر في مطار فايد وأن طائرة الهليكوبتر ستتواجد عندك الساعة السابعة صباحاً لتنقلك إلي هناك» وفي حوالي الثامنة من صباح يوم 5 يونيو وبينما كان جميع القادة الميدانيين يتجمعون في مطار فايد بعيداً عن وحداتهم وبينما كانت طائرة المشير عامر في الجو..

بدأت إسرائيل الحرب، وبدأت في قصف جميع المطارات وتدمير الطائرات وهي جاثمة علي الأرض تماماً كما حدث في عام 1956، وقررنا العودة كل منا إلي قيادته، لم أستطع العودة في طائرة الهليكوبتر بعد أن أصبحت للعدو السيطرة الجوية، فركبت مع اللواء عثمان نصار قائد الفرقة الثانية الذي أعطاني عربة أوصلتني إلي مركز قيادتي حوالي الساعة

الثانية بعد الظهر وطوال رحلة العودة، كنا نـري الطـائرات الإسـرائيلية وهـي تجوب سماءنـا ذهاباً وإياباً، دون أن يكون هنـاك أي ظهور لطائراتنـا بمـا كـان يـوحي بحجـم الكارثـة الـتي أصابت قواتنا الجوية.

بعد الوصول إلي مركز قيادتي، حاولت الاتصال بالقيادة دون جدوي، كان الاتصال مقطوعاً بيني وبين القيادة في سيناء، بل وأيضاً بين قيادتي وبين القيادة العامة في القاهرة، فكانت المنطقة التي أتمركز فيها منطقة مفتوحة دون أي هيئات أرضية وبالتالي فإنها يمكن أن تصبح فريسة سهلة لطيران العدو، وكان مضيق «لصان» الذي يقع علي حوالي خمسة كيلومترات داخل حدود إسرائيل يوفر لي الحماية الجوية والأرضية،

فقررت التحرك شرقاً واحتلال المضيق. وقبل غروب يوم 5 يونيو كنت أتمركز بقواتي داخل المضيق وفي خلال يوم 6 يونيو حاولت الاتصال بقيادة سيناء دون جدوي ولم ننجح في الاتصال مع القيادة العامة إلا في الثالثة من بعد ظهر يوم 7 يونيو، وكانت أوامر القيادة واضحة وصريحة «انسحب فوراً.. العدو وراءك الآن».

سألت الفريق الشاذلي عن طريق العودة بعدما تأكدت الهزيمة قال: كان العدو خلال يومي 6 و7 يونيو يرصدني باستمرار جواً وبراً، وكانت طائراته تمر فوق المضيق الذي كان علي شكل حرف «L»، دون أن يقصف قواتي التي كانت في بطن الجبل فإذا أنا خرجت من المضيق نهاراً فسوف تكون فرصة ذهبية لطيران العدو لكي يدمر قواتي وليس لدي أي أسلحة فعالة ضد طيران العدو.. ولهذه الأسباب قررت ألا أبدأ الانسحاب من المضيق إلا بعد حلول الظلام.

وقد فعلتها وكنت صباح يوم 8 يونيو علي مسافة 90 كم شرق الإسماعيلية وقد فوجئ طيران العدو باختفائي من المضيق صباح يوم 8 فأخذ يبحث عني إلي أن وجدني في هذا المكان فأخذ يركز هجماته علينا واستمرت هجماته المتقطعة إلي أن نجحنا في عبور قناة السويس إلي الغرب بعد ظهر يوم 8 يونيو.

سألت الفريق الشاذلي عن تقييمه لمجمل الحرب قال: لم تكن هناك حرب عام 1967 بما تعنيه كلمة حرب، كانت هناك ضربة جوية قامت إسرائيل بتوجيهها إلي قواتنا الجوية، وقد نجحت في تدميرها وتدمير وسائل دفاعنا الجوي في خلال ساعتين، ثم صدر بعد ذلك قرار من القيادة العامة بانسحاب جميع قواتنا إلي غرب القناة، فوصل هذا الأمر إلي بعض

الوحدات البرية ولم يصل إلي البعض الآخر وبدأت القوات البرية عملية انسحاب عام تحت ضغط مستمر من الطيران الإسرائيلي، وعندما توقف إطلاق النار يوم 9 يونيو بعد ستة أيام من بدء القتال، كانت القوات المسلحة المصرية قد أصيبت بهزيمة نكراء.

ورغم مرور اربعين عاماً تقريباً علي هذه الهزيمة فلا تزال المسؤولية تائهة حتي الآن، فالقيادة العامة وعلي رأسها المشير عامر كانت تلقي اللوم علي القيادة السياسية، علي أساس أن القيادة العسكرية كانت تريد أن تبدأ الحرب ولكن جمال عبدالناصر رفض أن تكون مصر هي البادئة بالحرب، ويعترف عبدالناصر بأنه رفض أن تبدأ مصر القتال، ولكن بعد أن أكد له القائد العام أنه إذا بدأت إسرائيل القتال فإن خسائرنا في القوات الجوية ستصل إلي عشرة في المائة، فقال عبدالناصر: إنه أخطر القيادة العامة يوم 3 يونيو بأن إسرائيل ستبدأ الحرب خلال 48 ساعة وهذه الحقيقة يعترف بها أيضاً عبدالحكيم عامر..

إذن فنحن أمام حقيقتين مؤكدتين الحقيقة الأولي هي أن جمال عبدالناصر رفض أن تكون مصر هي البادئة بالقتال. والحقيقة الثانية هي أن عبدالحكيم عامر اخطر جمال عبدالناصر بأنه في حالة قيام إسرائيل ببدء القتال فإن قواتنا الجوية ستتحمل خسائر تقدر بحوالي عشرة في المائة من قدراتها القتالية، ومع كل ذلك فإنه لا يمكن إعفاء القيادة السياسية من المسؤولية علي أساس القول بأن القائد العام للقوات المسلحة أخبرها بكذا فمن واجب القيادة السياسية أن تستجوب القائد العام فيما يقول، وأن تتوسع في استشاراتها لآراء الآخرين.. فإن أمن وسلامة مصر أكبر من أن يوضع في يد واحد أو اثنين أو حتي مجموعة صغيرة من المسؤولين.

ناصر 1957

■ في اكتوبر 1957 أطلق الاتحاد السوفيتى القمر الصناعى «سبوتنيك» ليبدأ عصر الفضاء رسمياً في العالم. وفى ابريل 1957 - أى قبل شهور من ذلك - كانت مصر تعلن المضى في هذا الطريق. قال الرئيس جمال عبدالناصر في أبريل 1957: «إن علينا أن نعيد بناء القوات المسلحة على ضوء تجربتنا في حرب السويس، وهناك مجالات لابد أن ندخل إليها. لابد أن نتمكن من صنع سلاحنا بما فيه الطائرات.. الطائرات قضية أكثر تعقيداً ولابد أن نتعاون فيها مع أحد.. أفكر في الهند أو يوغوسلافيا».

■ أيضاً هناك الصواريخ، هناك علماء ألمان يتخاطفهم العالم بمن فيهم الولايات المتحدة، وقد حاول بعضهم جس النبض معنا.

■ وقد قلت إننا نرحب بهم. هناك واحد بالذات اتصل بنا، ويظهر أنه شارك بشكل كبير في صنع «الصاروخ ف- 2»، وقد وافقت على قدومه إلى هنا. ليست المسألة أن نتمكن من صنع صواريخ أو طائرات، المهم أن هذه المجالات هى تكنولوجيا المستقبل.. ولابد أن نتيح للمصريين التعرف عليها والتخصص فيها.

■ يمضى العالم المصرى د. محمد بهى الدين عرجون، في كتابه «الفضاء الخارجى واستخداماته السلمية» ليقول إن مصر كانت جادة للغاية في هذا الطريق، وأن ما أنجزناه كان مشرفاً وموضع إبهار في العالم.

■ كان الدكتور «عرجون» ضيفى في برنامج «الطبعة الأولى» على قناة دريم، وقد فوجئت به يتحدث بفخر واعتزاز عن تجربة بلادنا في تصنيع الطائرات والصواريخ.. وأساس المفاجأة عندى ما قرأناه كثيراً من كتابات ساخرة تمنحك من الصواريخ المصرية «الظافر» و«القاهر» ومن الطائرة المصرية «القاهرة -200» و«القاهرة - 300».

■ وظنى أن أغلب الكتابات المعادية للرئيس عبدالناصر، إما انها تجاهلت تماماً ذلك النطاق وانصرفت إلى قضايا تنال فيها من تجربة ناصر، أو انها تعرضت لها بنوع من السخرية وقامت برواياتها كما تروى النكات والقفشات، أو انها كانت تبدى الشماتة والتشفى لفشل تلك المشروعات الطموحة في نهاية المطاف.

■ وظنى أيضاً أن أغلب الكتابات المؤيدة للرئيس عبدالناصر كانت تهتف أكثر مما تعرف، وتصيح أكثر مما تستوعب، وتنفعل أكثر مما تدرك!

■ إن جزءاً كبيراً من ذبول الشعبية الجارفة التى كانت للرئيس جمال عبدالناصر هو دور الناصريين انفسهم، الذين تحولوا إلى جماعات تصفيق وزعيق.. ووصلوا في العداء للآخر السياسى إلى أقصى درجات التجريح والتخوين.. فكان أن كره عدد من الناس الرئيس عبدالناصر.. لأنهم يكرهون أنصاره ومريديه!

ناصر 1960

■ كانت «وكالة الفضاء المصرية» بالإمكان.. وكانت خطى العلماء أرسخ وأبعد من خطب الساسة ومزايدات الاشتراكيين الجدد. ما حدث في مصر في مجال العلم في تلك الأثناء كان رائعاً ومشرفاً وعظيماً. اتفقت مصر مع الهند على الشراكة في صناعة الطائرات.. على أن تصنع الهند جسم الطائرة وتصنع مصر المحرك. وتأسست على ذلك مصانع الطيران بأفضل للهندسين المصريين.

■ وفى 9 يوليو 1960 أعلن الرئيس جمال عبدالناصر: «يسعدنى أن أعلن الآن أن أول طائرة نفاثة صنعت في مصر قد طارت بالفعل في الجو العربى عشرة أيام ولأول مرة». ثم قال الرئيس: «إن إنتاجنا منها يكفى حاجتنا وحاجة أى بلد عربى».

■ حكى لى عالم الفضاء المصرى الدكتور بهى الدين عرجون عن معالم مشرقة على طريق النهضة في مجال الطيران والصواريخ في تلك الحقبة الطموحة.. ويروى الدكتور عرجون في كتابه «الفضاء الخارجى واستخداماته السلمية» عما جرى في ذلك الأمل.

■ في 7 مارس عام 1964.. وبعد عمل جاد ومضن تم تطوير المحرك «هـ - 200» ليصبح محركاً نفاثاً لطائرة مقاتلة «القاهرة 200». كما أمكن تطوير المحرك «هـ - 300» وتم تصنيع الطائرة المقاتلة النفاثة «القاهرة - 300». وقال رئيس الوزراء الهندى «نهرو»: «اتفقت مع صديقنا ناصر على أنه إذا كان إنتاج السلاح مهماً.. فالأهم أن نكسر احتكار العلم كما كسرنا احتكار السلاح».

■ لم تكن هذه الإنجازات الضخمة من تلك النوعية التى يلوكها السياسيون ليل نهار.. بل كانت إنجازات حقيقية ومذهلة.. فقد جرى تصنيف الطائرة المصرية «القاهرة - 300» باعتبارها أحدث مقاتلة نفاثة في العالم.. وبها دخلت مصانع حلوان ضمن مصانع

الطائرات العالمية..

و5 يونيو 1967 وقع العدوان على مصر، بعد شهرين من النكسة تحدث البروفيسور «فرديناند براندز»، الخبير الألماني بمصنع الطائرات، إلى مجلة «ديرشبيجل» الألمانية.. قال: «إن الطائرة كان مفروضاً أن تكون جاهزة للعمل تماماً بعد تطوير المحرك. لكن ظروف العدوان أدت للتأخير.. إنني وكل خبراء العالم نعتبر أن هذه الطائرة المقاتلة أخف وأرخص وأبسط أنواع المقاتلات في العالم.. وثمنها ثلاثة ملايين مارك».

■ وفي عام 1975 وصل خطاب مهم من مصمم الطائرات الأشهر «ويلي شميت» إلى اللواء عصام خليل، المشرف على مشاريع الطائرات والصواريخ في مصر في الستينيات.. يقول: «المتحف الألماني في ميونخ تأسس منذ مائة عام وهو رائد المتاحف الأوروبية في عرض مجالات التكنولوجيا المتقدمة، وقد استقر المتحف على عرض أحدث الإنتاج فيه.. وفي المقدمة المحرك النفاث المصري (هـ - ا - 300).

إن المتحف الألماني بميونخ، بمجلس إدارته وخبرائه، درس خصائص المحرك المصري واعتبره واحداً من أفضل المحركات الحديثة في العالم».

بقي القول إن «ويلي شميت» تحمل اسمه أشهر طائرات القتال في الحرب العالمية الثانية. هي إذن شهادة عالمية رفيعة لجهد علمي مصري، كان عالمياً قبل أن يتعثر في أوحال السياسة!

القمر الصناعي المصري 1967

■ لم أقرأ كتاباً واحداً عن صناعة الصواريخ المصرية في الستينيات إلا وكان ساخراً موجعاً وهو يتحدث عن تلك التجربة. كل ما قرأته عن الصاروخ القاهر والظافر كان مجموعة من النكات والتريقة على تلك الصواريخ وعلى صناعتنا الفاشلة.. ولقد شعرت في بعض تلك الكتابات بنوع من الشماتة.. لهزيمة تلك الصواريخ عام 1967.

■ كم أشعر الآن بسعادة غامرة أن تلك الكتابات كانت خاطئة، وأن تلك النكت القاتلة التى أطلقناها حول «القاهر» و«الظافر» كانت نكتاً ثقيلة الظل خفيفة الوطنية.

■ قال لى عالم الفضاء المصرى د. بهى الدين عرجون.. إن مشروع صناعة الصواريخ في مصر كان عظيماً.. وإنه يحق لكل مصرى أن يحزن لنهاية ذلك المشروع، لكنه يحق له أن يفخر بأن بلادنا كانت بهذا المستوى العظيم.

■ ويروى الدكتور «عرجون» في كتابه «الفضاء الخارجى واستخداماته السلمية»: بدأت مصر بالتعاون مع الخبراء الألمان الذين عملوا مع «فون براون».. ضمت مصر طاقما رفيعا من العلماء والمهندسين المصريين إلى جوار العلماء الألمان.. وبدأوا معاً تطوير الصاروخ «ف-2»، وفى 21 يوليو 1962 شهد الرئيس جمال عبدالناصر إطلاق الصاروخين «القاهر» و«الظافر». كان مدى «القاهر» 600كم، وكان مدى «الظافر» 350كم. بعد ذلك تم تركيب الصاروخين معاً في مرحلتين ليكونا صاروخاً واحداً متعدد المراحل، اسمه «الرائد» مداه 1000كم، وقد ظهر في العرض العسكرى يوم 23 يوليو 1963.

■ كان من الممكن تطوير الصاروخ الرائد ليصل إلى حد خرق نظام الجاذبية الأرضية وحمل قمر صناعى إلى مدار حول الأرض!.

■ إن إمعان النظر في التاريخ مهم للغاية.. كان ذلك عام 1963 ولم تكن إسرائيل

تملك صناعة صواريخ على الإطلاق!.

لم يكن هناك من حل أمام إسرائيل الفاشلة سوى تدمير النجاح المصرى، فكانت العمليات القذرة التى قادتها إسرائيل ضد النهضة المصرية.

بدأت إسرائيل حملة إرهاب العلماء الألمان في مصر، وكان أول المستهدفين من العلماء الألمان، العالم «ولفجينج بيلز» الذى كان يعمل مع العالم «فون براون» في الصاروخ «ف-2»، كما تم استهداف عالم الإلكترونيات والتحكم، «كلاينفختر». وقد غادر «بيلز» وزملاؤه بلادنا عام 1965.

■ في الثانى من أكتوبر عام 1967 تحدث «بيلز» و«براون» إلى مجلة «شتيرن» الألمانية وقالا: «كانت إسرائيل تخشى إطلاق قمر صناعى في ذلك الوقت حتى لا يحدث دوى هائل في العالم بأسره.. ويجتمع العالم العربى خلف مصر».

■ ثمة مفاجأة مذهلة في هذا المقام.. إن عالم الصواريخ الألمانى الكبير «بيلز»- الذى غادر مصر عام 1965 بسبب إرهاب إسرائيل خشية إطلاق قمر صناعى مصرى- اختفى في ألمانيا عدة سنوات، ثم توصلت إليه الصين، وأقنعته بالسفر للعمل فيها. ذهب «بيلز» إلى الصين وبدأ العمل في إنتاج صاروخ متطور. وما هى إلا سنوات قليلة حتى كانت الصين قد أطلقت أول صواريخها وبدأت في الانطلاق نحو صناعة كبرى للفضاء!!

فؤاد زكريا.. عصر عبد الناصر

* يحظي الفيلسوف الدكتور فؤاد زكريا باحترام واسع لدي أوساط العقل العربي. تخرج في جامعة القاهرة عام 1949، وحصل علي درجة الماجستير قبل أشهر من ثورة يوليو 1952. ترأس قسم الفلسفة في جامعتي عين شمس والكويت، وله خمسون كتابًا، ويكمل الخريف القادم الثمانين ربيعًا.

* قال لي الدكتور فؤاد زكريا: إذا كانت دعوة المؤرخين الجدد هي إعادة النظر في كل شيء فات، فأنا أري أن ما يحتاج إلي إعادة النظر هو عهد عبد الناصر. لكن ما قبل ذلك لا يحتاج إلي إعادة، لأن الأمور كانت واضحة. ما قبل 1952 كانت فترة مهمة جدًا في تاريخ مصر، وما كتب عنها يفصح عن مزاياها، ومحاولة طمس ذلك عمل خطير.

* طرحتُ سؤال الأستاذ عمرو خفاجي في مقاله للميز «المؤرخون الجدد.. الدعوة والادعاء».. كيف انسحقت شعبية الوفد الجارفة أمام كاريزما عبد الناصر؟.. قال الفيلسوف: كانت شعبية الوفد حقيقية، وكان عبد الناصر يشعر بنوع من الغيرة من شعبية سعد زغلول ومصطفي النحاس، وهي شعبية أصيلة ونابعة من القلب، وليست نتيجة دعاية وتعبئة.

وهذا الشيء كان ينقص عبد الناصر، لكن أجهزة الدعاية سدّت هذا النقص، لقد لعبت الدعاية دورًا كبيرًا في تأسيس شعبية عبد الناصر.

كان دور الملوك قبل عام 1952 دورًا هامشيا، كانت القوة الحقيقية لدي سعد زغلول والوفد، وكان في الوفد تيار اجتماعي يساري كان يمثله عبد العزيز فهمي ومحمد مندور وإبراهيم طلعت، فيما كان يسمي الطليعة الوفدية. وكان من الممكن لهؤلاء أن يصححوا من المسار، وأن يعدلوا اتجاه الوفد إلي طريق تقدمي.

لكن رأت أمريكا وبريطانيا خطرًا في الوفد وفي الطليعة الوفدية. ثم جاءت الثورة التي قطعت الطريق. وجاءت معها أجهزة الدعاية التي صنعت شعبية عبد الناصر واجتهدت في طمس ما قبل عام 1952.

* قلتُ للدكتور فؤاد زكريا.. لكن حرب 1956 كان لها دور كبير في صنع شعبية الرئيس عبد الناصر.. قال: لقد انتهت حرب السويس بنتائج أخفيت عن الشعب كله، وهي السماح لإسرائيل بعبور سفنها من المضايق، وهذا كان شرط إسرائيل، وشرط الجلاء، وهذا الشرط أخفي عن الشعب المصري، ولم نكتشفه إلا بعد حرب 1967.

ثم جاءت بعد ذلك حرب اليمن التي تسببت في غياب الجزء الأكبر من الجيش المصري هناك، وفي ظل غياب الجيش في اليمن قام عبد الناصر باستفزاز إسرائيل بإغلاق مضايق.. فعرفنا وقتئذ أن عبور المضايق كان مسموحًا به لإسرائيل.

لقد استفز عبد الناصر إسرائيل في ظل غياب الجيش.. فكانت 1967. وهي جريمة المسؤول عنها تركيبة النظام السياسي كله، ولا شك عندي أن عبد الناصر كان أكثر مسؤولية عن هزيمة 1967 من مسؤولية الجيش، عبد الناصر هو الذي استفز إسرائيل بطريقة كان يمكن تجنبها ودخل الحرب دون استعداد عسكري للحرب.

وبعد ذلك أصبحت الأمنية التي ينادي بها هي العودة إلي نفس الوضع الذي كان قائمًا في 4 يونيو 1967.. وهذه ليست سياسة، هذه حماقة. أن يكون المطلوب بعد الحرب هو إزالة آثار العدوان، هذا أمر غريب، لأن آثار العدوان هذه كانت مُزالة قبل 5 يونيو 1967!

* قلتُ للدكتور فؤاد زكريا.. هل تغفر حرب الاستنزاف بعضًا مما سبق؟ قال: لا أدري أي نوع من الاستنزاف قد وقع، ولمن وقع هذا الاستنزاف. أنا لا أري فيها حرب استنزاف. ما هو الإنجاز الذي حققناه في حرب الاستنزاف؟ قلت: يمكن اعتبار الإنجاز هو وقف المزيد من الهجوم الإسرائيلي. فتقليل الخسائر هو نوع من الإنجاز. قال: تقليل الخسائر ووقف المزيد من الهجوم ليس إنجازًا.

* قلت للدكتور فؤاد زكريا.. لكن وفاة الرئيس عبد الناصر وخروج الناس حزنا عليه ربما يمثل قراءة أخري لسنوات الثورة والحرب.. قال: خروج الناس هنا لا يفسر من جهة السياسة، بل يفسر من الجهة النفسية، كان عبد الناصر يملأ أشياء عديدة.

كانت الدعاية تؤكد أن عبد الناصر هو الذي يقوم بكل شيء.. ثم يجد الناس أنه

فجأة يختفي.. لقد شعر الناس بفراغ كبير جدًا، مثل الابن الذي يفقد أباه.. إنه اليتم المفاجئ، يتمٌ قاسٍ.. لأن الرجل الذي كان يملأ كل شيء قد غاب إلي الأبد.

فؤاد زكريا.. عصر أنور السادات

.. قال لي الفيلسوف الدكتور فؤاد زكريا: كان السادات فاشستياً، كان فاشستياً قبل الثورة، وبقي فاشستياً بعدها. ولم يكن ديمقراطياً في أي وقت، لكنه كان يريد ان يعطي لعهده شخصية مستقلة عن عهد عبدالناصر. الليبرالية كانت أمراً مفروضاً عليه، لأنه غير الاتجاه من الشرق إلي الغرب، إلي أمريكا.. ولكي يرضي أمريكا كان لابد من بعض الإجراءات التي ينظر لها باعتبارها ،ليبرالية،. أما فكر السادات وتكوينه فهو فاشستي تماماً.. يعادي الليبرالية واليسار.. معاً.

* * *

.. يذهب الدكتور فؤاد زكريا بعد ذلك في معرض تعليقه علي فكرة ،المؤرخون الجدد، إلي الحديث عن حرب أكتوبر والفريق الشاذلي والأستاذ هيكل.

يقول الفيلسوف: كانت حرب أكتوبر حرباً عظيمة ومجيدة، لكن حصار الجيش الثالث وتهديد ثلاثين ألف جندي مصري بالموت عطشاً قد عجّل لاحقاً بمسار التسوية. لقد أوشك الإنجاز العظيم في أكتوبر أن يتحول إلي كارثة، وقد حاول السادات أن يتفاهم مع إسرائيل من أجل حماية الإنجاز.

كان يمكن للثغرة أن تؤدي إلي كارثة أبشع من كارثة عام **1967**.

وفي تقديري.. كان الفريق الشاذلي عموماً افضل من السادات في رؤيته لإدارة الحرب. كان الشاذلي يريد حرباً كاملة، أما السادات فقد كانت عينه علي المفاوضات، لذلك كانت تعليماته قبل الحرب هي الوصول إلي **10** كم فقط شرق القناة.

وعموماً فإن العبور وحسن اداء الجيش كانا كافيين في رأي السادات للوصول إلي المفاوضات، وبالنسبة لأمريكا وإسرائيل كانت الثغرة وحصار الجيش الثالث، كافيين

للوصول إلي مفاوضات. في هذا السياق يمكن القول إن اتفاقية كامب ديفيد كانت حتمية لا مفر منها.

سألت الفيلسوف عن الأستاذ هيكل وخريف الغضب، قال: هيكل صحفي كبير، ومهني بارع، وكان يعطي المعلومات لعبدالناصر الذي كان ضابطاً محدوداً يحتاج إلي شخص يقرأ الإنجليزية، وبهذه الطريقة استطاع هيكل ان يوجه عبدالناصر إلي اشياء كثيرة. هيكل ليس مؤرخاً، ولكنه محرر جلسات كان يسجل الوقائع أثناء وجوده.

لقد كتب هيكل «خريف الغضب» عن زمن السادات، ويعني به خريف الاعتقالات التي قام بها السادات، وأنا رددت علي ذلك وقلت: إن عمر الغضب بدأ قبل ذلك بكثير. لقد حل علينا الغضب منذ أصبح لهيكل كلمة عليا في شؤون البلاد.

فاتن حمامة.. حزب الوفد

.. كان مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بصدد إصدار دورية «أحوال مصرية»، وهي مجلة فصلية تعني بالشأن العام في مصر، قال لي الدكتور محمد السيد سعيد: لماذا لا نفكر في باب ثابت يقدم «شهادات» علي ما جري في مصر؟

قلت: هذا رائع، واقترحت أن يكون جزء من هذه الشهادات لشخصيات لها قدرها ووزنها، ولكنها ليست غارقة في العمل السياسي، أي أنها تملك وجهات نظر بكْر غير مشتبكة مع هذا التيار أو ذلك، فمن شأن تلك العفوية أن تعطي لنا من القول ما يرمّم ما تساقط من الآخرين.. ذاكرةً وضميراً.

.. وكانت فاتن - ذلك أنها حسب تعبير الأستاذ خيري شلبي «أول دم حقيقي يؤرخ للمزاج المصري الخاص علي شاشة السينما المصرية».. وهي حسب الأستاذ سمير فريد «رمز مكافئ لسيد درويش في الموسيقي ومحمود مختار في النحت وأم كلثوم في الغناء».

.. قابلت السيدة فاتن حمامة في منزلها في عمارة ليبون في الزمالك، واستغرق الحوار بيننا ساعات عدة في مرات ثلاث. ونشرت مجلة «أحوال مصرية» الجزء الأكبر من الحوار، وعنها نقلت صحف ومجلات عديدة، واعتمد الدكتور وحيد عبدالمجيد الحوار مرجعاً في كتابه «الوطنية والتكفير السياسي».

.. جاءت فاتن بنت أحمد أفندي حمامة من الطبقة الوسطي المصرية التي ولدت مع الثورة العرابية عام 1881 واكتملت مع ثورة 1919.

ولدت فاتن في بيت يعني بالسياسة والحياة العامة، وشاركت الطالبة فاتن حمامة في المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني.

سألتُ السيدة فاتن حمامة عن البدايات، عن الوفد والسياسة.. قالت: لقد عشت حياتي فنانة تهتم بالإحساس والإبداع أكثر مما تهتم بالتطور السياسي والاقتصادي لمصر. إنني لم اتخرج في السياسة ولم أدرس السياسة ولكني عشت السياسة.. عاشت حولي السياسة.

لم أشارك بالطبع في صنعها، كما لم أكن دائماً قريبة من أصحابها، ولكني عشتُ الحياة التي لا تخلو من السياسة.. وقد عملت نتائج وخلاصات وآراء مما عشت وليس مما تعلمت.

قلت للسيدة فاتن حمامة: نحن جيل كامل بدأ يعيد النظر في السيرة والمسيرة.. ما الذي جرى في بلادنا.. من ثورة 1919 إلي ثورة 1952.. ثم إلي الحاضر الذي يحمل الكثير من آثار الثورتين..

قالت: لقد ولدت في عام 1931.. وبذا فأنا لم أعاصر ثورة 1919، ولكني كنت أسمع عنها في المنزل وأنا صغيرة، وقد توفي سعد زغلول قبل أن أولد، وعاصرت من بعده النحاس باشا ومكرم عبيد وقيادات الوفد الأخري، وليس بإمكاني أن أبدي رأياً في الثورة فضلاً عن أن أقوم بتقييمها.

إنني لم أستوعب وقتها هذه الأحداث الكبري، وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن هذه الحقبة بوضوح ومسؤولية، ولكني عرفت بمرور الوقت.. أن سعد زغلول كان زعيماً عظيماً وأن مصر كلها قد التفت حوله بصدق وحب، وبعد سعد زغلول كانت هناك شخصيات ممتازة من رجال الوفد وقيادات ما قبل الثورة.

يجب ألا نحاسب هذا العهد بالجملة، كان هناك أشخاص علي علم وخبرة، وقد كنت رغم صغري وقتها أحس بهم.. كان هناك علي ماهر والنقراشي وإبراهيم عبدالهادي والنحاس باشا ومكرم عبيد، كانوا قادة متميزين في تفكيرهم ورؤاهم وفي نمط حياتهم وإدارتهم للأمور.

.. ثم مضت السيدة فاتن حمامة تقول: «البيت الذي تربيت فيه لم تكن له ميول وفدية. لم يكن والدي «أحمد أفندي حمامة» متحمساً للوفد، بل كانت عائلتي تميل إلي إبراهيم عبدالهادي، ومما كنت أسمع في منزلنا نشأت ضد الوفد، كنت أكره الوفد».

في تقديري لم تكن فاتن حمامة تكره الوفد علي نحو ما قد يعتقد القارئ، فقد كانت فاتن وعائلة حمامة من السعديين، وهم يمثلون انشقاقاً علي الوفد، واختلافاً مع

النحاس، لذا فهم يعودون باسمهم إلي سعد باشا وليس النحاس باشا.

وكان إبراهيم عبدالهادي هو زعيم السعديين وقد تولي رئاسة الحكومة، وهو من وقع اتفاقية الهدنة المعروفة باتفاقية رودس عام 1949، وفاتن علي ذلك هي من العائلة الوفدية الكبيرة التي أسسها سعد زغلول، ولكنها اختارت لاحقاً جانب السعديين لا جانب النحاس وسراج الدين.

وقد تشربت فاتن حمامة علي نحو بريء كراهية الوفد لصالح السعديين وإبراهيم عبدالهادي وليس ضد المبادئ السياسية العامة للوفد. وتظهر هذه البراءة فيما قالته لي حول شعورها بالضيق من حزب الوفد لأن أخاها كان ضابطاً في الإسماعيلية،

وكان يمكن له أن يموت حينما طلب الوفد منه ومن زملائه أن يتصدوا ببنادق هزيلة لدبابات الإنجليز، وهو الموقف البطولي العظيم للشرطة المصرية في 25 يناير 1952 حيث خاضت الشرطة نضالاً مجيداً ضد الإنجليز. وهو عيد الشرطة إلي الآن.

وكان شقيق فاتن حمامة ضمن هؤلاء الأبطال الذين تصدوا لدبابات الإنجليز، لكن فاتن السعدية كانت تخشي علي أخيها، وتري في الوفد سبباً في هذا الصدام

قالت فاتن: لقد نما عندي الشعور بكراهية الوفد والرغبة في الثورة عليه، قلت لفاتن حمامة: هل تضمنت هذه الكراهية ما كان يثار حول علاقة الوفد بالقصر.. قالت: لم أكن وقتها أفكر في ،كلام كبير، كهذا، إنني لم أكن يوماً قريبة من القصر، وكنت بشكل طبيعي أكره رجال القصر مما كنت أسمعه، لأن الشائعات كانت تملأ الدنيا من حولهم، كانت شائعات كثيرة، ولكنني الآن ربما أكون أقل كراهية لهم، أنا أحلل الأمور بعقليتي لا بما سمعت من شائعات، ورأيي أنه كانت هناك إيجابيات، ولم يكن كل شيء سيئاً.

فاتن حمامة.. عبد الناصر والسادات

.. قلتُ للسيدة فاتن حمامة: إذن أنت كنت من السعديين الذين خرجوا من عباءة الوفد.. ماذا إذن عن فاتن حمامة 1952؟ كيف وجدت الثورة والثائرين؟.. قالت فاتن: استقبلتُ الثورة بالفرح الشديد، صدقناها وخطونا وراءها، كنا نحب محمد نجيب عند قيام الثورة، لقد قدموه لنا بوجهه الطيب السمح.

كنا مع محمد نجيب، ولكن عندما ظهر عبدالناصر غطي عليه وعلينا.. عبدالناصر كانت لديه كاريزما قوية.. وعندما وقع حادث المنشية عام 1954.. التف الناس من حوله وتأكدت زعامته، وقد قرأت مؤخراً في كتاب أن جماعة الإخوان المسلمين كانت وراء الحادث.

لقد شاركتُ في الدعاية للثورة، ذهبتُ مع الفنانين بقطار الرحمة لجمع أموال للمحتاجين، كنا متحمسين ونفعل ذلك بحب وصدق، زرتُ الصعيد وبحري لأجل هذا الغرض، وقدمتُ أفلام الثورة.

.. في عام 1956.. كانت الحرب علي مصر، ودخلت الثورة والدولة في امتحان عصيب، تقول السيدة فاتن حمامة: كان انطباعي وقتها أن بلدي تواجه ثلاثة جيوش (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) وكأي مصري كنتُ متحمسة لأقصي درجة، كنت مؤمنة تماماً بالثورة العظيمة.. ولكنني في داخلي لم آخذ العدوان الثلاثي هذا علي محمل الجد.. لم أتصور وقتها أن الثورة يمكن أن تفشل أو تحتلّ مصر مرة أخري، لقد منحتنا الثورة ثقة كبيرة في انفسنا وفي إمكان تحقيق النصر علي اي عدو، لذا لم أكن خائفة عام 1956.

.. إلي النكسة.. تقول فاتن: كان يوم 5 يونيو 1967.. اسوأ الأعوام علي امتداد العمر، لا استطيع ان أحكي مشاعري، فالحزن والانكسار وحجم الدمار الذي لحق بأنفسنا وذواتنا بلا حدود، لقد اصبتُ بالذهول، لم أصدق ما حدث، شعرت بأنني لم أعد أنا.. كل شيء تحطم في داخلي.. تحطم كبريائي واهتزت ثقتي في كل شيء، لم يكن ممكناً أن أتحدث عن وطني أو

أحلامي.. كنت خارج مصر.. وزادت الضربة حتي أنني لم أعد أعرف ذاتي.. ما الذي يملكه مواطن مصري في الخارج في هذه اللحظة؟.. الدموع.. الحزن.. الإحباط، كراهية كل ما هو موجود.. الثورة والدولة والهزيمة.

هل تصدق أننا كنا نغير جنسيتنا، نعم كنا نفعل ذلك، لقد اختفيتُ من حارسة المنزل شهراً كاملاً حتي لا أراها.. وعندما كنت أقابل الناس بعد ذلك، كنت أقول: أنا تركية! وكان المصريون كلهم كذلك.. الأسمر يقول أنا هندي، والأبيض يقول أنا تركي.

هل تعرف معني ذلك، إنه الانهيار التام.. أن تخفي جنسيتك.. أن تفقد المعني، لم تكن هزيمتنا هي هزيمة جيش في معركة.. بل هزيمة الوطن داخل أنفسنا.. هزيمة الخلايا داخل أجسادنا.

.. تواصل السيدة فاتن حمامة: إن وفاة الرئيس عبدالناصر لم تغط علي الهزيمة، لقد بقيت الهزيمة إلي أن محاها أنور السادات، لكن قبل الهزيمة دعني أحدثك عن الوفاة.. كنتُ علي خلاف الناس جميعاً، كنت حزينة لأن إسرائيل هي التي أسقطته، وكنت أود أن يسقط بأيدينا لا بيد إسرائيل، كانت هناك أخطاء كبيرة وكان جهاز المخابرات يحكم كل شيء، لم تكن هناك حرية ولا حقوق إنسان، وقد أنهي السادات عصر عبدالناصر والروس وإسرائيل في مصر.

يكفي السادات أنه طرد الروس واليهود، طرد الروس عام 1971 وبذا أنهي نصف الاحتلال، وأعد خطة عظيمة لحرب أكتوبر.. كان تخطيطاً سليماً وكان هناك تكتم شديد، وعندما كنت في الإسكندرية وقتها ورأيت حركة الجنود والمركبات لم أفهم شيئاً ولم يكن هناك أحد يعرف أي شيء.. ولما سألت: هذه الدبابات التي تتحرك كثيرة..

فما الحكاية؟ قالوا لا شيء.. وثاني يوم كانت الحرب، كان هناك جنود بقوا في الخنادق عدة سنوات، وكان السادات يقول دائماً عبارة أذكرها.. «حتي ينقشع الضباب».. وقد انقشع الضباب بالفعل.. وأصبحت عيوننا صافية، وعاد للوطن الجريح اعتباره.

يوم 6 أكتوبر 1973 نزلنا سريعاً باتجاه «الهلال الأحمر» في شارع رمسيس، في 1967 كان الكثيرون يخطبون وفي 1973 كنا نعرف مهامنا جيداً.

هند رستم.. ما وراء الفن

.. قالت لي السيدة هند رستم: «أنا لا افهم في السياسة، ولا أحب الفلسفة، ولم يكن لي دور في أي لحظة».

زرتُ السيدة هند رستم في منزلها بالزمالك، في السياق نفسه الذي قابلت فيه السيدة فاتن حمامة، كان الغرض محاولة فهم ما الذي جري في مصر، من قِبَل شخصيات لم تكن منغمسة في الحياة السياسية، وكانت تسمع وتري أكثر مما تروي وتحكي وقد نشرتُ أجزاء مطولة من لقائي بالسيدة هند في دورية «أحوال مصرية» التي يصدرها مركز الدراسات بالأهرام.

تجيد السيدة هند رستم اللغة الإنجليزية وركوب الخيل، أدت فريضة الحج عام 1960، وحازت علي لقب أحسن ممثلة عام 1975، وهي زوجة الطبيب المرموق د. محمد فياض أحد أشهر الأطباء في مصر.

التقت هند رستم بالأستاذ عباس محمود العقاد، وظلت صديقة لأسرة الأديب الكبير إحسان عبد القدوس، وتحتفظ بطابعها الارستقراطي في حياتها الخاصة..

قالت لي هند رستم: «ليس لدينا شباب.. لدينا شباب عجوز، يوجد الكثير من أولادنا أنهوا دراساتهم وجلسوا في بيوتهم بلا عمل، أصبحنا نسمع عن كارثة المخدرات، إنها في كل مكان وبأسعار متفاوتة ترضي كل الإمكانات.. هذا مخيف. من تقبيل اليد والقيام وقوفاً للكبار، إلي ذبح الأم من أجل شقّة.. أنا شديدة الخوف من هذا التحوّل..

وهنا فإنني أفضّل بثّ الروح الدينية لدي الشباب. إننا متدينون بالوراثة فقط، أنا اسمي هند حسين رستم «مسلمة» وهذا اسمه جورج حنا «مسيحي» لكننا لا نعمل بهذه الأديان العظيمة.. لا يوجد لدينا توازن بين الحرية والأخلاق، ولطالما لا يوجد انضباط في الأخلاق

يكون من الضروري اللجوء إلي الدين.

سألتُ السيدة هند رستم.. منذ متي بدا هذا الانكسار؟، قالت: منذ بدأ تطبيق الاشتراكية في مصر، حدث ذلك بعد التأميم، صار الفرد يحصل علي مقابل، سواء عمل أو لم يعمل، نشأت اللامبالاة في القطاعات العامة ، وتفاقمت الأمور إلي حدّ الفوضي.. لقد تغيرت شخصية المصري مع هذه الظروف، المصري الحالي ليس هو المصري.

الصفات الرائعة للمصريين لا تظهر الآن إلا عند الشدة.. كانت الاشتراكية وراء ما جري.. أنا ضد الشيوعيّة، لا أطيقها ولا أطيق الحديث عنها، لا تطلب مني الموت من أجل غيري.. لكي أموت أنا وغيري!

هند رستم.. عن الإقطاع والمخابرات

.. قالت لي السيدة هند رستم: إن الإقطاع لم يكن موجودا، وأن «كرابيج الفلاحين» خرافة، ونفت تماما أن تكون المخابرات العامة في عهد الرئيس عبدالناصر قد تعرضت لأي فنانة، وقالت: إذا كان الأمر كذلك لماذا لم يطلب مني أحد؟.. وقالت إن الثورة كرمت الفن، وأنها التقت الرئيس عبدالناصر.

.. سألت السيدة هند عن الإقطاع وعن الريف المصري قبل ثورة يوليو 1952 قالت: كان الريف أكثر رخاء من الآن، كان لديه اللبن والطيور والحيوانات، يأكل منها ويبيع، كان الزواج فيه سهلا، وكانت «السيغة» - المصوغات الذهبية - واسعة الانتشار وبكثافة، كان الكثيرون من الفلاحين يعيشون عيشة كريمة عكس ما يقال الآن، كان عندنا أرض وكان يعمل بها فلاحون، وهكذا كان جيراننا.

.. لم أر في حياتي واحدا «ماسك كرباج وبيجري ورا فلاح» بل بالعكس، لما كان واحد يموت من الفلاحين كان واحد من كبار العائلة يسافر بنفسه لتقديم واجب العزاء، إن أسطورة «الكرابيج» هذه لا أساس لها، والذي رأيته بعيني ولمسته بيدي يخالف هذه الأكاذيب التي يروجها البعض، كان عندنا أرض في «نوي» قليوبية وأرض في «دمنهور» بحيرة،

ومازالت لنا أرض هناك، ولم أر في حياتي هذا الكلام، الفلاح حينما كان يأتي إلينا كان يلقى كل ترحيب واحترام، إنني أتحدث عن عموم الفلاحين الذين لا يملكون أرضا، أتحدث عن الذين كانوا ينقون الدودة أو اللطع من الأرض، أتحدث عن صغار الفلاحين، كانوا جميعا يرحبون بأصحاب الأرض، ولو أنهم كانوا يكرهونهم ما كانوا فعلوا ذلك، بل كانوا يتبارون في إعداد الطعام الذي يحبّه أصحاب الأرض تكريما لهم.. هذا ما رأيته، كانت بجوارنا عزبة شاكر باشا،

وكانت أمامنا عزبة الحدادين ووراءنا عزبة جلال، في كل هذه الأماكن لم أسمع عن ضرب فلان أو وضع فلان علي شجرة، كان الفلاح - علي عكس هذه الخرافات - يأتي لابسا جلابية بثمن البدلة التي ترتديها.. ،كانت الحتة الزفرة زي الفل، الفلاح عندنا يمتلك كبرياء شديداً.. شديدًا جدًا.. ويقولون كان يهان ويضرب بالقلم! من يجرؤ علي ذلك؟ هذه خرافات.

.. سألت السيدة هند رستم عن ثورة يوليو قالت: رأيت الرئيس عبدالناصر مرة واحدة في حياتي، عندما عملنا لهم فيلم ،رد قلبي، كان يحب أن يري الفيلم في ،ستوديو مصر، مدام آسيا دعت جميع الفنانين، وذهبنا وسلمنا عليه، وكان جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة موجودين، وبرغم أنني عندما سلمت عليه كان متباسطا معنا.. فإنني كنت أخاف من عبدالناصر خوفًا حقيقيا.

الفن قبل الثورة كان الناس يعتبرونه ساحة للأراجوزات، كانوا ينظرون للفنانين نظرة متدنية، والثورة عندما جاءت أعادت الاعتبار للفنان، أصبح الفن عملاً محترمًا والفنان إنسانا كريمًا.. عبدالناصر عمل قيمة للفن وللفنان وهذا حقه بلا جدال.

.. المخابرات والفنانات.. قالت هند: لقد شنعوا علي الثورة، وخوفونا من موضوع ،زائر الفجر، والاعتقالات، كنت أخاف من الثورة من جراء ما أسمع، لكنني وهذه شهادتي.. لم أر هذا أبدا، ولم أسمع عنه فيمن أعرف.

الدولة لم تقم بابتزاز الفنانات، بالعكس.. لقد كرمتني الدولة وسافرت لأمثلها في براغ وبلجراد وامستردام، ومرة كنت في تشيكوسلوفاكيا مع فريد شوقي واحتجنا نقودًا لأن بدل السفر لم يكن يكفي، وقد سهلت لنا الحكومة المصرية ذلك حتي لا نتعرض لحرج الاحتياج ونحن نمثل بلادنا.

إنني اندهش الآن لأن بعض الفنانات تقول، إن أجهزة المخابرات كانت تضغط عليها للعمل معها، إن هذا لم يحدث مطلقا، ولم أسمع عنه بالمرة إلا من بعض الفنانات اللائي تحدثن فقط في السنوات الأخيرة.. إذا كانت المخابرات قد ضغطت علي الفنانات للعمل معها.. لماذا لم يطلب مني أحد.. وأنا هند رستم؟!

هند رستم.. عن الشيوعية والإخوان

.. قالت لي السيدة هند رستم: انا ضد الحرب، وضد مجانية التعليم، وضد الشيوعية ومع الحوار مع جماعة الإخوان المسلمين.

تقول هند: حين زرتُ أوروبا الشرقية في الخمسينيات وجدتها فقيرة.. رأيت طابور الجمعية لأول مرة في حياتي، في البداية كنتُ اتصور انه طابور سينما علي فيلم جماهيري، لكنني عرفت انه طابور جمعية.. وقتها قلت: «يعني إيه جمعية؟».

لم يأتني إحساس وانا هناك بان الشيوعية سوف تنتهي، كنت صغيرة علي هذا التوقع، لكن بعد ذلك كنتُ افكر في إمكانية ان يستمر الناس في معيشة اشتراكية بهذا الشكل.. هذا صعب، لا توجد منافسة ولا ملكية، وانا لو معي «جنيه» لن أزيده، لأنه سيزيد لغيري وليس لي.. لماذا أزيده إذن.. ما هو الحافز؟ ولماذا اتعب روحي.. لا يجوز ان أكافح وأنت تنجب من يحصل علي عائد كفاحي!

.. وتقول هند: انا ضد مجانية التعليم.. إذا انا خرّجت مائة او مائتي متفوق هذا افضل من آلاف يجلسون بلا عمل. في المجانية انت لا تتعب ولا تنافس، وتظل راكدا كسولاً حتي تتخرج.. ثم تكون المشكلة. لقد أخطأت الثورة حين اقرت مجانية التعليم الجامعي.

.. سألت هند عن الحرب والسلام قالت: انا أكره الحرب، وبالنسبة لنا فقد صارت لدينا سفارة في إسرائيل وسفارة لهم هنا، واخذنا كل ارضنا.. اخذناها بعزة وكرامة وشرف، أخذناها بحرب، حرب لا مثيل لها، إذن فقد عاد الحق لنا.

بعد 1967 كنت في إنجلترا أنا وزوجي د. فياض، كنا واقفين علي محطة أوتوبيس وأنا اتحدث معه. وفجأة دخل علينا رجل انيق وسألنا: من اين أنتم؟.. قلنا: من مصر.. وجاءت حكاية الحرب، وقال الرجل: أنا حاربت في العلمين، وكان الأتوبيس قد وصل.. وقف علي

سلم الأتوبيس وقال: أرجوكم أن تحاربوا.. خسارة مصر.. هذا موقف لا ينسي.

.. في 1967 كان الإعلام الرسمي يقول لنا: لقد ضربنا له طيارة، 14 طيارة، 20 طيارة.. كانوا معذورين، لم يكن هدفهم هو الكذب، بل كانوا يحاولون الا يصدمونا نفسياً، كان هذا الكذب إيجابيا، وكان له دور مهم، في عدم تلقي الكارثة مرة واحدة.

في 1973 انقطع الحزن، كنتُ في نفس الشقة في الزمالك، كانت فرحتنا بلا حدود لقد نقلنا السادات إلي الأمام، وحتي اعتقالاته الأخيرة قبل اغتياله كان يستهدف منها حفظ الدولة.

.. سألت السيدة هند رستم عن الحركات الإسلامية واقبال الشباب عليها قالت: هؤلاء أولادنا، يجب سماعهم والحوار معهم، إنهم أبناء البلد، لو لم نسمعهم فمن يسمعهم؟ هم مصريون غاضبون.. يجب أن نعرف لماذا هم غاضبون؟ ولماذا يحمل بعضهم السلاح؟.. لقد واجهت الدولة الذين مارسوا العنف بقوة خشية أن يؤدي الدين إلي الفوضي.. ولكن الآن هدأت الأمور، ويجب أن نفهم ما الذي جري؟

.... إذن فقد قالت السيدة فاتن حمامة إنها نشأت معادية للوفد ومنتمية إلي تيار السعديين مثل أبيها احمد افندي حمامة ولكن هند رستم نشأت وفدية لأب وفدي هو ضابط البوليس حسين رستم. قالت فاتن: عملت افلام الثورة وامنت بها، لكنني كرهت ما جري لاحقًا، وقالت: تمنيت لو كان سقوط عبد الناصر بايدينا لا بيد إسرائيل، وقالت هند: لا صحة لخرافة الإقطاع وكرابيج الفلاحين،

وقالت: إن الكذب الإعلامي في 1967 كان إيجابيا، وأن المخابرات لم تضغط علي أي فنانة.. فاتن وهند قالتا شهادة مهمة حول زمن فائت.. هي جزء من إعادة النظر في ماضٍ لايزال حاضراً.

الشيخ كِشك.. عبد الناصر والسادات

كان الشيخ عبد الحميد كشك أجمل صوت في الخطابة الدينية، كان يملك صوتاً خصباً يانعاً ممتعاً، وقد بلغت روعة أدائه إلي الحد الذي جعله نجماً شهيراً في عالم الكاسيت، وكان الناس يسمعونه كما يسمعون عبدالحليم.. ليس بالضرورة ان يكونوا منتبهين لما يقول ولا متفقين مع ما يري.

وكان رحمه الله خفيف الظل لطيف الحكي، ساخراً موجعاً، مخطئاً ومتجاوزاً.. لكنه ساحر علي الدوام.

ولد الشيخ كشك في شبراخيت بالبحيرة عام 1933، وبدا رحلته في الخطابة مبكراً ومشاغباً.. فأول خطبة ألقاها في مسجد البلدة كانت في التاسعة من عمره وكانت عن ،تحريم الرشوة، وإهمال المرضي في المستشفيات، فقام مدير المستشفي بالشكوي منه إلي مأمور المركز!

.. يتخذ الشيخ كشك موقفاً معادياً للنحاس وعبدالناصر والسادات معاً، وهو إذ يتهم النحاس باشا ومكرم عبيد بالوصولية، وبأن الصداقة بينهما كانت بلا جذور، لذا انقلبت إلي عداء سافر، ويري أن الوصولية نفسها هي ما حكمت علاقة عبدالناصر بالمشير عامر.. فإنه لا يزيد في نقد النحاس عن ذلك، ولكنه يذهب في نقد عبدالناصر إلي أبعد من الخيال!

.. يقول الشيخ كشك: ،كان في المعتقل معنا رجال شاركوا في حرب 1948، وقد أرسلوا إلي الرئيس عبدالناصر يقولون: نعدكم بقتال مخلص ضد إسرائيل، ثم نعود بعدها إلي السجن، فإن نلنا الشهادة فمن الله، فقال عبدالناصر: إن الهزيمة علي أيدي اليهود خير من النصر علي أيدي هؤلاء!

وهو قول غريب لم يذهب إليه أحد من المعاصرين، ولكن الشيخ كشك يمضي قائلاً:

قبل النكسة قالت أم كلثوم «الحفلة القادمة في تل أبيب».

وحين مرت إحدي السفن الأمريكية في قناة السويس قبيل النكسة بأيام، وكانت سفينة حربية ضخمة نشرت الصحف يومها صورة امرأة من منطقة القناة، ترفع حذاءها عالياً بيدها تشير إلي بحارة السفينة كأنها تهددهم بسلاح ذري!

ونقل الشيخ كشك عن موشيه ديان قوله: «بينما كنت أتدرب علي حرب الأدغال في فيتنام كان المشير ورجاله مشغولين بحل مشاكل الأندية الرياضية»!

وينتهي الشيخ للقول «إن حرب 1967 ليست حرب الأيام الستة، بل هي حرب الـ 19 دقيقة.. لقد تم ضرب الطيران في ثلث الساعة وانتهت الحرب»!

ويذكر الشيخ كشك أنه في عام 1966، جاءه مندوب يقول: إن المشير عامر يعلم أن لك شعبية ومحبة في قلوب الناس، وهو يطلب منك أن تحل دم «سيد قطب» ومن معه، ونريد أن نسمع هذه الفتوي في الخطبة القادمة!

ويروي عن زميل في السجن كانوا قد اعتقلوا أبناءه جميعاً، فأرسل التماساً يطلب إبقاء أحد أبنائه ليقوم علي خدمته في بيته، فجاءه الرد: إن سيادة المشير يقول لك: بل أنت الذي تذهب إليهم في السجن ليقوموا علي خدمتك هناك!

وحول حرب اليمن يقول الشيخ كشك: إن مصر أضاعت أربعة آلاف مليون دولار في هذه الحرب، وفي مصر أربعة آلاف قرية، ولو أن كل قرية قد تلقت مليون دولار لصلح حالها!

ثم يصل الشيخ كشك إلي تفسير ديني غريب لعصر عبدالناصر فيقول: كانت سجون 1954 هي السبب في هزيمة 1956، وكانت سجون 1956 سبب هزيمة 1967..!

.. يواصل الشيخ كشك: «ولي السادات حكم مصر بعد أن هلك سلفه، وقد كان امتداداً لمن كان قبله، كان عبدالناصر يجاهر بالظلم وجاء السادات ليقنن الظلم!

ويضيف الشيخ كشك: «إن السادات قال في خطبة له: و«انتو عارفين الشيخ كشك بيعمل إيه».. ولم يقل أنا باعمل إيه»!

«وحين قتل السادات ونحن في السجن هللنا وكبرنا حتي اهتزت جنبات السجن»!

..لقد خرج الشيخ كشك من السجن عام 1982، وكان خروجه من السجن إلي

البيت، وقد كتب مذكراته عام 1986، ومنها السطور السابقة.

.. تمثل شهادة الشيخ كشك - علي الرغم من كونها شهادة انفعالية - نموذجاً لما دعوت إليه سابقا في سياق ،حركة المؤرخين الجدد، من إمكانية الخروج من خريطة الرأي المعتاد، كل من هو مع الوفد ضد الثورة، وكل من هو مع عبدالناصر ضد السادات.. فها هو الشيخ كشك ضد الجميع.. النحاس وعبدالناصر والسادات.

.. رحم الله الشيخ كشك.. كان خطيباً عظيماً، مفكراً محدوداً، سياسياً ضعيفاً.. إنساناً بلا حدود!

خرافة الوثائق!

اتصل بي الكاتب الأستاذ عادل حمودة، معلقاً علي دعوتي لتاسيس ،حركة المؤرخين الجدد،، كانت الدعوة قد مرت بمقال نظري بدأت به الدعوة، ثم مرت الفكرة بشهادات رصينة من وزن الفيلسوف الكبير فؤاد زكريا وعميد المؤرخين يونان لبيب رزق، كما مرت بشهادات بريئة للسيدة فاتن حمامة والسيدة هند رستم، وتفضل كثيرون بالتعليق، وقد أعجبني ما تفضل به الأستاذ أسامة غريب في مقاله في المصري اليوم.

جاء حديث الأستاذ عادل حمودة انقلابيا تماما، ضد المؤرخين القدامي والمؤرخين الجدد بل ضد فكرة التاريخ وعلم التاريخ.

قال لي الأستاذ عادل حمودة: لا يوجد لدينا مؤرخون قدامى حتي يكون لدينا "مؤرخون جدد"، بل لا يوجد أصلا ما يسمي ،علم التاريخ، حيث لا يوجد تاريخ خارج انحيازات السياسة، هو تاريخ من وجهة نظر سياسية في فترة كانت هناك إهانة لتجربة محمد علي وسعد زغلول، جرت إهانتهما باعتبارهما تجارب برجوازية وكانت كلمة ،برجوازية، - حتي بالمعني الليبرالي - كلمة كريهة.

إن إعادة النظر في التاريخ لا تعني بالضرورة تصويب أخطاء بل هي إعادة نظر حسب من ينظر، وحسب توقيت النظر، لقد اعتبرنا الخديو إسماعيل في الماضي سيئا، ولما وجدنا محافظ القاهرة بالغ السوء قلنا، اين ايام الخديو إسماعيل؟!

إن التاريخ مثل الدين يعاد تفسيره كل مرة حسب من يعيد النظر، في الزمن الاشتراكي أخرجنا ،أبو ذر الغفاري، وحين كان الإلحاد شائعا أخرجنا نظرية ،العلمانية في الدين، ولما ساد التطرف كان ،الجهاد، هو الفريضة الغائبة.

* انتقد الأستاذ عادل حمودة شهادتيْ فاتن حمامة وهند رستم، وقال إنها شهادة

مجروحة وشهادة مجهولة. ثم تحدث عن دور الوثائق في كتابة التاريخ قال: من أين يستقي المؤرخون الجدد مصادرهم؟ هل من صحيفة الأهرام، ام من صحف المعارضة؟ كيف ستكون مصر مبارك لو اعتمد المؤرخ علي الأهرام أو الدستور كمصادر للبحث؟

ما هي الوثيقة؟ إنها قد تكون عبارة عن تقرير أمني رفعه زميل لك في الأهرام إلي اجهزة الأمن.. «نما إلي علمي ميله إلي كذا...»

الوثيقة لا تعني بالضرورة أنها صحيحة.. إفرض أن شخصا «غبيا» في السفارة الأمريكية قال: إنك علي علاقة باستراليا يجيء بعد ذلك من يقول إن وثيقة أمريكية تكشف عن علاقتك باستراليا، الكاتب الكويتي محمد الرميحي قال ذات مرة وأنا مع إبراهيم للعلم، إن هيكل تقاضي أموالا من السفارة الأمريكية هل هذا كلام؟ هل يمكن بعد 50 سنة أن احاكم احداً علي كلام فارغ اسمه «الوثائق» وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟!.

اذهب إلي الجامعة وادرس رسائل الدكتوراه في التاريخ ستجد فهارسها من الصحف والمجلات والمصادر الأجنبية كالسفارة الأمريكية، والمؤكد أن السفارة الأمريكية والسفارات الأجنبية عموما فيها كتبة تقارير لهم ميول وانحيازات، ولديهم أخطاء وحماقات. في هذه الحالة لا توجد لدينا وثائق ولا تاريخ.

***

تفضل الدكتور محمد أبوالغار الطبيب والمثقف البارز بتعقيب جاء فيه: «إن فكرة المؤرخين الجدد تستحق التحية والتفكير، ذلك أن تقديم وجهة نظر جديدة وربما مغايرة في بعض الأحداث التاريخية التي يتفق عليها جمهور المؤرخين، سوف يخلق حيوية في النقاش والحوار، وقد يؤدي ذلك إلي ظهور أفكار وآراء جديدة في موضوعات يكون شرحها بطريقة مغايرة، فيه نوع من الاعتداء علي مقدسات تاريخية لا تقبل إعادة التقييم».

ثم تفضل استاذنا الدكتور أبوالغار فاشار إلي كتابي «خريف الثورة» الصادر عن دار ميريت للنشر وقال: «إن الكتاب يمثل دراسة جديدة من نوعها في التاريخ الحديث للبلاد العربية».

ثم طالب د. أبوالغار في رسالة كبار المؤرخين المصريين بأن يدلوا برأيهم في فكرة المؤرخين الجدد.

** وما اختم به هو ان رؤية الأستاذ عادل حمودة بشأن التاريخ والمؤرخين هي رؤية مهمة، وما تفضل به حول «خرافة الوثائق» أوافق عليه كثيرا، فما أكثر أوراق القمامة التي تنشر تحت بند الوثائق والأرشيف.

لقد اعتاد بعض الكتاب أن يثيروا الفزع في قلوب القراء باسم الوثائق، واعتادت الصحف المصرية مؤخرا أن تنشر كتابات ركيكة لصحفيين إسرائيليين ورجال استخبارات إسرائيلية لا قيمة لهم ولا لما يقولون تحت عناوين «نحن نكشف.. ونحن ننشر.. ونحن ننفرد» إن أشهر كتاب يتناقله القراء العرب وسط قناعة كبري بأنه كتاب عظيم هو كتاب «لعبة الأمم» لمايلز كوبلاند.. وهو كتاب تافه لمؤلف ساذج.. لكنها «أسطورة الوثائق»!

من عميد المؤرخين
إلي المؤرخين الجُدد

.. تفضل الدكتور يونان لبيب رزق عميد المؤرخين المصريين بالاتصال بي معلقاً علي دعوتي بشأن «المؤرخين الجدد»، كما تفضل الأساتذة الأفاضل سمير فريد وعمرو خفاجي وفريدة الشوباشي وسعيد الشحات وناصر طاحون.. في مقالات خمسة في «المصري اليوم» وصحيفة «العربي» بالتعليق علي ما نشرت.

.. قال لي الدكتور يونان لبيب رزق: إن هذه الحركة قد بدأت بالفعل، فقد دعاني المهندس إبراهيم المعلم إلي بحث سبل التعاون مع دار الشروق.. وبعد وقت من الدعوة، أسسنا في «دار الشروق» مركز الدراسات التاريخية، ومهمة المركز بالضبط هي ما تدعو إليه، أي إعادة النظر في تاريخ مصر الحديث والمعاصر خارج النظرة الأحادية التي سيطرت علي كتابة التاريخ لعقود طويلة.. وقد شكّلنا مجموعة من أساتذة التاريخ المشهود لهم بالكفاءة والامتياز،

وأصدرنا عن دار الشروق (11) كتاباً تحت عنوان «سلسلة التاريخ: الجانب الآخر: إعادة قراءة للتاريخ».. وهي في مجملها كتب جادة رصينة وجديدة في الموضوع والمضمون، ويعمل علي انتظام السلسلة أربعة من المؤرخين المميزين هم: د.أحمد زكريا، د.حمادة إسماعيل، د.لطيفة سالم، د.محمد عفيفي.

.. ويقول د.يونان: إننا لا نزال نقرأ التاريخ بشكل أحادي، بمعني أن هناك بطلاً وخائناً، وهناك استعمار وحركة وطنية.. لكننا في مركز الدراسات التاريخية نستهدف إعادة تقديم بعض الشخصيات وبعض الأحداث بطريقة جديدة، فالملك فؤاد يعرفه الناس أنه مجرد ملك مستبد، لكن الحقيقة تقول إنه في عهده تم إنشاء «بنك مصر» و«مجمع اللغة العربية» و«مصر للطيران» و«معهد الموسيقي العربية» و«مدينة بورفؤاد»، وفي كتاب الدكتورة

لطيفة سالم «فاروق الأول وعرش مصر.. بزوغ واعد.. وأفول حزين» تقدم المؤرخة المعروفة رؤية جديدة للملك فاروق، وتفرق بين الجزء الأول من عهد فاروق والجزء الثاني منه، وتري أن نصف فاروق الأول يختلف كثيراً عن نصف فاروق الآخر.

.. وينتهي د.يونان للقول: إن من يقول إن التاريخ كُتب بشكل صحيح يكون مخطئاً. وحول من يكتب التاريخ قال: هناك فرق بين المؤرخ المحترف والمؤرخ الهاوي.. وإن كان المؤرخ الهاوي له جمهور أكبر من المؤرخ المحترف.. إن عبدالرحمن الرافعي وهو «هاوٍ» أشهر كثيراً من شفيق غربال مؤسس المدرسة العلمية المصرية في كتابة التاريخ.

.. وهكذا يأتي كلام عميد المؤرخين غير بعيد عمّا ذهب إليه الأستاذ سمير فريد من أن هذه الحركة قد بدأت في مصر فعلاً، وأن الهدف من الحركة المصرية -عكس حركة المؤرخين الجدد في إسرائيل- هو إعادة الاعتبار لفترات تم إهدار الكثير من إيجابياتها بعد ثورة يوليو 1952.

.. وأذكر في هذا المقام أن الأستاذ سمير فريد قد شرفني قبل أشهر قليلة ضيفاً علي الصالون الثقافي الذي أقيمه في منزلي، وأن ما قاله الأستاذ سمير في هذا الصالون كان في مجمله ضمن موجة إعادة النظر هذه، إذ قدم رؤية تمثل «غير المعتاد» في قراءة ما كان من أحداث وأشخاص.

.. في هذا السياق أود القول.. إن حركة المؤرخين الجدد، وقد وجدت الآن لها مدداً في مركز الدراسات التاريخية، إنها تنطلق من خارج الأيديولوجيا، وهي بالتالي تحرث الأرض الميتة من جديد، وهي إذ تحرث فإنها لا تعلم تماماً ما الذي يخرج معها صالحاً أو طالحاً، ولكن الحرث يستهدف يقيناً إعادة الاعتبار إلي الوطن الأم.. إلي مصر.

وإذ تسعي حركة المؤرخين الجدد إلي ذلك، فهي لا تري في الملك فاروق ولا الرئيس عبدالناصر ولا السادات.. نفس ما رآه المؤرخون القدماء، وهي أيضاً لا تري في الوفد والإخوان واليسار، وفي ثورة 1919 وثورة 1952 نفس ما رأته أقلامٌ فضّلت راحة الانحياز وسهولة التقديس أو التدنيس..

وقد كان الغرض من نشر آراء سياسية تخص الماضي علي لسان السيدتين فاتن حمامة وهند رستم، ليس كما تفضلت الأستاذة فريدة الشوباشي باعتبارهما نموذجين للمؤرخين الجدد، ولا لما تفضل به الأستاذ سعيد الشحات باعتبار ذلك توطئة لهدم كثير مما

جري بعد 1952 لحساب ما قبل 1952،

ولا لما رآه الأستاذ ناصر طاحون من أن الهدف هو عبدالناصر، وأن الغرض ربما تعلق بالإساءة للزعيم صورة وسيرة.. إنما يقف الهدف عند الخروج علي النمط المعتاد في البحث والتحليل والنظر في شهادته لأشخاص لم يعملوا بالسياسة وتتسم آراؤهم بدرجة واضحة من براءة القول وبراءة الذاكرة.

.. إن حركة المؤرخين الجدد.. إنما تستهدف القضاء علي الأيديولوجيا وسذاجة الحرب الأهلية الفكرية في بلادنا.. حتي لا تصبح مصر كاورشاليم فترمي أبناءها بالحجارة!

من المؤرخين الجدد
إلي عميد المؤرخين

قبل عام بدأنا الدعوة إلي تأسيس حركة المؤرخين الجدد في مصر، وبدأت الدعوة بمقال افتتاحي نشرته بـ «المصري اليوم»، ثم مرت الدعوة بمقالات وردود، وتوسطتها معارك تحمل خليطاً من الرضا والغضب، كان ظني في البداية أننا إذ ندعو إلي حركة تقع في نطاق الفكر التاريخي أو فلسفة التاريخ أو الفلسفة السياسية.. وهي نطاقات في مجملها تبتعد قليلاً عن مدرسة علم التاريخ في المنهج والغاية، كان ظني أن ذلك سيجعل مما نري ونرغب موضع إنكار من مدرسة التاريخ المصرية، لكن عميد المؤرخين للمصريين د. يونان لبيب رزق، كان رقيقاً وودوداً بلا حدود.

***

قال لي الأستاذ أحمد الزيادي، مدير «دار الشروق»، إن الدكتور يونان يدعوك لحضور اجتماع المؤرخين المصريين الثلاثاء المقبل، ثم جاء الاتصال من المؤرخ الكبير يحمل دفء الأستاذ ورصانة العالم ونبل الإنسان.

قال لي الدكتور يونان لبيب رزق: إنني أتابع ما تنشر حول حركة المؤرخين الجدد، وإنني معجب بالفكرة وبما تسلك وتهدف، وإن كنا نحن قد بدأنا في مركز الدراسات التاريخية في دار الشروق سلسلة كتب ودراسات تمثل، في مجملها، إعادة نظر في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وفيها أعدنا النظر في سير الأشخاص والأحداث، وابتعدنا عما كان معتاداً من أحادية الرؤية.. هذا صواب وهذا خطأ، هذا بطل وهذا خائن، إذ نعتمد في دراساتنا الجديدة علي مصادر وضوابط تفتح آفاقاً أوسع للفهم والحياد.

***

كان عميد المؤرخين د. يونان لبيب رزق يقود نخبة من المؤرخين المصريين اللامعين في إطار عمل فكري عملاق مثلته الكتب التي صدرت وتقارب العشرين كتاباً، كما تمثله الخطط التي وضعت وهي تزيد عما تم وانجز.

ولقد تشرفت بحضور عدد من الاجتماعات، التي كان ينتظم فيها نخبة المؤرخين مع عميدهم في العاشرة من صباح الثلاثاء، وكان في كل مرة التقيه فيها بشوشاً ودوداً.. كان يدرك أن واجبه يتجاوز الجامعة وقاعات الدرس ورسائل البحث، إلي احتضان أفكار وآراء قادمة من علوم أخري وخبرات اخري، حتي لو خالفت المعتاد في علم التاريخ.

كان يدرك أن التاريخ يستهدف الحقيقة، وان الحقيقة تستهدف الإفادة.. تكراراً أو تعديلاً أو إلغاء.. وأن الحقيقة وما تهدف لا ينبغي لها ان تكون عملاً ايديولوجياً.. او عقائدياً.. او مذهبياً، ينتظره المؤمنون بما يؤمنون لا بما يكتشفون.

***

ذات ثلاثاء، لم يجئ عميد المؤرخين إلي اجتماعه الدائم، غاب الرجل العظيم إلي الأبد، رحل واحد من افضل رجالات الفكر والبحث في مصر، قبل عام نشرت رسالته إلينا - في حركة المؤرخين الجدد - واليوم نعيد الرسالة إليه.. رسالة حب ودعاء، رسالة إكبار واحترام، رسالة وعد ألا ننساه.. رحم الله عميد المؤرخين د. يونان لبيب رزق، والهمنا جميعاً الذاكرة والوفاء.

ارتباك

دعوتُ - ولا زلت أدعو - إلي تأسيس حركة المؤرخين الجُدُد في مصر.. وهنا بعض الحيرة.

* تأملتُ طويلاً ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل في حقل التاريخ.. وكنتُ ألجأ إلي كتاباته ملتمساً الرأي كلما ضاقت المعلومة.. أو متقصياً المعلومة حين يختلط الرأي، فوجدته - في حالات عديدة - شاهداً حين يجب أن يكون قاضياً، وقاضياً حين يجب أن يكون شاهداً، وغائباً حين تتعقد القضايا وترتبك الأحكام وتتبدل مواقع الادعاء والاتهام.

وبعد مشروع طويل وصل به هيكل مكانة مرموقة، وجدته - في عبارات عاجلة خجولة - يتحدث بإعجاب عن الرئيس السادات، وداعياً إلي إعادة الاعتبار إليه.. لأنه كان سابقاً لزمانه، وأنقذ مصر من مصير مجهول. وهو قول لم يعد إليه مرة أخري ، ولما نشرته الصحف نقلاً عنه، وهو يحاضر في معهد الإدارة العليا بالإسكندرية.. لم يعلق ولم يوضح.

* وقد مررت علي ما كتبه لطفي الخولي.. فوجدته يقول في خاتمة حياته ما لم يقله في حياته كلها.. من اليسار إلي اليمين ومن المزايدة علي الحرب إلي المزايدة علي السلام!

* ثم وجدت الأستاذ محمد سيد أحمد يتقدم طواعية معترفاً بالارتباك.. يقول: «في كتابي «بعد أن تسكت المدافع».. وقفت ضد التيار وكنت أري أن المصالحة ممكنة، وكان الكل وقتها يرون السلامْ مستحيلاً، وبعد عشرين عاماً رايت في كتابي (سلام أم سراب)، أن التعامل مع إسرائيل من الداخل صعب، والحل هو تغيير موازين القوي عن طريق التعامل مع إسرائيل من الخارج. رايت في الكتاب الأول أن الخلل في موازين القوي لا يفضي بعملية التفاوض إلي سلام معيب، ورأيت العكس في الكتاب الثاني.

* وفيما قبل رأي سياسيون ضرورة القتال ورأي مثقفون تقديم البناء، ثم كانت

نكسة 7691.. وخسر القتال، وانتكس البناء، ورأي السياسيون ضرورة البناء ورأي المثقفون حتمية القتال، إلي ان جاء انتصار عظيم اهمل السياسيون فيه بطولات العسكريين وآراء المثقفين!

وحين زار السادات القدس طالبأ السلام غضب المثقفون، وعندما زار مثقفو حركة «كوبنهاجن القدس» تحت دعوي السلام غضب السياسيون!

* إن المرء لتأخذه الحيرة فيما جري بين حماس وإسرائيل. وكثيراً ما يغلب الشعور بانه لم يكن امام حماس غير ما فعلت، وانه في ظروف تعمل فيها واشتط ضدنا بوضوح، ولا تجد اوروبا غير تصريحات ومبعوثين.. بينما إسرائيل تمضي من مذبحة إلي أخري.. فليس الحل غير ما فعلت حماس.. من تفجيرات واغتيالات، وإلحاق خسائر في الأرواح والأموال.. وضرب السياحة والاستثمارات.. وجعل إسرائيل هدفاً، وكل إسرائيل ساحة حرب.

* وتارة يغلب النظر علي ان ما جري كان خاطئاً بالجملة.. فقد توالي الشهداء والجرحي من المعتقلين، وخسرنا مدناً وبلدات ومخيمات، خسرنا مقومات دولة بكاملها. من وطن بات وطنان وسلطة بات سلطتان.. من رئيس راح مسموماً.. إلي شرطة خسر منها من قاوم وبقي منها من تعاون!

* وتارة أخري يجنح المرء إلي رأي ثالث فيه من القتال وفيه من السلام. ولا يخرج المرء من تلك الآراء المتعاقبة برأي خاتم وتصور حاسم، ففي اقل من ساعة قد يميل إلي الرأي الأول.. ثم يميل إلي الثاني ثم الثالث...!

المؤرخون الجدد من جديد (1)

2009 قال لى الأديب الكبير بهاء طاهر: كان رفاعة الطهطاوى هو فيلسوف عصر محمد على، وأنه لولا الطهطاوى لكان محمد على مجرد ديكتاتور، وأن تميّز التجربة السياسية لمحمد على أساسها تميز التجربة الفكرية لرفاعة الطهطاوى.

كان الطهطاوى هو العقل السياسى الحاكم الذى جعل من النهضة الشاملة مشروعاً للدولة المصرية، ولقد استمر ذلك الوضع الخلاق فيما بعد عقوداً طويلة.. فقد كان الإمام محمد عبده مستشاراً للزعيم احمد عرابى، وكان الأستاذ عباس محمود العقاد هو فيلسوف عصر سعد زغلول بمثل ما اصبح عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين هو فيلسوف عصر النحاس باشا.

لقد فكرت فى طبيعة تلك الثنائيات العملاقة التى صنعت عصر النهضة المصرى.. رفاعة الطهطاوى + محمد على، والإمام محمد عبده + أحمد عرابى، والأستاذ العقاد + سعد زغلول، والدكتور طه حسين + مصطفى النحاس.

كان تنبيه بهاء طاهر لهذه المعادلة البسيطة العميقة بداية سؤال عن الطريق وعن المصير.. ما الذى جرى فى مصر؟ الذى جرى كان بسيطاً وخطيراً.. تراجعت الفلسفة لصالح الصحافة، وتراجع الفكر لحساب الإعلام.. وغاب المفكرون والمنظرون واصحاب الرؤى الكبرى لصالح مثقفى اليوميات وحائزى الأخبار وجامعى القمامة الاجتماعية من أرباب القيل والقال.

لم يعد فى السلطة مفكر واحد، ولا قريب منها مفكر واحد.. وبعد أن كان سعد زغلول يجلس فى انتظار العقاد، أو ينتظر مصطفى النحاس وصول طه حسين.. شاهدت بنفسى عشرة مفكرين ينتظرون رئيس تحرير لا يؤمن بالقراءة ولا بالكتابة ساعتين كاملتين ليمنحهم عشر دقائق!

الذى جرى هو توحش السلطة وانكسار الفكرة.. هو صعود الكاميرا وهبوط الكتاب.. هو استعلاء المنصب وانبطاح الفكر.

كان تونى بلير يفخر بأن مفكراً بوزن انتونى جيدنز إلى جواره.. ولايزال اوباما يردد ان مفكراً بوزن جوزيف ناى يقف وراء افكاره.. وفى مصر سمعت أحد الوزراء يقول؛ لا أريد تنظيراً.. لا اريد تعقيداً.. الفلسفة هذه هى التى اضاعت بلادنا!

المؤرخون الجُدد من جديد (2)

لماذا يقف الناصريون ضد الرئيس السادات على طول الخط؟

ولماذا يقف الساداتيون ضد الرئيس عبدالناصر على طول الخط؟..

لقد أدت هذه المباراة الفقيرة بين الفريقين على امتداد العقود الماضية، إلى إضعاف الفكر السياسى المصرى، كما أدت إلى ضعف المنابر الفكرية والسياسية التى لم تزد على كونها نشرات إعلامية بائسة تروج لهذا المشروع أو ذاك.. ولقد أتت أجيال سياسية على هذه المباراة فاخذت تنحاز يميْناً ويساراً.

وجاء ذلك الانحياز مريحاً لهذه الأجيال، إذ لا يتطلب الأمر لأن تكون ناصرياً أو ساداتياً، أن تكون منقفاً بما يكفى، إذ يكفيك أن تردد عبارات محدودة فى مديح من تحب ونقد من تكره لتكون من ذوى الرأى والرؤية.

وقد أدت تلك المعادلة البسيطة إلى خلق حالة من «توازن الضعف».

ناصريون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطنى للرئيس عبدالناصر، وساداتيون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطنى للرئيس السادات، وأصبح أغلب الأعضاء فى الجبهتين أقرب إلى مشجعين رياضيين منهم إلى مؤيدين سياسيين.

الأمر نفسه ينسحب على ذلك الاستقطاب الحاد بين أنصار الثورة وأنصار ما قبلها..

بين أولئك الذين يعتبرون الثورة مجرد انقلاب عسكرى قام به ضباط مغامرون قطعوا طريق مصر إلى النهضة، وبين أولئك الذين يعتبرون الثورة ميلاداً لشعب كان قبلها من الحفاة العراة!

وتقديرى أن أفضل ما يمكن أن تقدمه حركة المؤرخين الجدد لبلادنا هو تجاوز هذه

البساطة السياسية في التفكير.. وإعادة الكثافة والاتساع للعقل السياسي للمصرى.. وإنهاء حقبة التفسير الكروى للتاريخ.

تلك الحقبة التى تعاملت مع الاجتهادات الوطنية بمنطق الأندية الرياضية!

المؤرخون الجُدُد من جديد (3)

الانحياز ارتياح، والوسطية قطعة من العذاب.. أن تكون واحدًا من جمهور يعرف متى يصفق ولمن يصفق، ومتى يعادى ومن يعادى.. فأنت محظوظ بالولاء.. لا جهد ولا اجتهاد.

أما إن اخترت أن تكون متاملاً ومتعمقًا.. أن تكون وسطيًا في الرأى والرؤية.. أن تنظر إلى الساسة والسياسة عبر ميكروسكوب رباعى الأبعاد.. فأنت واحد ممن أصابهم عناء الاعتدال.. وتقديرى أن ثمة أبعادًا عشرة تمثل بؤس الوسطية وصعوبات البحث البارد لحركة المؤرخين الجدد.

* الوسطية لا وسط لها، فهى تنزاح مع حركة التاريخ وانحناءات الزمن.. ومن بؤس الوسطية أنها لا تملك إطارًا حادًا ولا سورًا واقيًا، ويصعب تحديدها على نحو جامع مانع على قول أهل المنطق، فهى مساحة ممتدة تصل ما بين الانبطاح والانفلات، وما بين الفوضى والجمود.

* ومن بؤسها أيضًا أنها تميل إلى تغليب المصالح، وحيث إن المصالح صائبة وخاطئة.. فإن الوسطية تزداد ترهلاً حتى إن أطرافها لتنال من الشفافية والفساد سواء بسواء.

* ومن بؤسها - ثالثًا - أنها تميل للاعتدال الأخلاقى، فإذا هى غير كافية للذين يريدون للأخلاق أن تكون عذابًا وعقابًا، وهى غير جذابة للذين يقدمون متعة الحياة ورغد السلوك.

* ومن بؤسها - رابعًا - أنها تقيم صلحًا رقيقًا مع الروح، فإذا هى موضع تسفيه من غلاة العقل، وموضع تكفير من غلاة الدين.

* ومن بؤسها - خامسًا - أنها تفسح مجالاً متوازنًا لمقولات من الماضى وأفكار من

المستقبل، فإذا هى رجعية للذين تمتزج تطلعاتهم بالأحلام، وهى ابتداع للذين يجدون في السلف زادًا لا يحتاج إلى مزيد.

* ومن بؤسها - سادسًا - أنها تقبل التفاوض والتراجع بمثل ما تقبل الإقدام والثبات، وهى في ذلك تصطدم مع رؤى الذين يظنون أنهم يملكون عين اليقين.

* ومن بؤسها - سابعًا - أنها تقول الشىء وبعضًا من نقيضه، فكل سياسى له وعليه، وكل سياسة فيها ما يتطلب الاتباع وفيها ما يوجب الإقلاع.

وهنا تصطدم مع الذين يرون مشهدًا وحيدًا من الصورة.. أو جانبًا واحدًا من الحال.

* ومن بؤسها - ثامنًا - أنها تستهدف التطوير لا التثوير، وتمشى بين الجميع سعيًا وراء ما يمكن أن يكون جيدًا وباقيًا، وهى في ذلك غير مقبولة للذين يمسكون بزمام الأمور ولا للذين يجوبون الطرقات عسى أن يمسكوا بطرف من الزمام.

* ومن بؤسها - تاسعًا - أنها واقعية في شؤون الخارج، وتعتمد «الممكن» أساسًا. وهى تتابع يوميات العالم.. وهنا تصطدم مع الذين يريدون تحويل «الممكن» إلى التبعية الكاملة، ومع الذين يطيحون بـ«الممكن» إلى حتمية القتال.

* ومن بؤسها - عاشرًا - أنها تقوم في عمادها على فكرة «التوازن»، وهى أكثر الأفكار صعوبة وارتباكًا، وهى في التطبيق عمل شاق بين أطراف ليس بينها لقاء.

هنا جوانب من بؤس الوسطية.. وهنا صعوبة الطريق الذى ينتظر حركة المؤرخين الجدد.

1967.. هزيمة عادية (1)

■إن أكبر هزيمة ألحقتها إسرائيل ببلادنا هى ترسيخ الاعتقاد بأن هزيمة 1967 كانت أسطورية، وأنها هزيمة لا سابق لها في تاريخ الحروب ولا سير الشعوب، وأن إسرائيل الكبرى سحقت مصر الصغرى في أيام.

لقد بذلت إسرائيل نصف الجهد في تأكيد الأسطورة، أما نصف الجهد الآخر فقد تكفل به عدد وفير من المصريين.. بعضهم كان معادياً للثورة، وبعضهم كان معادياً للرئيس، وبعضهم كان معادياً للمشير، وبعضهم لم يكن معادياً لأحد، ولكنه انهار تحت وطأة ما يرى.

وقد تكفل الجهدان معاً: جهد إسرائيل واجتهاد مثقفينا بفقدان الثقة في كل شيء: في الوطن والجيش والشعب، في كل ما يسمع ويقرأ ويتابع.. أصبحت كل نزعة وطنية ضرباً من البلاغة، وكل جرأة وطنية فاصلاً من الخطابة، وكل رؤية وطنية تحاصرها كل نهايات المؤامرة.

■وبعد مرور عقود على هزيمة 1967، لاتزال الصحافة المصرية تنهل رؤيتها للوضع في مصر ومستقبل السلطة في القاهرة وخريطة التوتر والضعف في بلادنا من الصحافة الإسرائيلية التى باتت مصدراً يومياً لمعرفة المصريين!

■لقد بذل بعض مثقفينا كل الجهد ليؤكدوا لشعبنا ان 5 يونيو 1967 هى آخر الحروب، وانه لا قيامة بعدها، وان كل المحاولات التالية لها كانت جهوداً ناقصة واستعراضات محدودة!

وهكذا صاغت إسرائيل أسطورتها في سحق مصر والمصريين في 1967، ثم واصلت الصحافة والسياسة هنا ما بدأته إسرائيل.. وكلما نسيت إسرائيل قام البعض هنا بتذكريها بالأسطورة، وكلما تراخت إسرائيل في وصف جيشها العادى، كان هناك من يواصلون

الوصف لجيشها الذى لا يقهر ومخابراتها التى لا تهزم.. نجحت إسرائيل فيما أرادت.. أطلقت الأسطورة وسلمتها لمن اخلصوا للخرافة واحسنوا الاستخدام.

■ولأننى من جيل يقدم الوطنية على الأيديولوجيا، ويقدم الأدوار على الأبطال، ويضع المعرفة فوق الأساطير، اجدنى اليوم - وبعد 42 سنة من هزيمة 1967 - أرى فيما جرى، هزيمة عادية.

1967.. هزيمة عادية (2)

لم تحظ الطلعات الجوية المصرية في حرب 1967 بما يليق من التحليل والتكريم.. لقد جرى تصوير الأمر كان إسرائيل إمبراطورية كبرى، وأن الجيش المصرى جرى مسحه من الوجود في ساعات.

وتحفل الكتابات العسكرية الرصينة بنماذج باهرة لطيارين مصريين أدركوا جيداً حجم المأساة.. وشاهدوا بعيونهم آثار الخراب الذى سببه سلاح الجو الإسرائيلى في الطائرات والممرات، ولكنهم مع ذلك انطلقوا بطائراتهم في أعمال بطولية لا مثيل لها. لقد قامت القوات الجوية المصرية بعدد كبير من الطلعات الجوية في يوم 5 يونيو وما بعده.

كانت هذه الطلعات أقرب إلى الأساطير، ذلك أن الضباط الذين قاموا بها، كانوا يدركون أن جيشهم قد انهزم، وأن أرضهم قد احتلت، وأن قادتهم قد أصابهم الفزع بعد الفشل. كان الأبطال المصريون في 1967 أكثر جسارة من نجوم العسكرية الألمانية والبريطانية في الحرب العالمية الثانية.

إن عشرين طياراً مصرياً انطلقوا بطائراتهم في أسبوع النكسة عام 1967، وهم يدركون تماماً أنها عمليات استشهادية، كانوا يعلمون أنهم يحاربون وسط الهزيمة، ويقاتلون بلا مطارات ولا ممرات ولا غطاء.. ومع ذلك انطلق العشرون طياراً بعشرين طائرة في عملية تشبه «عملية بيرل هاربر» التى نفذها الجيش اليابانى في الحرب العالمية الثانية، حيث الانطلاق والقتال مع اليقين الكامل بالموت. ولقد استشهد في هذه الطلعة 19 طياراً ليعود من تلك النخبة من الأبطال طيار واحد.

ولقد حكى لى الفريق سعد الدين الشاذلى، رئيس الأركان في حرب أكتوبر، ما كان من شانه وشان مجموعة الشاذلى في حرب 1967. حدثنى الفريق الشاذلى عن وجوده مع

أكثر من ألف من ضباط وجنود الجيش داخل إسرائيل بخمسة كيلومترات.. أي أن مجموعة الشاذلي تقدمت في حرب 1967 لتحتل مواقع في إسرائيل، ثم قدمت نموذجاً بارعاً في كيفية الانسحاب بأقل الخسائر فيما بعد.

لقد تشرفت - بالتوازي مع هذه السلسلة - بإطلاق مبادرة من خلال برنامج «الطبعة الأولى» على قناة «دريم» تستهدف توثيق وإعلان بطولات يونيو 1967.. وها أنا أكرر المبادرة عبر صحيفة «المصري اليوم».. وإني لآمل أن يتفضل أصحاب هذه البطولات أو عائلاتهم أو شهود بطولاتهم أو القراء الذين تابعوا عبر مراجع ومصادر لم تعد متاحة.. أن يتكرموا بإرسال تعليقاتهم، واعداً إياهم بالاحتفاء والاحتفال.

إن الهدف من إحياء بطولات 1967 ليس فحسب هدفاً وطنياً يعيد الثقة لشعبنا في بلادنا، ويرفع رؤوس أجيال باتت تقرأ لجهلاء وعملاء يحدثونهم عن انكسار مصر في حرب أكتوبر 1973 وعن بطولات إسرائيل في الثغرة، وعظمة قادتها في الدفرسوار.. بل الهدف أيضاً هو إحياء الحقيقة وإزالة الغبار عن أناس حاولوا إضاءة ظلمة يونيو بما قدموا من أرواح وأجساد.. فالشرف لنا ولهم أن نعيد إليهم الاعتبار ونعيد إلينا الاحترام..

1967.. هزيمة عادية (3)

■ لم تكن حرب **1967** حدثاً تاريخياً فاصلاً، كما لم تكن نصراً أسطورياً على النحو الذى ارتآه الفكر الإسرائيلى وارتضاه الفكر العربى، بل إن النتيجة النهائية للحرب، وهى احتلال سيناء حتى قناة السويس، ليست بالنتيجة التى كانت تستدعى كل هذا الانهيار النفسى في بلادنا، لقد بدا الأمر وكأننا أمة لا تعرف ما يكفى عن الجغرافيا أو التاريخ.

ذلك لأن الحروب بطبيعتها هى هزائم وانتصارات وتعادلات.. وأن الأمم العظيمة والدول الماجدة هى تلك التى تحسن إدارة الانكسار بمثل ما تحسن إدارة الانتصار.

قبل عشرين عاماً من حرب **1967**، كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها قبل قليل، وكان من وقائع هذه الحرب ما يزيد عشرات المرات على ما جرى في **1967**.. إن امبراطورية استعمارية راسخة مثل فرنسا جرى اكتساحها في أيام، واحتلت ألمانيا قلب فرنسا في باريس بأسهل مما احتلت إسرائيل أطراف مصر في سيناء، بل لقد وجدت ألمانيا في فرنسا حاكماً عميلاً، وحكومة عميلة، ونظاماً سياسياً كاملاً سقط خائناً تحت أقدام الاحتلال، أما إسرائيل فقد وجدت في سيناء مقاومة عظيمة ووجدت في جيشنا، الذى أخطأ قادته في السياسة والإدارة، بطولات مذهلة وثباتاً مستحيلاً.

ثم إن هذا الجيش الذى اضطرته أخطاء الساسة إلى الانسحاب لم يأخذ ساعة واحدة للارتياح حتى بدأ حرب الاستنزاف المجيدة بعد أيام من الهزيمة.

إن دولة مثل بولندا اكتسحها الجيش الألمانى في يوم واحد، وإمبراطورية عملاقة مثل الاتحاد السوفيتى غزاها الألمان وتمكنوا منها زمناً مهماً حتى ولوا الأدبار، ثم إن دولا مثل كوريا والصين دخلها الجيش اليابانى كاسحاً الأرض وماسحاً ما فوقها ليسقط الملايين دون مقاومة مشرفة.

إن إمبراطورية ثالثة مثل بريطانيا كانت على وشك الهزيمة.. واختفت معالم لندن تحت قنابل هتلر.. ولولا دخول الولايات المتحدة الأمريكية لخرجت بريطانيا وفرنسا من التاريخ!

فى كل الحروب الحديثة كانت الدول تنهار والعواصم تتساقط والعملاء يصعدون.. وتاخذ الأوطان قروناً أو عقوداً حتى تنهض من جديد.

وفى حرب 1967 .. لم تتفكك الدولة ولم تسقط العاصمة ولم يحكم الاحتلال، بل جرى احتلال جزء ثمين من ارض الوطن.. لم يمر على احتلاله اسبوع واحد حتى بدأت حرب التحرير من الاستنزاف وحتى أكتوبر.

لم تكن مصر في اى من الحروب الثلاث 1967 والاستنزاف و1973 تحارب إسرائيل وحدها.. بل كانت تحارب الطائرات الأمريكية والدبابات الأمريكية والذخائر الأمريكية والأقمار الأمريكية والكوادر السياسية والعسكرية الأمريكية.

كان في أمريكا من يقف ضد جنوح إسرائيل، ومن يجد الغيرة الوطنية من صعود اللوبى الصهيونى في واشنطن، ومن يخشى انفلات المنطقة والعالم.. لكن كان هناك من يرى في إسرائيل امتداداً للتراب الأمريكى.

■ لم تكن مصر تحارب إسرائيل وحدها.. بل كانت تحارب إسرائيل ونصف الولايات المتحدة.. معاً.

الفصل الخامس

أشخاص وأحداث

أبي

في مصر.. انسحب النين يعلمون وتقدم النين لا يعلمون، طردت العملة الرديئة العملة الجيدة.

استياس الموهوبون وعلت جراة الجهل، بات نوو الإمكانات يفضلون الانـزواء والابتعـاد، إذا سالت شخصاً موهوباً.. لماذا أنت في مكانـك هـذا.. لماذا وضعك الوظيفي علي هـذا الحال؟.. سوف تسمع عشرات الإجابات اليائسة: احدهم سيقول، لقد بذلت ما في وسعي واضطهدوني، وسيقول ثانٍ، إنهم لم يفهموا حجم قدراتي لأنهم محدودون.

وسيقول ثالث: إنهم حاصروني حتي اغادر وقد غادرت، وسيقول رابع، إنها الكرامـة يـا اخي.. ساترك كل شيء ولا ارفع سماعة الهاتف لأتصل باحد.

والحادث.. أن احداً لن يتصل، بل إن هؤلاء النين بيدهم أمر الاختيار سيكونون اكثر سعادة بانسحاب الموهوبين، ها هو نصر بلا حرب، نصر من تحالف عديمي الموهبة علي النين يعلمون، لن يتصل أحد بمن ينتظر رنين هاتف العدالة، ولن يتصل احد بمن ينتظر رنين هاتف الإبداع.. فلا هاتف للقيم او هاتف للمبادئ او هاتف للوطن يمكن أن يتحرك تلقاء نفسه إلي الرقم المطلوب.

***

كان ابي رحمه الله رجل دين ورعاً، كان يتلو القرآن سراً وجهراً آناء الليل واطراف النهار، وكان يحفظ الفية ابن مالك وعيون التراث ويكاد يتلو امهات الكتب من الاستيعاب والإخلاص، ولكنه لم يفعل شيئاً غير ذلك..

كان يعتقد ان هاتفاً من السماء سيأتيه ويبلغه ما يريد، كان يثق في أن الحياة لا

* نشر هذا المقال في ديسمبر عام 2006

يمكنها ان تمضي علي هذا النحو، وأن قواعد اللعبة لا يمكنها أن تسير بغير منطق، وكنت كلما جادلته في ذلك يقول: إنني اومن تماماً بان ما نفعل من أسباب سيؤدي حتماً إلي نتائج، وما نسلك من طريق سيؤدي قطعاً إلي غاية.

قلت لأبي ذات مرة: وماذا لو لم يحدث اي شيء؟ ماذا لو كنت تنتظر وهماً اسمه العدالة وخرافة اسمها الإصلاح.. ماذا لو استمر اللامنطق يحكم حياتنا، ليسود الجاهلون ويموت العارفون.. يعلو الذين لا يعلمون ويشقي الذين يعلمون.. ماذا لو كانت نهاية هذا العناء هي الموت، ونهاية هذا الصبر هي إسدال الستار لا مفتاح الفرج؟!

* * *

لم اكن بالضرورة في عمري المبكر اعرف تماماً ما الذي كان يريده ابي.. ربما كان يريد الثراء بعد سنين طوال قضتها الأسرة في بساطة متعبة، وربما اختار ابي فكرة الزهد من الفكر الصوفي ليغطي علي فشلنا في إدارة شؤون الدنيا، ربما كان يخشي فشل الرهان في حياة رغدة فاختار احتياطاً إيمانياً يعين علي نوائب الأيام.

وربما كان أبي يريد مكانة ونفوذاً، ذلك انه كان أكبر من حياته وكان اقدر من مساره وكان أعظم من أدائه.. مثل كثير من أبناء جيله الموهوبين..

كانت المسافة بعيدة.. بعيدة بين ما كان وما ينبغي، بين الحياة الدنيا التي عاشوها والحياة العليا التي عاشها رفاق العمر.. وربما كانت حجة «الزهد» بمثابة تهيئة النفس للإخفاق.. وكان الاختيار كان إرادياً من الحياة الأخري إلي الحياة الآخرة!

وربما كان ابي الذي قضي معظم حياته عضوا في جماعة الإخوان المسلمين يعني بهاتف السماء.. وصول الإخوان إلي السلطة، وأذكر مرة زارنا فيها الشيخ أحمد البس مؤلف كتاب «الإخوان المسلمون في ريف مصر» وعضو مجلس الشعب عن الجماعة ما بين عامي 1987 - 1990، قال الشيخ لأبي: لا تقلق يا شيخ محمد، لقد هانت، وإن فرج الله قريب. والأغلب أن الأستاذ البس كان يعني بفرج الله تسلم السلطة، وقد دهشت لأن أبي ربما كان في انتظار هذا الفرج!

وربما لم يكن في انتظار ذلك، وهو مجرد خطاب مجاملات اعتاد الإخوان ترديده في المناسبات والملمات.

وربما كان أبي يعني بهاتف السماء إصلاح حال البلاد والعباد علي نحو ما يأمل أهل السياسة، فقد مرّ بمرحلة حب أولي للنحاس باشا، ثم حب ثانٍ للحركة المباركة ثم حب ناقص للزعيم الخالد، ثم حب جريح للرئيس المؤمن!

وكان أبي مثل عدد من الإخوان المسلمين يقول بكفر الرئيس عبدالناصر، وقال لي: لقد كنت مخطئاً حين بكيت لوفاته ثم زرته في قبره، وقد جادلت أبي كثيراً في ذلك.. ولكنه ظل معتقداً بكفر عبدالناصر حتي قبل وفاته بقليل.

* * *

لقد مضت الأيام والسنون ولا شيء يحدث، لا نحن أصبحنا أثرياء، ولا أبي صار موسراً ونافذاً، ولا الإخوان وصلوا إلي السلطة، ولا تطور حال البلاد والعباد.

وفي مرة زاره متصوفة سمعت بعضهم يحدث الآخر باقتراب زمن المهدي ونهاية العالم.. وقد استشعرت من حديث ضيوف أبي أن الساعة غداً أو بعد غد، وأن في صحبة أبي وحده ألف مهدي ينتظر!

دارت الحياة دورة كاملة.. ومات أبي عن قليل وستين عاماً، وقد اهتزت أركاني لوفاته، ليس فقط لجلال الموت وحنان الميت، ولكن أيضاً لأن طارق السماء لم يجئ، وكان كل انتظار أبي في لا شيء. ظل أبي يشكو عديداً وطويلاً ثم ها هو قد رحل بشكواه إلي الله!

أشعر اليوم بقصص كثيرة تشابه قصة أبي، ملايين المؤهوبين المخلصين الذين لا يفعلون شيئاً غير الانتظار، وملايين الجهلة التافهين الذين اندفعوا ينهلون ما بقي من الوطن.. شرفاء بلا طاقة ولا سند.. وجهلاء لا ينتظرون رنين الهاتف!

عمرو خالد والمخابرات البريطانية (1)

لا أعرف الكثير عن الأستاذ عمرو خالد.. ولكني أجد الرجل حاضرًا في دردشات هائمة ما بين معجب ومُعترض.. ويقول أصدقاء لي يعرفون عمرو خالد إنه رجل مهذب، وإن لديه من المعرفة ما يكفي لما يقول.

البداية

عدتُ من زيارة إلي المملكة المغربية وفي صحبتي عدد من الصحف والمجلات الصادرة هناك، وكان من بينها صحيفة «حصاد الأيام المغربية عدد منتصف ديسمبر **2006**.

وقد أبرزت الصحيفة موضوعًا ساخنًا بعنوان «المخابرات البريطانية تفضّل عمرو خالد»، وقالت إنها تنقل هذا التقرير عن صحيفة «الصنداي تايمز» البريطانية.

يقول التقرير:

«تعتزم المخابرات البريطانية شن حملة لكسب قلوب وعقول المتشددين وأنصار القاعدة الموجودين في بريطانيا، بهدف منع وقوع عمليات إرهابية».. «وسوف تعتمد المخابرات البريطانية علي أئمة معتدلين لتنفيذ الخطة، ومن بين هؤلاء الأئمة الداعية المصري عمرو خالد».. «وسوف يتلقّي عمرو خالد أموالاً من الحكومة البريطانية بموجب هذه الخطة».. «والهدف من الخطة منع الإرهاب من خلال معالجة الأسباب الأساسية. والحدّ من اتجاهات الشباب المسلم تجاه تنظيم القاعدة».

لم تكتف الصحيفة المغربية بما نقلته عن الصنداي تايمز وإنما علقت قائلة: «من المعروف أن عمرو خالد علي صلة قوية بعدد من حكام الدول العربية الحليفة لأمريكا وبريطانيا وهو لا يتطرق في برامجه إلي القضايا العربية والإسلامية، وإنما يكتفي بقضايا مثل الانفتاح علي الآخر.. وهي القضايا التي تسعي المخابرات البريطانية إلي الترويج لها

والتشجيع عليها بين المسلمين.

ما يخصّ عمرو

لدينا في هذا الشان امران اساسيان: امر يخصّ الأستاذ عمرو خالد وامر يخصّ صورة الإسلام في العالم، وما يخصّ عمرو في هذا المقام يحتمل عدة وجوه.. إما أن تكون الصحيفة المغربية قد حرّفت ما جاء في الصنداي تايمز، أو تكون الصنداي تايمز نفسها غير دقيقة فيما نشرت، أو ان تكون للمصادر التي أعطت هذه المعلومات الصحفية إلي الصنداي تايمز مصادر مغرضة تستهدف النيل من مكانة بعض الشخصيات الإسلامية. او يكون إذن الاحتمال الأخير..

وهو صحة كل ما نشر.. اي ان المخابرات البريطانية ستعطي عمرو خالد وآخرين مبالغ مالية لقاء مساعدة الحكومة البريطاية في مواجهة التطرف الإسلامي. وما اعتقده ان عمرو خالد شخص عاقل وحسن السمعة ويتسم بالاعتدال والاتزان، وإذا كان الخبر صحيحًا فمن المؤكد ان لديه وجهة نظر في ذلك، ولو كان الخبر خاطئا فقد كفي الله المؤمنين القتال.

وفي الحالتين.. اي ان يكون الخبر صحيحًا او كاذبًا يتوجب علي السيد عمرو خالد ان يعلن عن موقفه، وان يكون الإعلان واضحًا لا لبس فيه.. هل الخبر صحيح ام خطأ؟ وإذا كان خطأ فعليه أن يرسل بدوره ردًا إلي الصنداي تايمز لأن الخبر- في تقديري- يسيء إلي مكانته ويلحق الضرر بسمعته الأدبية، وإذا كان صحيحًا فهي فرصة للداعية الشاب لكي يشرح لنا وجهة نظره في هذه الشبهات بل هذا اليقين المروّع.

وما يخصنا

نأتي إذا إلي صورة الإسلام ومكانة المسلمين، ولا ادري ما هذا ،الكلام الفارغ، الذي كتبته الصحيفة المغربية، من يقول بأن محاولة كسب عقول وقلوب المتشددين وأنصار القاعدة إلي الإسلام المعتدل هو هدف للمخابرات البريطانية، ومن يقول بأن منع الإرهاب من خلال معالجة أسبابه الأساسية والحدّ من اتجاه الشباب المسلم نحو التطرف هو شأن استخباراتي بريطاني،

ومن يقول بان اهتمام الأستاذ عمرو خالد بقضايا الانفتاح علي الآخر يقع ضمن جدول أعمال المخابرات البريطانية، ومن يقول بأن قيمة التسامح والانفتاح علي الآخر هي من القضايا التي تسعي المخابرات البريطانية إلي الترويج لها والتشجيع عليها بين المسلمين، من يقول

كل هذا الهراء؟!

.... إن هذه الأهداف هي بالأساس أهدافنا نحن لا أهداف المخابرات البريطانية، هي محنتنا نحن، هي أزمتنا، هي كارثتنا.. هي التحديات التي تواجهنا والأهداف التي نبتغيها.

لقد هزمَنا التطرفُ إسلامًا ومسلمين قبل أن يصيب واشنطن أو نيويورك أو لندن أو مدريد ببعض جراح هنا وهناك. أصاب جهلاء المسلمين حفنة أبراج ومحطات ومطاعم خارج العالم الإسلامي، ولكنهم كمن ألقي قنابل نووية علي العالم الإسلامي، كأنهم اعتدوا بمطواة علي قطار يمضي هناك، ولكنهم أطلقوا الرصاص علي رؤوسنا ونحن نيام. تضررت لندن ونيويورك وانهار وضع المسلمين وتدهورت صورة الإسلام!

الأزمة أزمتنا والمصيبة مصيبتنا، فماذا لو جاءت المخابرات البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية أو حتي المخابرات النيبالية وقالت بهذه الأهداف التي أشرنا إليها، أي كسب قلوب وعقول المتشددين وأنصار القاعدة، بهدف منع وقوع عمليات إرهابية، هل يعني ذلك أن نفعل العكس حتي لا يكون أداؤنا مجرد تنفيذ للأهداف الغربية؟ ماذا لو اعتلي رئيس المخابرات الإسرائيلية «الموساد» منصة في مؤتمر صحفي،

وقال: «علي مصر أن تحافظ علي علاقة جيدة بين المسلمين والمسيحيين، وعليها مقاومة نشاط تنظيم القاعدة في أرضها، وكسب الرأي العام من خلال إقرار النهج الديمقراطي وتعزيز الحريات، ومنح المعارضة فرصًا حقيقية للمشاركة السياسية، ودعم علاقة الأجيال الجديدة بالعالم من خلال توسيع فرص البعثات والتعليم في الخارج.. هل يعني ذلك أن من يسعي إلي تنفيذ هذه الأجندة هو منفذ لخطط الموساد في مصر؟!

كان ينبغي علينا لو أننا في وضع رائع أن نقاتل بأنفسنا الخارجين علي هذا الدين، كان ينبغي أن تكون معركة الإرهاب هي معركة المسلمين أنفسهم مع الإرهاب.

كان ينبغي أن نخوض نحن الحرب ضد «الفئة الباغية»، ولكن أن يتصدّر للقتال آخرون لديهم مطامع وأغراض ومصالح ولديهم فوق ذلك رؤي دينية ومذهبية حاقدة وكريهة ضد الإسلام وضد المسلمين، فهذا لا يعني أن الموقف قد تبدّل وأن الخطأ صار صوابًا.

في كلمة واحدة.. لدينا رؤيتنا لبلادنا وديننا أفئن قال بها الآخرون تركناها؟.. لا والله لن يكون.

عمرو خالد والمخابرات البريطانية (2)

اتصل بي الأستاذ عمرو خالد شارحاً وموضحاً ما اثير حول تقرير نشرته صحيفة «الصنداي تايمز» البريطانية، بشأن صورة الإسلام في الغرب.

وكنت قد نشرت مقالاً بعنوان «عمرو خالد والمخابرات البريطانية»، قلت فيه إن صحفاً عربية نقلت عن «الصنداي تايمز» تقريراً للمخابرات البريطانية، يتضمن التقرير تصوراً لحالة الإسلام في الغرب، ولكيفية مجابهة التطرف الديني ونشاط تنظيم القاعدة،

وقال التقرير: إنه ينبغي الاستعانة بالداعية عمرو خالد، لمحاولة ترميم العلاقة بين مسلمي الغرب وبين البلدان التي يقيمون فيها، ولكن التقرير اشار الي ان الأستاذ عمرو خالد قد يحصل علي أموال نتيجة القيام بهذه المهمة.

وقد آثار للمقال تعليقات وردوداً أكتفي منها بما تفضل به الأستاذ عمرو خالد، حيث إن توضيحه جاء وافياً وكافياً.

توضيح من عمرو خالد

نفي الأستاذ عمرو خالد ان تكون صحيفة «الصنداي تايمز» قد نشرت هذا الكلام مؤخراً، وقال: إن واقعة النشر هذه قديمة، كان الاحتفاء وقتها بإعادة النشر مواكباً لغيابي عن مصر، وأما إعادة النشر الآن.. فلا أعرف له معني غير الإثارة الصحفية، ومحاولة النيل من الدور الذي أقوم به، لاسيما أن هذا الموضوع قد انتهي بما قمت به من رد وتوضيح.

ونفي عمرو خالد ان يكون قد أعطي محاضرات في هذا الإطار، نظير مبالغ مالية. وقال: هذا لم يحدث إطلاقاً.. والكل يعرف من يمكنه ان يقبل هذا ومن لا تسمح له قيمه وأخلاقيات بقبول مثل هذه العروض.. وأضاف: إن المخابرات البريطانية أذكي من أن تفعل هذا معي.

.. سألت الأستاذ عمرو خالد: إذن ما الحكاية؟.. ماذا حدث وماذا فعلت؟.. قال: نشرت «الصنداي تايمز» منذ ثلاث سنوات تقريراً يقول: «لم يعد أمام الحكومة البريطانية من حل سوي عمرو خالد».. وقالت إنه لابد لبريطانيا من الاستعانة به في خوض معركتها ضد الإرهاب، فهو الوحيد القادر علي ذلك، ونسبت الصحيفة البريطانية هذا الكلام إلي تقرير رسمي للحكومة البريطانية.

بعدها مباشرة أجري الأستاذ عماد الدين أديب معي لقاء علي قناة الأوربت، ونشر مضمون اللقاء في عدد من الصحف.. وكان هذا الحوار كافياً لإنهاء هذه الزوبعة، لقد طرحت في هذا الحوار ثلاث نقاط أعيدها الآن لكي أوضح من جديد:

.. النقطة الأولي.. نحن كمسلمين نعاني معاناة شديدة من أن وسائل الإعلام الغربية تعرض الإسلام بشكل مشوه، كما أنها تقدم أناساً سيئين، باعتبارهم صورة الإسلام والمسلمين. وعلي ذلك، وحرصاً علي صورة ديننا وصورة المسلمين، يتوجب علينا إحلال الصواب محل الخطأ، ولو أعطيت لنا الفرصة لذلك «أي لتوضيح صورة الإسلام» لكانت فرصة عظيمة.. لا ينبغي أن نتردد فيها، ذلك أن هذا الأمر هو هدف الإسلام ورسالة المسلمين.

.. النقطة الثانية.. تتعلق بفقه الدعوة، فالداعية لا ينبغي أن يشغله عرض الدنيا أو أن يشتري، وفي هذا المقام تحضرني قصة هي شارحة لما أريد توضيحه، كان هناك حاكم وعالم، رغب الحاكم في تطويع العالم واستخدامه، فذهب إلي المسجد حيث يتعبد العالم،

ودخل المسجد إلي حيث العالم ثم قال له: هل لك من حاجة فأقضيها لك، فرد العالم علي الحاكم: إنني أستحي أن أكون في بيته وأسأل غيره، خرج الحاكم ينتظر عند باب المسجد، ولما خرج العالم عاد الحاكم ليسأله: هل لك من حاجة فأقضيها لك؟..

قال العالم: حاجة من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟.. قال الحاكم: بل حاجة من حوائج الدنيا، قال العالم: إنني لا أسألها من يملكها.. أفأسألها من لا يملكها؟!.

هذه القصة حدثت وقائعها في الدولة العباسية، وقد حكيتها في الغرب، لأدلل علي قيم الدعوة في الإسلام، وأنا أقولها بوضوح: نحن قوم لا نشتري.

.. النقطة الثالثة.. تخص التعاون بين المسلمين وغير المسلمين، وفي هذا فأنا مواقفي ثابتة، قبل ما نشرته «الصنداي تايمز» وبعد النشر، إنني أقبل التعاون فيما يفيد الإسلام والمسلمين، والتعاون لا يعني أبداً أن تفرض علي ثقافتك ورؤيتك ومصالحك، وإلا أصبح هيمنة

لا تعاوناً. التعاون والتعايش ليس أن تأخذ أرضي وتستولي علي حقوقي، ثم تطلب التعايش، ليس أن تفرض ثقافة أو نمطاً أو نموذجاً معيناً تحت دعوي التعاون والتعايش.

ما بعد التوضيح

إنني أعتبر رد الأستاذ عمرو خالد علي ما نشر راقياً وكافياً، كما أعتبر ما قاله يمثل نقطة نهاية السطر في هذا الموضوع، وما أعود للتأكيد عليه في هذا المقام.. هو أن مقتضيات الوظيفة الحضارية للإسلام، والدور الحضاري للمسلمين، إنما تتطلب خوض معركة التطرف وحماية الدين من الذين اختطفوه وآذوه،

وسواء تردد هنا أو هناك، أن دولاً أو صحفاً أو أجهزة قالت عن هوي أو غرض قولاً سديداً في هذا الشأن، فلا يمنعنا من قولة الحق وارتياد سبيله إن قال به آخرون ممن نخالف ونعارض، ولو أننا بعافية حضارية لكانت الحرب علي الإرهاب هي حربنا نحن لا حرب الآخرين، فالصمت علي اختطاف الدين خطيئة، والارتباك بشأن الخاطفين جريمة، ولا يغفر التاريخ لمن يفهم متأخراً.

مذكرات رجل عظيم

قال لي سامح الصريطي إن فاروق الفيشاوي يريد أن يتحدث إليك، كنا سويا في حفل عشاء، وكنت قد استسلمت إلى مذاق الطعام واسترخاء اللاتفكير ، قبل أن يقطعهما الفيشاوي قائلاً: لقد انتهيت من قراءة مذكرات الدكتور عبدالوهاب المسيري، وأريد منك أن تنقل تحياتي له وإعجابي به.. وكل ما أرجوه أن تجد وقتا لديه يجمعنا معه.

كان الطلب في ذلك العشاء الفاخر مدهشا، فنان يقدم لي فنانا تاركا جاذبية الحفل، ليحدثني عن مذكرات فكرية وفلسفية رصينة!

والواقع أن ذلك ليس مدهشا، ذلك أن المسيري هو ذلك تماما، هو ذلك الرجل الذي يمكنه أن يخطف كل الأضواء في لحظة واحدة، بل ويخطفها في غيابه بقدر ما يخطفها في حضوره هو الفيلسوف العالم.. المفكر الباحث.. المناضل المسؤول. هو الأستاذ بامتياز، الإنسان بما يزيد.

للذين يعرفون الدكتور عبدالوهاب المسيري والذين لا يعرفون، لا تجعلوا مكتباتكم خالية من هذا الكتاب، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار، وهو كتاب يحوي مشاهد ثرية ورائعة من السيرة غير الذاتية للمفكر الكبير.

والدكتور المسيري بلديات العالم الكبير الدكتور أحمد زويل، كلاهما ولد في دمنهور، وتخرج في جامعة الإسكندرية ودرس في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد سعدت حين أهداني الدكتور المسيري مذكراته لأهديها بدوري إلي الدكتور زويل، وغلبني العجب كيف يكون هذا حال وطني فيه من فيه ممن يملأون البصر ويضيئون البصيرة، وفيه من فيه من يبدعون الفشل ويخلصون الخطيئة! عودة إلي مذكرات المسيري، فقد ترددت فيما يمكن الإشارة إليه والاقتباس منه في هذا العمل

الفريد. وقد اخترت أن نقرأ معا بعضا مما روي المسيري، ففيه وحده دون تعديل أو تحوير ما يشبع ويغني من جوع.

يقول المسيري: «كانت الثالثة ظهرا عند جامع ابن طولون في الأسبوع الأخير من رمضان، ظل السائق الذي يقف ورائي بسيارته يضغط علي الكلاكس ويطلب أن أتقدم «عجلة قدام والنبي أي مسافة صغيرة جدا تعادل مدار عجلة واحدة فقت له: كلنا واقفون، فلم اتحرك هذه المسافة الصغيرة؟ فأجاب: «عشان تديني شوية أمل».
لقد تدهور الأمر تماما مع حفيدي، الذي وقع ضحية الجريمة المنظمة التي تسمي أعياد الميلاد، فإذا كان عدد زملائه في الفصل 25، هذا يعني أنه يحضر 25 عيد ميلاد ويحضر 25 لعبة لزملائه، وهم بدورهم يفعلون الشئ نفسه، وفي عيد ميلاده يصله عدد مخيف من اللعب، يغرق فيها تماما!

◆ في الولايات المتحدة، كنت في سن الأربعين، وكانت إحدي عاداتي أن أجري في الحدائق في المدينة الجامعية لأخفف من حدة التوتر الذهني ولأزيد من لياقتي البدنية. وبينما كنت أعدو، وجدت بعض الشباب في سيارة يقول في سخرية: «اذهب واحرق نفسك»، فلم أفهم ما يقولون، خاصة أن الشباب في المنطقة التي كنا نعيش فيها كانوا مهذبين للغاية، وحينما استفسرت أخبروني أنني في مثل هذه السن لابد أن أعاني مما يسمي أزمة منتصف العمر «بالإنجليزية Midlife Crisis»، التي تعني أن ما تبقي من عمري أقل مما فات، وأنه لا يوجد مجال للتجريب والخطأ، فدهشت كثيرا لأنني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد»!

◆ في مصر.. بلغت تكاليف أحد الأفراح مليوني جنيه، وبعد شهرين بلغت تكاليف فرح آخر سبعة ملايين جنيه «أزهار من إندونيسيا، لحم غزال من سويسرا».. في الوقت الذي لا نعرف أن أحد هؤلاء الرأسماليين الجدد قد تبرع بمثل هذه المبالغ لإنشاء مستشفي أو لدعم إحدي الجامعات.. وقد ظهرت أخيرا ظاهرة «مخرج الأفراح» وهو شخص مهمته تحويل الفرح الخاص إلي استعراض عام، وفي فرح أحد الأثرياء في الإسكندرية قام بتوزيع فيلم فيديو علي المدعوين عن حياته الرومانسية مع عروسه قبل الزواج!

◆ بروتوكولات حكماء صهيون.. وثيقة مزيفة، إن ترويج البروتوكولات يبث روح الهزيمة ويقوض روح الجهاد، وإن الإصرار علي أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها اليهود جيلا بعد جيل يتنافي وتعاليم الإسلام التي تذهب إلي أن الرذيلة مثل الاستقامة مسألة اختيار وليست مسألة ميراث.

- كثير من الأبحاث الجامعية الآن ليست «بحوثا» على الإطلاق، فهي في كثير من الأحيان عبارة عن المادة البحثية الأرشيفية بعد تصنيفها سطحيا، وبعد ترتيبها بطريقة لا تستند إلى منطق!

- لعل هؤلاء لم يسمعوا تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلانا قد حفظ البخاري. فقال: «لقد أضيف إلى البخاري نسخة جديدة»!

نصف عبدالوهاب المسيري..
كان كافياً

قال لي صديقي الدكتور ياسر علوي: يمكن أن نلتقي غداً في المساء، قلت له: ولم لا يكون في الصباح؟.. قال لي في استعلاء هادئ: لأنني سوف التقي الدكتور عبدالوهاب المسيري في الصباح.

ياسر علوي أكاديمي ودبلوماسي مميز، وهو واحد من نخبة الجيل الجديد، الذي عزز من أركان المدرسة المسيرية.

لقد ظللت لسنوات طويلة اتمني صُحبة المسيري، وآمل أن اكون واحداً من المقربين منه.. المستمعين إليه.. المحاورين له.. التعلمين منه.

وقد تفضلت مذيعة الجزيرة الأستاذة «سوزان حرفي» بترتيب اللقاء الأول بيننا، وكانت سوزان في تلك الأثناء تعمل بدأب علي جمع تراث المسيري من حوارات متفرقة زماناً ومكاناً بين دفتيّ كتاب واحد.

***

قابلت أستاذنا المسيري.. فوجدت فضاء شاسعاً من النبل والخلق.. من العذوبة والبهجة.. من المعرفة والدأب.. كان المسيري فيلسوفاً وإنساناً علي قدم المساواة من الفكرة إلي النكتة.. ومن السياسة إلي الحضارة ومن الموسيقي إلي الإيمان.

لم يكن المسيري مفكراً ولا فيلسوفاً ولا صاحب موسوعة ولا صاحب كتب وأبحاث ومقالات ولا رائد مدرسة وأستاذ أجيال وعنوان نضال.. لو لم يكن أي شأن من ذلك.. لكفاه ما

عليه من صفات الحب والأبوة.. حناناً ودفئاً.. نصحاً وإرشاداً.. تشجيعاً ومديحاً.. ظهراً وسنداً.. لطفاً وكرماً.

كان نصف عبدالوهاب المسيري يكفي ويزيد، ولكننا كنا محظوظين، وطناً ومواطنين، ان ذلك الرجل عاش بيننا ذات يوم.

***

إنني لأشعر بفخر وزهو، ذلك ان استاذنا المسيري تفضل علي ذات يوم وكتب مقدمة كتابي «خريف الثورة» الذي أصدرته دار ميريت قبل سنوات. وإني لأعتبر مقدمته الرائعة بمثابة إرث ثمين.. كلما هزمتني الوحشة.. وغلبني الحنين.. اتجهت إليها.

كما أنه تفضل مرة اخرى وكان ضيفي في الصالون الثقافي الذي اقيمه في منزلي بالقاهرة، وحضر مع ضيوفي أربع ساعات كاملة.. في حديث بديع ورصين.

كان الأمل أن يتحول مشروع المسيري بشأن إسرائيل وما قبلها وما بعدها، إلي رؤية وخطط وقرارات.

كان الأمل أن تكون الموسوعة التي اشتهر عنوانها ومات مضمونها أساس مدرسة سياسية واستراتيجية.. تتحدث في البدائل والخيارات، وكان الأمل ان تتحول أعمال المسيري إلي وجهة نظر وطن في لحظة صراع، وأن تكون مقولاته اضواء كاشفة لمواقع الخصم ومواضع الحركة.

***

رحل المسيري ليرفع عن كاهلنا عبء التفكير وثقل الضمير.

رحل الدكتور عبد الوهاب المسيري، وإسرائيل تتدرب علي عبور القناة.. ومصر غارقة في انتخابات نادي الزمالك!

حفل عزاء

كان العمر لحظات، صار اقل، وكانت الحياة اجتماعاً واسعاً يمتلئ نحن آخره بجدول اعمال كثيف، صارت الحياة مجرد تمهيد لاجتماع لا ينعقد، واهداف لا تكتمل وجدول اعمال يجري ترحيل اغلبه إلي دار اخري وآخرة!

واذكر انني التقيت السياسي الفلسطيني فيصل الحسيني وكان المسؤول عن ملف ،القدس في السلطة الوطنية الفلسطينية، كان الرجل مشحوناً إزاء ما يجري في الأراضي المحتلة، وراح يتحدث بمرارة كيف أن إسرائيل لا يمكن الثقة بها ولا حتي الحوار معها، وكيف أنها تعمل ليل نهار من اجل القضاء علي الوجود العربي في القدس، ثم في غير القدس، وكيف.. وكيف.

كانت الشكوي مريرة والحزن عظيماً، ثم قال الحسيني: إنني لن أصمت، سوف نشكو إلي العالم ونكشفهم في كل مكان، سوف نفعل.. ونفعل، وبعد فترة من اللقاء عاد الرجل إلي بارئه يحمل الكثير من الاحباط والأكثر من الرجاء، وقتها كتبت عن الحسيني الذي قابلت ولن اقابل ،فيصل الحسيني.. الشكوي إلي الله.

* * *

مثل فيصل الحسيني كان احمد عبدالله رزه قد راح يشكو في الندوات وللمؤتمرات، ثم في الإذاعات والشاشات، وبينهما في الحواري والعواصم.. ولما زادت الشكوي بحيث لا تكفيها كاميرا ولا يشبعها كتاب.. راح يشكو إلي الله!

كانت شكوى الحسيني من عدو جاء وقتل واخذ، وأما شكوي رزه فمن وطن لم يقتل ولم ياخذ، ولكنه صار قاسياً علي من فيه، شديداً بالمخلصين رحيما بالفاسدين! وقد سمعت الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق يقول: كل ما نخشاه أن يصبح هذا الوطن كاورشاليم فيرمي ابناءه بالحجارة!

إذن فمن هو الراحل العظيم أحمد عبدالله رزة؟.. هو واحد من ألمع وأفضل علماء الاجتماع السياسي في مصر، تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وحصل علي الدكتوراه من جامعة كامبريدج وهو أيضاً صاحب كتابين من أبرز ما انتجت مدرسة العلوم السياسية المصرية هما: «الطلبة والسياسة في مصر»

«الجيش والديمقراطية في مصر»، وهو ثالثاً محاضر عالمي من طراز رفيع حاضر في معظم جامعات العالم الكبري من اليابان إلي الولايات المتحدة، وهو رابعاً نجم نجوم حركة الطلاب في جيل السبعينيات، حيث كان محرضاً وخطيباً ومنظراً وزعيماً، وقد وصلت مهاراته في ذلك إلي الحد الذي أحرج النظام.

وغاظ القيادة السياسية في عام 1972، حيث انتقده الرئيس السادات بالاسم محملاً إياه مسؤولية الإزعاج السياسي في الجامعات.. التي خرجت في أكثر من مائة ألف يطالبون بالحرب. وهو خامساً مؤسس مركز الجيل الذي مثل نموذجا خدمياً خالصاً، خالياً من الفخامة والإبهار ورافضاً - دون مزايدة

- للمنح والمعونات، وهو سادساً الإنسان الدافئ الرائع البشوش والحكاء والبليغ الخلوق. ولكن أحمد عبدالله رزة الذي هو كل ذلك ويزيد، لم يجد مكاناً في أي من الجامعات أو مراكز الأبحاث، ذلك «الكامبريدجي» ذو الثقافة العالمية الرفيعة، ذلك المحاضر من طوكيو إلي هارفارد، مات وخانة الوظيفة في بطاقته.. لا يعمل!

قال لي ضياء رشوان: كانت لديّ صعوبة في أن أعرّفه للناس، وكان المؤسف ألا يعرفه الكثيرون إلا بأنه والد الفنانة بشري!

وقال جمال عبدالجواد: كان بالنسبة لنا رمزا، وكنا في عين الصيرة نتطلع إليه، فقد بدأ حياته ملء السمع والبصر، وأكملها لا يبتغي منها شيئاً لنفسه، كانت حياته من أجل الآخرين، لكن الآخرين لم يفعلوا لأجله شيئاً!

***

كان أحمد عبدالله دائم المناداة بالديمقراطية، ولكن الديمقراطية هي التي خذلته حين رشح نفسه للانتخابات البرلمانية، فقد حصل العالم الذي قضي حياته من أجل كل من حوله علي مئات الأصوات، لم تقف معه الجماهير التي عمل لأجلها، لوأنها لم تذهب لكانت مأساة، لأنه كان عليها أن تذهب وترد الجميل وتصنع المستقبل، ولكنها تجاوزت المأساة.. إذ

ذهبت لتختار غيره ولتمنحه خذلاناً واضحاً وفشلاً بيناً، فقد أعطته أصواتاً لا تليق بانتخابات عائلية أو انتخابات طلابية في مدرسة ثانوية!

راح أحمد عبدالله وقد أطبقت عليه دنيا السياسة.. سلطة وشعبا، نخبة وجمهوراً، راح مرة في غياب الديمقراطية، ثم ثانية في حضورها، اختارت السلطة غيره، حين كان يشرفها أن تكون معه، واختار الشعب غيره حين كانت حاجته أن يكون معه، خذله الذين عمل ضدهم والذين عمل لأجلهم، الذين استعد لهم بالعلم والذين استعد لهم بالعمل، اجتمع عليه جموع الظالمين والمظلومين!

ذهب الرجل الذي حرك أكثر من مائة ألف من أجل الحرب، ثم فشل في تحريك شارع واحد للتصويت من أجل الحياة، ذهب من حصل على الدكتوراة في كامبريدج دون أن تقبله أي من جامعات الدولة أو جامعات الثروة أو جامعات ربات البيوت!

مضي من يحسن الحديث للذين لا يجيدون النطق.

ومن يحسن الكتابة للذين لا يتجاوزون كتابة أسمائهم وأرصدتهم. ومن يفهم في السياسة والاقتصاد ليترك الساحة لقصار القامة عديمي القامات، مضي من يعرف أين نحن من العالم وأين العالم منا ليترك الأمر لشيوخ الحارات وخفراء القري وبائعي الكمبيوتر!

***

حين ذهبت لوداعه الأخير في مسجد السيدة نفيسة، وصلت قبل الظهر بكثير فوجدت جثمانا ينزل من سيارة إسعاف، فحملت مع الحاملين قارئاً وداعياً، ولما انتهت الصلاة وجدت بلال فضل حاملاً للنعش ذاته وغائباً عما حوله، ولكنه لم يكن أحمد عبدالله، لكن شخصا آخر!

أما الراحل الكبير فكان أصدقاؤه قد أسرعوا به عند الصباح. يا إلهي.. لم نجد الفرصة لنعتذر إليه.. حملاً ودعاءً ووداعاً، كانت صلاتنا عن بعد، ودعاؤنا عن بعد، مثل حياته وأهدافه.. كانت كلها عن بعد!

كان عزاء أحمد عبدالله في الحامدية الشاذلية أشبه بحفل سياسي حزين.. ذهبنا نعزي أنفسنا في أنفسنا، ذهبنا نقول للسياسة في مصر: البقاء لله!

مات الفيلسوف

كنت لا أزال طالباً في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وكان من حظي أني تلقيت تدريباً مبكراً في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.. لم نكن نحن المتدربين أو غير المعينين نحظى بالتقدير الكافى.. وفى كثير من الأحوال لم نكن نحظى بأى تقدير.

وسط أجواء نفسية وفكرية غير مثالية، فاجأنى أحدهم بقوله: صباح الخير يا أستاذ أحمد، لم تكن تحية الصباح معتادة في ذلك المكان البارد، ولم تكن صفة أستاذ لتتوجه إلى طالب متدرب بأى حال.

كان صاحب التحية هو الفيلسوف السياسى المصرى الدكتور محمد السيد سعيد، ومن تلك اللحظة الدافئة بايعته أباً وأخاً وأستاذاً.

مرت سنوات طويلة على تلك المبايعة القلبية للدكتور محمد السيد سعيد.. لم يخذلنا فيها قط.. لم يفقد من الأبوة سطراً واحداً، ولا من الأخوة موقفاً واحداً، ولا من الأستاذية رأياً واحداً.

عاش الفيلسوف السياسى محمد السيد سعيد سيّداً وسعيداً.. سعيداً بنا وسيّداً علينا.

كان أساس السعادة لديه ذلك الإيمان الكبير بإمكانية النهضة، والأمل الواسع في إنجاز مشروع حضارى.. كان محمد السيد سعيد مؤمناً إلى حد اليقين بأنه بالإمكان أبدع مما كان، وأن مصر إذ شهدت في حالات كثيرة نهاية السياسة لم تشهد في أى لحظة نهاية الإنسان.

وكان أساس السعادة ذلك الحب الفياض الذى يرهقنا حرجاً وخجلاً أن قلباً بهذا الاتساع يعيش بيننا.. لقد وجدت ذلك الحب في شقيقه المبدع الرائع «سيد سعيد» وفى ابنه الودود الخلوق «مروان» وفى زوجته الجليلة الصابرة نور الهدى زكى، وفى زيارات القادمين إليه من بورسعيد، وفى عيون كل الذين وجدوا في مكتبه في الطابق الحادى عشر بالأهرام

منزلاً وموئلاً.

وكان أساس السيادة لديه أنه تجاوز بالعلم كل منصب.. لم يقل غير ما يريد.. خرج من السجن دون أن يدخل رغد الحياة.. لم يكن أسيراً عند أحد.. ولا حتى أسيراً عند نفسه.. كان فقط أسير الأمل والوطن.

لقد اختار الفيلسوف محمد السيد سعيد أن يبدأ نضالاً أوسع باتجاه الأمل.. فكانت صحيفة البديل، التى توقفت قبل أن يتوقف، وانهزمت قبل أن ينهزم وكان القدر قاسياً، حيث تآكلت أحلامه مع تآكل خلاياه.. لا أمل ولا وطن.. عاش تحالف عديمى الموهبة ومات الفيلسوف.

مصطفى مشرفة.. مصر سابقاً (1)

وسط القضايا الصغرى التي تشغل «مصر الآن».. أحدثكم اليوم عن «مصر سابقاً»، عن العالم الجليل د. مصطفي مشرفة.

قال لي الدكتور أحمد زويل: «كان مصطفي مشرفة عالماً عظيماً، وكان على مستوي حركة العلم في العالم.. ومن المؤكد أن اسم مصطفي مشرفة يدعو للفخر والزهو».

لا تعرف الأجيال الجديدة ذلك النموذج العظيم في تاريخنا المعاصر، فقد طغت السياسة على الثقافة، وطغت الصحافة على السياسة.. وطغي الجميع على مقام العلم ومقامات العلماء. احتل أشباه الناس وصغار البشر ما كان ينبغي أن يكون للذين يعلمون، والذين يعملون!

* ولد العالم الكبير د. مصطفي باشا مشرفة في دمياط عام 1898، وتوفي في القاهرة عام 1950، وما بين الشروق والغروب، قطع د. مشرفة مسيرة مذهلة. كان مشرفة أول الشهادة الابتدائية في القطر المصري، وثاني القطر في الثانوية العامة «البكالوريا». تخرج في مدرسة المعلمين العليا 1917، وحصل علي البكالوريوس في الرياضيات من جامعة لندن عام 1920، ثم حصل علي دكتوراه العلوم، ليصبح العالم الحادي عشر علي مستوي العالم، الذي حاز دكتوراه العلوم، ثم ليصبح عضواً في الجمعية الملكية البريطانية، وواصل أبحاثه تحت إشراف أستاذه السير «ريتشاردسون»، أكبر علماء الطبيعة في عصره.

يقول د. محمد الجوادي، في كتابه «مشرفة بين الذرة والذروة»، إن د. مشرفة تقدم بأوراقه إلي الجامعة المصرية عام 1925، ليصبح أستاذاً في كلية العلوم، ولكنه كان في السابعة والعشرين من عمره، فتم تعيينه أستاذاً مساعداً، وكان عميد الكلية «بينجام أقل درجة علمية منه!».. عمل مشرفة بعد ذلك أستاذاً للرياضيات التطبيقية، ثم وكيلاً لكلية العلوم، ليصبح أول عميد مصري لكلية العلوم.

* حين تولي د. مشرفة عمادة كلية العلوم جعلها عالمية، واشترط للترقية إلي أستاذ مساعد الحصول علي درجة دكتوراه العلوم.. أي أن أي استاذ مساعد هو بالضرورة ذو مستوي علمي عالي، ثم استأنف مشرفة إرسال البعثات العلمية للخارج. ينقل د. الجوادي عن د. محمود حافظ أن مشرفة قال له، وهو في سبيله إلي البعثة، «اجتهد، فإنما نعدك لتكون عالم الحشرات الأول في مصر»، وقد كان!

* كان مشرفة يدعو كبار العلماء للمحاضرة في مصر، وحين كان البروفيسور «ساها» - وهو عالم هندي بارز حاصل علي جائزة نوبل - في طريقه لإنجلترا ماراً بمصر، ما أن علم مشرفة بالخبر حتي أخذ يبحث عنه حتي وجده في أحد الفنادق، فدعاه إلي إلقاء محاضرة في كلية العلوم.

وفي عام 1949 أقامت كلية العلوم معرضاً للطاقة الذرية، بعد أن حصل علي موافقة جمعية علماء الذرة الإنجليز علي إعارة المعرض.

* اختارت الحكومة الأمريكية مشرفة عضواً في اللجنة الدولية للأبحاث الذرية، ثم دعته جامعة برنستون لإلقاء سلسلة محاضرات عن الذرة، وكانت جامعة برنستون آنذاك تضم أعاظم العلماء: أينشتين وليدز ويوجين.. وهم الأعمدة الرئيسية الثلاثة في مشروع مانهاتن للذرة، الذي أقامه ايزنهاور عام 1939 .

* في عام 1932 نشر مشرفة بحثه العظيم «هل يمكن اعتبار الإشعاع والمادة صورتين لحالة كونية واحدة؟».. وأثبت أنهما كذلك، وبذلك أصبحت قاعدة: «المادة والطاقة صورتان لشيء واحد، هي: «المادة والطاقة والإشعاع صور ثلاث لشيء واحد»، وبهذا البحث الذي لقي استقبالاً علمياً كبيراً، أضاف مشرفة مفهوماً جديداً للعلم.

* نشر مشرفة بحثاً في مجلة «NATURE» العالمية المرموقة، وفي عام 1937 نشر بحثاً مهماً عن معادلة ماكسويل والسرعة المتغيرة للضوء. أما بحثه المثير فقد نشره عام 1948 عن «نقص المادة».. وقبل وفاته بثلاثة أشهر نشر بحثاً مميزاً بعنوان «النقص في كتلة نواة الذرة».

* يقول الكاتب الأستاذ مصطفي أمين، في مقدمته لكتاب الدكتور الجوادي: «عرفت الدكتور مصطفي مشرفة سياسياً وشاعراً وفيلسوفاً وأديباً.. قبل أن أعرفه عالماً.. كنت أحس معه بأنني في حضرة دائرة معارف من عدة أجزاء، كل جزء متخصص في فن من الفنون، أو

علم من العلوم.. ،كان رأي مشرفة أن تكون الجامعة مستقلة تمام الاستقلال، لا ترضخ لسلطان ولا لوزير، وكان يضيق بتدخل الوزارة في شؤون الجامعة، وكان يقول لي: ،إن تدخل الحكومة في الجامعة يحولها إلي مدرسة ثانوية!... ،وكان يري أن العلم إذا فقد حريته واستقلاله اضمحل ومات، ولهذا يجب أن يكون العلم في خدمة الشعب، لا في خدمة الحكومة،.

** ها قد فهمنا ما نحن فيه.. الجامعة المصرية 2007.. لا علم ولا حرية!

مصطفى مشرفة.. مصر سابقاً (2)

قال أينشتين حين علم بخبر وفاة العالم المصري الكبير د. مصطفى مشرفة: ،كلا كلا.. لا تقولوا إن مشرفة مات.. إنها خسارة جسيمة،.. وقد نعت الإذاعة في أمريكا مشرفة على أنه ،واحد من الذين يعرفون أسرار الذرة،.. ويقول د. محمد الجوادي في كتابه الرائع ،مشرفة بين الذرة والذروة، إن شقيق مشرفة كان في امريكا ولم يعلم بنبأ وفاة أخيه إلا من الإذاعة قبل أن يصله الخبر من مصر.

توفي العالم الكبير في 16 يناير عام 1950، واتشحت جامعة القاهرة كلها للمرة الأولي بالسواد، صلي عليه شيخ الأزهر، وخطب في حفل تأبينه د. طه حسين.

كان مشرفة باشا صديقاً لطه حسين وأحمد لطفي السيد وتوفيق الحكيم، وكان صديقا لمصطفي النحاس وأحمد ماهر ومكرم عبيد. وينقل الجوادي عن توفيق الحكيم رأيا يمثل خلاصة ،نجاح مشرفة وفشل مصر، يقول الحكيم في رسالة له عام 1934، بعد أن التقي مشرفة: ،كيف أمكن أن يوجد لدينا عالم مصري من هذا الطراز؟ يظهر أن مصر في ذلك العهد قد نهضت وهي حُبلي برجال ما كان أن يظن ان في إمكانها إنجابهم في هذه الفترة،.

وما يقوله الأستاذ الحكيم بالغ الدقة ،كيف أمكن أن يوجد لدينا عالم مصري من هذا الطراز؟،.

* إن أول مقال نشره مصطفي مشرفة كان في الأهرام في 1925/4/18 بعنوان ،البحث العلمي.. اهميته وطرق تشجيعه،، وكان ثاني مقال في 1925/5/6 بعنوان ،الجامعة والبحث العلمي،، أرجو ان نلاحظ معا تاريخي النشر، ثم انظر إلي مقاله هذا، في يونيو 1942 نشر مشرفة مقالاً في مجلة الشؤون الاجتماعية ،الحياة العلمية في مصر بعد ربع قرن،.. تخيل في عام 1942 مشرفة يحدثنا وهو محبط عن حصاد العلم في مصر خلال خمسة وعشرين

عاما ليس هذا فقط.. هناك ما هو أهم وأخطر.

انظر إلي مقال مصطفي مشرفة في مجلة المصور في 1948/1/23 «ماذا أعدت مصر للحرب الذرية المقبلة».. إن مشرفة يتحدث عن حرب ذرية، وعن استعداد مصر لحرب ذرية، في وقت لم تكن فيه أوروبا تعرف جيدا طبيعة الحرب الذرية ولا صناعة القنبلة الذرية.. ولا أود أن أذكركم بالصراع الجاري الآن علي أرض المفاعل النووي السلمي الفقير والمستورد.. والتي أوشكت أن تكون قرية سياحية!

وأما مقاله في 1948/3/2 في صحيفة «الزمان» فقد كان عنوانه «مصر واستخدامات الطاقة الشمسية».. يقول الكاتب الكبير مصطفي أمين في مقدمته لكتاب الجوادي: «كان الدكتور مشرفة أول من طالب بدراسة مشروع استنباط الطاقة من حرارة الشمس، وعرض الدكتور مشرفة اقتراحه هذا علي بعض ولاة الأمر، فابتسموا ساخرين، وبعد أن خرج من المقابلة نظروا إلي بعضهم البعض، ثم قالوا: الدكتور مصطفي مشرفة فقد عقله!.. إنه يريد أن نستعمل أشعة شمس مكان البترول!».

وفي 1949/8/18 كتب مشرفة مقالا مذهلا في الأهرام بعنوان «الوقاية من القنابل الذرية».

* لقد كان لدينا رجل يعرف آخر العلم في عصره، ينشر في كبريات مجلات العلم في العالم، يحظي باحترام كبار علماء عصره، بمن فيهم اينشتين، يتحدث قبل أن يعرف العالم عن طموحات مصر النووية العسكرية!

يا للفجوة الهائلة بينه وبيننا، بين علم مشرفة وجهل جميع الحكومات، بين رجل يسبق العلم والعالم وبين ساسة وصحفيين حافظوا علي مواقعنا خارج التاريخ!

* قبل أن يعرف الرئيس الأمريكي نفسه حقائق أو مخاطر القنبلة الذرية، يقول مصطفي مشرفة باشا: «التقيت بدولة النقراشي باشا عام 1939 - لاحظ التاريخ جيدا عام 1939- وكان معنا الدكتور فارس نمر باشا، ودار الحديث حول الأحداث الدولية التي سبقت قيام الحرب، فقلت إن العمل الذي قام به (هاهن واشتراسمان) بقسمة ذرة اليورانيوم- خلق الذرة- عن طريق تعريضها لنيوترونات بطيئة كان أهم حدث في أخبار العام. وقد حمل كلامي علي أنه مغالاة في تقدير دور العلم والعلماء!

يقول الدكتور مشرفة في كتابه «مطالعات علمية» الذي صدر عام 1943 في الفصل

الخاص بـ«تركيب الذرة»: «إن الطاقة الكامنة في ذرات جرام واحد من المادة العادية تكفي لتحريك قطار وزنه مئات الأطنان حول الكرة الأرضية بأسرها».

* ويقول الدكتور مشرفة في كتابه «الذرة والقنابل الذرية»: «في 6 أغسطس 1945، ألقي الجيش الأمريكي قنبلة علي قاعدة الجيش الياباني في هيروشيما، وهي قنبلة ذرية تزيد قوتها علي قوة عشرين ألف طن من أشد أنواع الديناميت.. وقتل من كانوا خارج المنازل حرقا، وقتل من كانوا داخلها بسبب الضغط والحرارة التي لا يمكن أن توصف شدتها، وفي 9 أغسطس 1945 ألقيت قنبلة ذرية ثانية علي الميناء الكبير نجازاكي، وقد محت هذه القنبلة من الوجود أكثر من ميلين مربعين من نجازاكي، ودمرت جميع الأهداف الحربية في المدينة».

* ويقول الدكتور يسري الجمل.. طابور الصباح جزء أساسي من العملية التعليمية!.

** خسارة مصر.. ألف خسارة!!

مدرسة عاطف عبيد السياسية (1)*

تنفرد صحيفة «أخبار اليوم» بنشر سلسلة من المقالات التافهة لرئيس وزراء مصر الأسبق د. عاطف عبيد، وقد وصل دولة الرئيس عاطف عبيد الآن إلي المقال السادس، في الجزء الثاني، ضمن رؤية كاملة من الكلام الفارغ.

لا أحد يعرف لماذا يكتب عاطف عبيد، وكلنا قد شهد الرجل وزيراً ورئيساً، لا يعرف الكثير عن علم الإدارة، ولا القليل عن علم الاقتصاد، ولا الأقل عن علم السياسة.. إنه تقريباً لا يجيد معرفة أي شيء.

ولكن الدكتور عاطف عبيد، الذي لم يعرفه أحد قارئاً ولا كاتباً، قد اختار لسلسلة مقالاته في «أخبار اليوم» عنواناً رصيناً: «شهادة للتاريخ.. سنوات حكم الرئيس مبارك».

ويبدأ د. عبيد مقالاته عادة بعبارة «تبين الوثائق»، ويستخدم في المقال الواحد قرابة المراجع العشرة، حتي ليظن القارئ أنه إزاء عمل فكري وأكاديمي يوجب الخشوع.

ولا أظن أحداً من القراء أو الكتاب قد تمكنت منه فضيلة الصبر، فقرأ مقالاً واحداً أو حتي فقرة واحدة، وظني أن القارئ الوحيد هو مسؤول التصحيح في الصحيفة.

إن المرء ليشعر بالحزن الشديد، وهو يجد مكانة رئيس الوزراء في مصر تتراجع إلي الحد الذي يصبح فيه رئيس الحكومة مجرد رجل، أقصي طاقاته العقلية والفكرية أن يرصد إنجازات السيد الرئيس.

إن الحزن ليزيد ويزيد، إذا ما كان واضحاً تماماً أن غرض مثل هذه المقالات هو محاولة التوسل الدائم والرجاء المستمر ألا يفتح أحد ملفات سابقة أو يحرك أحد دعاوي محتملة ضد دولة الرئيس.

---

* نشر هذا المقال بتاريخ 13 أكتوبر عام 2088 م.

***

لقد كان مجيء عاطف عبيد إلي رئاسة الحكومة بداية الإحباط الوطني الكبير. كما كان مجيئه بداية الكساد الأخلاقي في مصر.. إنها اللحظة الفارقة في توحش ظاهرة عدم الانتماء، وفي حالة الاكتئاب الجماعي من السلطة والسياسة في مصر، وفي حالة التسليم بانكسار المشروع الوطني لصالح الأجانب وعملاء الأجانب في البلاد.

روي لي الدكتور ممدوح البلتاجي، وقد كان وزيراً للسياحة في عهد عاطف عبيد، أن رجال أعمال قطريين تقدموا لشراء أرض شاسعة في موقع استراتيجي بسيناء، وقد أعطاهم عاطف عبيد الموافقة، فلما جاء الملف إلي وزير السياحة، سأل الأجهزة السيادية في مصر التي ردت عليه بأن هؤلاء القطريين غطاء لإسرائيل، وأن الأمن القومي للمصري يتطلب رفض ذلك تماماً.

أبلغ البلتاجي عاطف عبيد بالأمر، ولكن عاطف عبيد أعاد إليه الطلب وعليه الموافقة من جديد!

***

لم يكن عاطف عبيد مجرد رئيس وزراء فاشل، بل كان بداية انكسار الحلم لدي ملايين المصريين، لقد أغلق عاطف عبيد باب الأمل الذي لم ينفتح حتي اليوم.

مدرسة عاطف عبيد السياسية (2)*

لم يكن عاطف عبيد ظاهرة محدودة في السياسة المصرية، بل كان أساس مدرسة حكمت مصر ولاتزال.. حيث أصبح تلاميذ عاطف عبيد هم «القادة الجدد» في البلاد.. وقد تصدر القائمة تلاميذ ثلاثة: أحمد نظيف ويوسف بطرس غالي ومحمود محيي الدين.

تعلم التلاميذ الثلاثة خارج مصر، ويجيدون الحديث بغير العربية.. وينظرون من أعلي إلي النخبة وإلي العامة.. وهم يبدون، في أحيان كثيرة، أشبه برموز الحكم العثماني في مصر.

***

لا يعرف التلاميذ الكثير عن السياسة، لا الأحزاب ولا الحركات، ولا إدارة السلطة ولا خريطة الشعب.. لا تحفل تصريحاتهم بأي ثقافة أو معرفة خارج الأرقام والمعادلات والمعدلات.. ولم يحدث قط أن أشار أحدهم إلي كتاب أو حقبة تاريخية أو حقائق جغرافيا.. أو تعرض لثقافات شعوب أو تجارب بلدان أو رؤي فلاسفة أو مصلحين!

وداخل علوم الاقتصاد، يردد الثلاثة المقولات الأولية للرأسمالية المتطرفة، وقد اختزلها التلاميذ في مقولة «البيع» كمقولة واحدة في النظام الرأسمالي، لا يعرف رئيس الوزراء والوزيران في النظرية الرأسمالية سوي بيع كل شيء في أسرع وقت وبأي سعر.. إنها نظرية بدائية تليق بمحال بقالة لا إدارة سلطة.. وتناسب أعمال السمسرة لا وظائف الدولة.

وفي الوقت الذي يعيد فيه الغرب النظر في الرأسمالية التي أنتجها، قال التلاميذ «إن الرأسمالية بخير» وهي تصحح نفسها وسوف تواصل. لقد سكت الكبار في العالم ليتحدث

---

* نشر هذا المقال بتاريخ 20 أكتوبر عام 2008 م.

الصغار في مصر.. تراجعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وتقدم التلاميذ الثلاثة!

عادت الدولة إلي دور واسع في الغرب وبدأت في شراء البنوك، وفي مصر قال رئيس الوزراء إن بيع بنك القاهرة سيتم إنجازه بعد أن تهدأ الأمور.. إنها مدرسة عاطف عبيد السياسية.. باعة بلا حدود!

تمثل مدرسة عاطف عبيد حالة «الكساد النفسي في مصر». هي مدرسة بائسة وكسولة.. كل ما تبثه الفضائيات وتنشره الصحف لا يمثل شيئاً لديها.. لن تتقدم حالة المستشفيات، لأن المدرسة تفكر في بيعها، ولا مرفق الإسعاف، لأنها تفكر في بيعه، ولا التعليم لأنها تنوي خصخصته، ولا قطاع الزراعة، لأنها تنوي تحريره.. إنها مدرسة اللافعل.. كل شيء مؤجل لأنه لا أمل إلا إذا تم بيع ذلك إلي القطاع الخاص والأجانب.

أصبحت مصر كلها دولة مؤجلة.. مرافق مؤجلة وسياسات مؤجلة وأحلام مؤجلة.. إن مدرسة عاطف عبيد السياسية.. باردة، كسولة، محدودة.. مدرسة النوم الحضاري.. التي أصابت الوطن بالتثاؤب!

في مدرسة عاطف عبيد السياسية، تحولت السلطة من إدارة الدولة إلي إدارة المبيعات!

الفصل السادس

بسيون والعالم

صلاة التراويح في باريس (1)

قالت لي الملكة فضيلة، زوجة ملك مصر السابق أحمد فؤاد الثاني: ما رأيك في حديث أحمد فواد إلي قناة العربية.. لقد قال إن نظام الرئيس عبدالناصر هو الذي قتل الملك فاروق؟

قلت لها: لقد قرأت للأستاذ يوسف القعيد وصحيفة روزاليوسف هجومًا شديدًا علي الحوار، وفي تقديري أن وفاة الملك فاروق مريضًا أو قتيلاً ستظل أحد الملفات المفتوحة في التاريخ.. هناك من يؤكدون دورًا للمخابرات المصرية في عهد صلاح نصر في اغتيال الملك، وهناك من ينفون ذلك، ويصفون تلك الروايات بأنها محض خيال.

كان لدي الملكة فضيلة ما تقوله.. وكان نهار باريس طويلاً، ومعاناة الصوم في باريس تزيد أضعافًا علي القاهرة.. قلت للملكة التي تزوجت الملك بعد رحيل المملكة: إن حديث الهاتف لا يصلح لمثل هذه الموضوعات، دعينا نلتقي مساء.. فحديث السياسة قد يبطل الصيام.

***

من تقاليدي في الصوم أن أبدأ مسيرة الجوع من الصباح، فأنا أستيقظ من النوم جائعًا، وأظل كذلك ساعة كاملة، لينتهي الجوع تمامًا طيلة اليوم ثم يعود قبل المغرب بساعة. وقد اعتدت طويلاً علي أن الصوم ساعتان.. ساعة عند اليقظة وساعة عند الغروب.

أمضيت اليوم الأول من رمضان في بسيون وكان الإفطار بعد السادسة بقليل، وما إن وصلت باريس حتي أدركت أن الإفطار هنا بعد الثامنة بكثير.

وبعد أن كنت أبدأ رحلة الجوع من الخامسة إلي السادسة امتدت الرحلة إلي أكثر من ثلاث ساعات من الخامسة إلي ما بعد الثامنة.

لم يكن تقديري صحيحًا تمامًا.. ذلك أن الجمال والنقاء ونسمات البرد ومقاطع المطر

قد جعلت من اليوم كله مسيرة جوع متصلة.

***

ومن تقاليدي أيضا ألا أتناول الإفطار إلا بعد أن أسمع بنفسي أذان المغرب، وقد كنت في الطفولة شاهدًا ومبلغًا على تلك اللحظات الرائعة.. كنا نحن الأطفال نجمع أنفسنا ونذهب إلي المسجد قبل عصر الميكروفون، فنمكث أمامه حتي نسمع صوت المؤذن لنهتف هتاف الفاتحين الغزاة.

لم أسمع شيئا في باريس، وكان طريقي لمعرفة موعد الأذان، إمساكية صغيرة أصدرها مسجد باريس، لكن «مهدي قنفود»، وهو مغربي يقيم في باريس، اتفق معي علي أن يعطيني «ميسد كول» - مكالمة مفقودة، عند أذان المغرب، وميسد كول أخري عند أذان الفجر.

صلاة التراويح في باريس (2)

ذهبت للصلاة في مسجد باريس في صحبة صديق متطرف، إنه يتحدث عن أغلب الناس باعتبارهم أعداء الله، وبالنسبة له فهناك أعداء الله من المسلمين وأعداؤه من عموم الأديان. وأعداء الله من رجال الدنيا، وأعداؤه من رجال الدين.

ما إن دخلنا بهو مسجد باريس حتي قلت له: إنني شديد الاعجاب بإدارة هذا الصرح الإسلامي، ويبدو أن الشيخ «دليل بوبكر»، إمام المسجد، رجل ماهر وأمين، قال لي صديقي: هذا الدليل «بوبكر» من أعداء الله!

لم يكن هناك وقت لكي يشرح لي لماذا جعل إمام مسجد باريس واحدًا من أعداء الله، لكنه راح يتمتم: إنه عميل للأمن ومن رجال ساركوزي.

* * *

كان الإمام قد بدأ الصلاة.. قلت لصديقي: نلتقي عند باب المسجد بعد التراويح.. قال مباغتًا: سيكون هذا شاقًا علينا.. أنا أقترح أن نأخذ فنجانًا من القهوة وبعض الحلوي بين العشاء والتراويح.

وفي منتصف التراويح يمكن أن نأخذ «ماروكيان تي - شاي مغربي» في كافيه المسجد!

* * *

يحتوي مسجد باريس علي حديقة رائعة، تتوسطها نافورة عاقلة، فهي تنثر مياهها باحترام واعتدال، ويمتلئ المسجد بأشخاص لا يعرفون العربية.. وغاية القول عندهم: السلام عليكم.

كان ظني أن صلاة التراويح في مسجد باريس ستكون الأيسر على الإطلاق، بل كان

ظني قبل هذا الظن ان لا صلاة تراويح في مسجد باريس، ثم قلت ربما كانت صلاة يسيرة.. ثماني ركعات بآيات قصيرة.. مثلما كان الحال في بلدتي قبل عصر الكهرباء.

لم تكن ظنوني صحيحة، فصلاة التراويح في مسجد باريس يتم ختام القرآن فيها، وفي كل يوم يقرأ الإمام جزءًا كاملاً في الصلاة.. وهو يقرأ بهدوء وروية يليقان بمسلمين أوروبيين يتفكرون ويتدبرون.. أكثر من ساعتين كاملتين مدة صلاة التراويح في مسجد باريس.

***

خرجت من ساحة المسجد إلي كافيه للسجد، ثم إلي مطعم ثري حيث كنت مدعوًا علي السحور.

قدم إلينا عامل المطعم قائمة الطعام، وكان من بينها صورة لعجل صغير.. ومع الصورة سطور مضيئة من السيرة الذاتية للعجل قبل ذبحه!

تأملت السيرة الذاتية للعجل المهم، وتذكرت السير الذاتية لكثير ممن أعرف..!

صلاة التراويح في باريس (3)

كان ذلك السحور مدهشاً، قضيت وقتاً طويلاً في معرفة السيرة الذاتية للعجل الذي جاء منه طبق اللحوم.

إنه لحم خاص تماماً، يصل سعر الطبق الواحد منه إلي اكثر من ثلاثة آلاف جنيه، أما سبب ارتفاع السعر إلي هذا الحد فيعود إلي اصول التربية التي نشا عليها العجل.

يبدأ العجل حياته فور الولادة في مزرعة صغيرة، إنها اشبه بحجرة فندقية، وليس مسموحاً للعجل بالحركة خارجها، فهو عجل لا يسرح ولا يمرح.

والسبب في قرار تحديد الإقامة لذلك العجل هو منعه من بذل الجهد او تبديد الطاقة. إنه ايضاً عجل لا يشرب المياه، ذلك أن درجة نقاء المياه ليست آمنة تماماً، وهو يحتسي مدي حياته ماء الشعير، يتلقي ذلك العجل جلسات دائمة للمساج، والهدف من المساج منع تكوين أي دهون أو شحوم. وهو عجل بارد لا ينفعل.. ويكتفي اثناء الأزمات بهز راسه قليلاً لياتيه احد المساعدين!

وتقدم بعض المطاعم صوراً من حياة العجل السابقة، من الولادة إلي المزرعة الفندقية إلي عمليات المساج إلي قائمة الطعام والشراب ثم إلي رحلته الأخيرة إلي حيث الذبح، لا يشبه لحم هذا العجل ايأ من زملائه حول العالم، وتجري فيه السكين كانها في قطعة من الشيكولاتة!

ويقدم الطبق، الذي يزيد سعره علي تكاليف إعاشة عدد من الأسر شهرياً، دون سلاطة او بطاطس او اي إضافات!

* * *

لم يكن هذا السحور الفاخر يليق بمبادئ الشهر الفضيل، ولا الغرض الذي لأجله فرض الصيام في رمضان، ومثل سلوك صغار المخطئين، أردت بعضاً من التقشف يبعث بعضاً من الارتياح.. قلت لصديقي: لا تنس أن نذهب غداً مبكرًا لصلاة التراويح في مسجد باريس. قال لي: سأكون غداً منشغلاً بترتيبات الحجز لرحلة «نقاء الجسد»، قلت له: عشت حياتي كلها أسمع عن «نقاء الروح» فماذا عن رحلة «نقاء الجسد» هذه؟

قال: هناك مصحة في فيينا، سوف أقضي فيها شهرين ابتداء من العيد، في هذه المصحة يجري غسيل كامل للدم من كل الملوثات، المياه معادلة بشكل مثالي، والفواكه بلا أي شوائب كيميائية.. الطعام كله «بيو فوود».. ليس مسموحاً بتعاطي أي دواء، حيث يجري ضبط كل شيء بالأكل والماء، بعد أيام تتحول الفضلات من اللون الأصفر إلي اللون الأبيض، ويعود أداء المعدة إلي سن الخامسة عشرة!

ويجري هذا كله بأسعار رائعة.. فقط سبعون ألف يورو في فترة ما بين العيدين!

كان هذا الحديث محبطاً.. قلت لصديقي: فترة شهرين مدة طويلة، وقتي لا يسمح إلا بنقاء الروح!

مسجد ليوناردو دي كابريو (1)

اتجهت نيتي صوب العاصمة السويدية استكهولم للقاء العالم الكبير د. أحمد زويل القادم من كاليفورنيا. كان مقصد د. زويل إلي السويد لأسباب تتعلق بإنجازاته العلمية الجديدة، وكان مقصدي أبعد ما يكون عن العلم وأقرب ما يكون إلي الاسترخاء البدائي لسائح بليد.. بلا جدول أعمال.

اتصلت بالدكتور زويل للتاكد من مسار الرحلة، فأخبرني انه ينوي تاجيل الزيارة بسبب انشغالات طارئة. إنها المرة الثانية التي تفشل فيها استعداداتي لزيارة السويد، كانت الأولي في ديسمبر عام 1999، حين تفضل الدكتور زويل بدعوتي لحضور حفل تسليم جائزة نوبل، حيث اكتفت الأهرام بذهاب الكاتب الأستاذ عبد الوهاب مطاوع.. ولما قررت السفر منفردًا فهمت من قيادات الأهرام وقتها انه من «الأفضل لي» ألا أذهب!

* * *

الحاصل إذن انه لا زيارة للسويد في رمضان، ظللت أفكر وأفكر.. عدت إلي تأشيراتي القديمة وألبوماتي القديمة، وقلت لنفسي مواسيا.. فلتكن رحلة في رحلاتي القديمة.. استحضار ذكريات جميلة إلي أن تأت ذكريات جديدة. وجدتُ بين الصور ما يتوافق وصحيح الإيمان في الشهر الفضيل. حيث أبدو في عدد من اللقطات إمامًا تقيًا.. ممتلئًا بالسكينة والخشوع. كان ذلك في مسجد ليوناردو دي كابريو في خريف عام 2004.

* * *

كنت محظوظًا في ذلك الخريف، حيث تلقيت دعوة من شركة طيران كبري لزيارة مملكة تايلاند. وكانت الشركة قد ابتكرت درجة جديدة فوق الدرجة الأولي أطلقت عليها «درجة الـ VVIP» أي درجة «الشخصيات المهمة جدًا جدًا».

وكانت هذه أول تفرقة بين الـ «VIP» والـ «VVIP».. أي بين «الشخصيات المهمة جداً» و«الشخصيات المهمة جداً جداً».

لم أظهر سعادتي إزاء وضعي في تلك الفئة، ذلك أن السعادة ستكون كاشفة لوضع لا يليق، ولربما أعتقد جيراني الذين دفعوا مبالغ خيالية ليصلوا إلي مقاعدهم أنني ربما أكون «شخصاً مهماً جداً» فحسب.. وأن «جداً» الثانية غير مناسبة لحالة النشوي «البلدي» التي أنا عليها.

وصلت إلي مطار أبوظبي لأبدأ الرحلة، ونسيت ما أنا عليه من مقام رفيع، ودخلت صالات المطار من أبوابها، وما إن أظهرت الدعوة وبطاقة السفر، حتي جاءت ثلة من أعاظم الرجال تصطحبهم ثلة من الغيد الحسان.. وقال كبيرهم: ما لهذا دعوناك. ما دعوناك لكي تحمل حقائبك أو تقف بها عند الميزان أو تمكث مع العامة في قاعات الانتظار، وما دعوناك أيضاً لتكون مثل ركاب الدرجة الأولي تحتسي قهوتك وهم يدبرون أمرك. بل دعوناك.. لكي تأتي فحسب.

اصطحبني القوم إلي جوار المطار.. إلي استراحة رئاسية فاخرة، وهناك استقبلتني فتاة تايلاندية بوردة وفنجان قهوة، ثم قادتني إلي أخري قدمت لي قطعة من الشيكولاتة مع نصف كوب من الشاي، ثم إلي ثالثة قادتني إلي مطعم مفتوح «أوبن بوفيه» تفنن طهاته ومشرفوه في إبهار شخصيات يعلمون مقدماً أنها «مهمة جداً جداً».

ظللت أنتقل من طبق إلي آخر.. من شوربة سمك القرش الذي تم اصطياده عند سواحل الصين، إلي طبق اللحم البرازيلي الخاص، وتأتي خصوصية اللحم من خصوصية صاحبه، حيث تجري تربية ذلك العجل علي نحو خاص في البرازيل.

* * *

أعجبتني السيرة الذاتية للسمكة صاحبة «الشوربة» وللعجل صاحب «البيكاتا». وكان إعجابي محدوداً خالياً من الدهشة، وظهر من ثباتي.. مدي اعتيادي لهذه النوعية من الطعام.

جاء موعد الطائرة.. وأحاطني رهط من الناس إليها.. وما إن وصلت مدخل الطائرة حتي كانت المضيفة تقدم لي «عصيراً طازجاً».

يستغرق الطريق من باب الطائرة إلي مقعدي (7) ثوان، ولم يكن ممكناً في رأي المضيفة أن أمضي كل هذا الطريق وأقضي كل هذه الثواني دون ما يكفي من العصائر!

كانت درجة الـVVIP مقسمة إلي ثلاثة مستويات، ووجدت نفسي في المستوي الأول منها، وكانت المفاجأة.. انني وحدي في ذلك المستوي، واصبحت كاني مالك الطائرة، ولم يعد أمام المضيفة البريطانية وزميلتها الجنوب افريقية إلا خدمتي وحدي!

لقد تواجدت بريطانيا في مصر سبعين عاماً، واستغرقت رحلتي من ابوظبي الي بانكوك قرابة السبع ساعات.. وقد قررت ان اعوض السبعين عاماً في الساعات السبع.. وبدات التعامل مع المضيفة البريطانية تعامل التاج البريطاني مع مستعمرات ما وراء البحار.

مسجد ليوناردو دي كابريو (2)

وصلت إلي مطار بانكوك في مملكة تايلاند بعد ساعات من الفخامة المؤلمة. تركت مقعدي في المستوي الأول من درجة الـ «VVIP»، مرغمًا ومتحسرًا، وفي معظم رحلاتي يكون الوصول مصدرًا للراحة غير ان جمال الطائرة ووقار الرحلة.. قد دفعني لكراهية الوصول.

لا يحتاج مطار بانكوك إلي جهد كبير لكي تعرف طريقك إلي المدينة، فالف دليل ودليل سيتزاحمون عليك في أدب وابتسامة كي يذهبوا بك إلي حيث تريد أو يريدون.

في اليوم الأول.. خرجت ليلاً لأستطلع المدينة، فوجدت حيا عربيا كاملاً، ووجدت محلاً مكتوبًا عليه بالعربية «موسي البانكوكي».. واندهشت لهذا الرجل الذي نسب نفسه إلي المدينة كما نفعل في بلادنا، جلست قبالة مطعم يمني يجيد إعداد «فتة الحمام»، فإذا بي أجد طفلاً يسحب وراءه فيلاً ويمضي في طريقه. لم أصدق ما أري، كيف لهذا الطفل الصغير أن يسحب وراءه هذا الفيل العملاق ويتنزهان معًا في قلب العاصمة؟!

تركت «موسي البانكوكي» و«فتة الحمام» و«أبرهة الصغير» الذي يدير حركة الفيل بأطراف أصابعه.. واتجهت صوب مكتب للطيران تديره فتاة مسلمة، قلت لها: إنني أريد الذهاب إلي جزيرة بوكيت علي خليج البنغال.. واريد أن يكون ذلك قريبًا. بدات الفتاة بالمديح في مصر والأزهر وفي أنا ايضًا باعتباري من مصر بلد الأزهر.

وقالت لي: ستأخذ الطائرة لمدة ساعة من بانكوك إلي مطار جزيرة بوكيت، ومن مطار الجزيرة ستجد أناسًا يأخذونك إلي فندق سويسري يطل علي مياه الخليج، ومن الفندق سيأخذونك عبر «اللانش» إلي رحلة بحرية تصل بعد ساعات منها إلي جزيرة «بي بي آيلاند»، ومن جزيرة «بي بي» ستزور عددًا من جزر خليج البنغال المتناثرة هناك، ستعيش مثلما كان يعيش ليوناردو دي كابريو.

قلت لها: إنني أعرف مصير ليوناردو دي كابريو في تايتانيك.. فهل كان مصيره في مياه البنغال مماثلاً؟.. قالت الفتاة: لا.. بل كانت نهاية سعيدة، لقد صوّر هناك الفيلم الشهير الشاطئ **The Beach**، وهو الفيلم الذي أظهر جمال الطبيعة هناك على نحو بهر العالم كله. ومن وقتها وليوناردو يزورها بانتظام.

كان تنظيم القاعدة قد أعلن تأسيس «تنظيم القاعدة في آسيا».. وكانت تايلاند أقل انزعاجًا بذلك من انزعاج دول مثل إندونيسيا وأستراليا، وكانت المخابرات الأمريكية تقول إن قائد القاعدة في آسيا هارب في تايلاند، ولكن ذلك لم يكن له أثر على طبيعة الحياة.

وحينما جاءتني مكالمة عبر المحمول وأنا في مطار بانكوك من صديقي ضياء رشوان، أخبرته بمعاناتي في الرحلة، ولم يقتنع ضياء بفكرة المعاناة هذه، وقرر أن أعاني بالفعل وقال لي: إن القاعدة موجودة في أماكن زيارتك وإن احتمالات تنفيذها عملاً قويا واردة تمامًا والأفضل لك أن تعود. قلت في نفسي: إن ضياء يريد إفساد رحلتي أكثر مما يريد تقييم الوضع، وعلى أي حال فإن قوات الأمن هنا تبدو يقظة. ولم أُنهِ مكالمتي حتى جاءني عدد من الجنود يسألونني في صوت واحد: إلى أين أنت ذاهب؟.. قلت لهم: إلى جزيرة بوكيت.

فنظروا إلى بعضهم البعض مندهشين.. وقالوا لي: كيف وصلت إلى هنا؟.. هذه الطائرة ذاهبة إلى كمبوديا! على قدر سعادتي باختراق نظام الأمن التايلاندي وركوبي في طائرة خطأ ومروري على كل البوابات دون انتباه مني أو منهم، على قدر خوفي مما قاله ضياء رشوان حول نشاط القاعدة في آسيا.

جلست إلى جوار فتاة تايلاندية وصديقها الأمريكي، لم أهتم كثيرًا بالصديق الأمريكي الذي بدا متعجرفًا، وبدأت الحديث مع الفتاة التايلاندية متحدثًا عن بلادها حكومة وشعبًا!

قطع الأمريكي «وصلة المديح المتبادلة بين مملكة تايلاند والشقيقة الكبرى مصر» وسألني: هل أنت من مصر فعلاً؟ قلت له: نعم. قال لي: وماذا تفعل هنا؟ هل تعيش في تايلاند؟ قلت له: لا.. أنا أعيش في مصر وأنا هنا لقضاء بعض الوقت. وقبل أن يكمل الأمريكي استجوابه لي قلت له: ماذا تفعل أنت هنا؟ هل تعيش في تايلاند؟..

قال لي إجابة لاتزال تثير استفزازي إلى اليوم. قال الأمريكي: إنني شخص ثري للغاية، وأنا الآن في الخمسين من عمري، ولو عشت مائة عام أخرى فلدي ما يكفي من المال لذلك. لم

تعد بي حاجة إلي العمل، لقد انتهت فكرة العمل عندي منذ سنوات. لقد أعطيت زوجتي وأولادي ما يكفي من المال، كل شخص عدة ملايين من الدولارات، وبقيت لي ملايين اخري، ومنذ قسّمت الثروة بيننا وهم قرروا العمل علي زيادة المال، وقررت انا العمل علي إنهاء المال.

قلت له: وماذا تفعل لكي تنهي هذه الثروة؟ قال: انا احب القراءة والسفر، وكل ما احمله معي هو جواز السفر و«كارت مصرفي» لسحب النقود. وانا أتنقل من بلد إلي آخر طبقًا لمزاجي الخاص. انا لا أحمل حقيبة سفر، اشتري ملابس النوم وماكينة الحلاقة وفرشة الأسنان وكل ما يلزم من الفندق الذي أنزل فيه. ثم اترك الأشياء مكانها حين أغادره، حيث لا احمل معي حقيبة من اي حجم، واشتري ملابس جديدة في الفندق الجديد.

وعندما تكون لدي حفلة رسمية اشتري لها بدلة رسمية، وعندما اقوم بتغيير ملابسي فلا اعود إلي البدلة نفسها مرة اخري.

إنني ايضًا لا احمل كتابًا ومجلة، إنني اقرا وعندما اتعب اترك الكتاب فلا احمله معي ولا اعود إليه. إنني بلا جدول اعمال، مثلاً انا هذا الأسبوع في جزر خليج البنغال، وبعدها إلي ميناء صيد خاص في نيوزيلاندا مع أصدقاء تعرفت عليهم أمس، وبعدها ربما ابقي في آسيا أو أذهب إلي سواحل شيلي حيث أحب اصطياد نوع من السمك لا يتواجد في سواحل نيوزيلاندا، وكل ما اتمناه ألا أتاخر كثيرًا في شيلي، حتي لا يفوتني «صراع الثيران» في إسبانيا، قبل أن أعود إلي اليابان لزيارة معبد قرأت عنه هذا الصباح!

سألني الأمريكي بعدما استعرض حياته الأسطورية: وماذا تفعل أنت في حياتك؟ قلت له: مثلك تمامًا ياسيدي.. وانا ذاهب الآن لزيارة جزيرة «بي بي» بعدما شاهدتها قبل أيام في فيلم «الشاطئ». قال لي: وهل يوجد مصريون كثيرون مثلنا.. ليس لديهم عمل؟ قلت له: نعم، ثلث السكان تقريبًا بلا عمل!..

مسجد ليوناردو دي كابريو (3)

وصلت إلي جزيرة «بوكيت» قادماً من بانكوك، ودعت زميل الطائرة، الثري الأمريكي الذي لا يحمل في رحلاته سوي جواز سفر وبطاقة مصرفية لسحب النقود، وحملت حقيبتي إلي فندق سويسري يقع علي شاطئ الجزيرة وتشرف غرفتي علي مياه الخليج، ذهبت لتناول العشاء، وأنا واحد ممن يكرهون الطعام التايلاندي، ذلك أنه طعام مبلل غارق في المياه.. لا تبدو ملامحه الأساسية وسط فوضي «الشوربة» التي تماثل إعصار «تسونامي»!

* * *

في الصباح خرجنا في رحلة بحرية، كنا قرابة العشرين شخصاً من آسيا وأوروبا وأمريكا، وكان من بينهم شاب ماليزي وزوجته، وقد علم أنني مصري من «بلد الأزهر» ووجد أنني أرهقت من حرارة أجواء الخليج، فما إن نزلنا إحدي الجزر البركانية، حتي جاءني ببطيخة كبيرة، وأهداها لي، وقال: إنها «بطيخة مياه».. سوف نفتحها من أعلي بمربع صغير، وستجدها ممتلئة بمياه رائعة، وقد حدث، ولم أجد بطيخاً ولا لبًا، وجدت مياهاً رقراقة ساحرة، وبعد قليل كنا جميعاً قد انكفأنا علي «بطيخ المياه».. رؤوسنا وأنوفنا داخل البطيخة وتبدو وجوهنا من بعيد أقرب إلي «الرجل العنكبوت»!

* * *

ثم مررنا علي نادٍ للرماية في جزيرة أخري، وأصرّ القوم علي مباراة دولية، كان زملاء الرحلة هذه من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وماليزيا وكوريا واليابان وتايلاند.. ومصر، وكنت طيلة الرحلة أتحدث بفخر عن بلادي، وكانوا مندهشين أن مصر فيها أشياء غير الأهرامات. وقد استخدمت طريقة جيدة في إبهار الخصوم عندما سألوني عن عملي، فقلت لهم أنا أعمل صحفياً في «الأهرام»، وقبل أن يسألوا..

كنت قد تحدثت عن الأستاذ هيكل الذي كان رئيساً للتحرير وعن نجيب محفوظ الذي يعمل كاتباً في «الأهرام»، وعن الدكتور أحمد زويل الذي كتب لـ«الأهرام» وأشرف لسنوات علي صفحات علمية في «مجلة الشباب» التي تصدرها «الأهرام»، وعن الدكتور بطرس غالي الذي عمل رئيساً لتحرير «مجلة السياسة الدولية» إحدي مجلات «الأهرام»، وهكذا وجد الزملاء الأجانب أنني أتحدث عن (2) نوبل وأمم متحدة وهيكل في دقيقة واحدة!

ومثلما قدمت لهم «الأهرام» صحيفة وأثراً.. قدمت لهم بقية بلادنا بالقدر ذاته من الإبهار الهادئ.

وسط أحاديثي المستمرة عن عظمة مصر والمصريين، جاءت مباراة الرماية في غير موعدها تماماً، لم يكن ممكناً أن تنسحب مصر وسط هذه الدول بعد كل ما قلت، وافقت علي دخول المباراة، وأخذ كل منا سلاحه، وقال أحدهم سنضرب عشرين مرة علي الهدف الدائري في المقابل.. ثم ننهي المباراة ونعلن النتيجة.

كانت أول حيلة لي هي أن أكون الأوسط في الرماة، حتي تتوه معالم أدائي بينهم، وأنا أضع في الترتيب الياباني وراء الكوري والألماني وراء الفرنسي.. استثماراً للحساسيات التاريخية بين الدولتين، ووضعت نفسي قبل الماليزي، حتي إذا وجد الناس فشلي الذريع فلا ينسبون ذلك إلي الإسلام، فثمة مسلم ماليزي سيحسن صورة الإسلام من بعدي.

بدأت المباراة ومضت المعارك وتأكدت سوء نواياي وسوء أدائي، وفشلت فشلاً ذريعاً لا مثيل له، فقد حصلت علي صفر من (15)، ولاتزال المباراة مستمرة، هنا بدأت مؤامرتي الأكبر، فقد كنت أطلق القذائف كلها في مناطق خاطئة لكنها متقاربة، فظللت أطلق في الاتجاه الخاطئ نفسه، حتي حصلت علي صفر من عشرين، وما إن انتهت المباراة حتي هتفت: تحيا مصر، سألني الألماني.. لماذا تحيا مصر؟ أنت خاسر تماماً.

قلت له: لا.. لقد أحرزت جميع النقاط في هذه المنطقة، قال لي: ليست هذه هي المنطقة المستهدفة، نحن نستهدف المنطقة التي تقع بها الدائرة وتمسكت برأيي.. بل هذه المنطقة.. لا هذه المنطقة. يا إلهي.. لقد نجحت الخطة، أصبح لدينا رأي ورأي آخر، إذن أنا لم أهزم تماماً، بل تمت هزيمتي طبقاً للرأي الأول، ولم تقع هزيمتي طبقاً للرأي الثاني.. ولأن المنافس الفرنسي كان ضعيفاً.. والمنافس الكوري جاء ترتيبه بعيداً وراء الياباني.. فقد أبداني في الخديعة، وقالوا: الحل أن نعيد المباراة.

لقد بذلت جهداً خارقاً حتي لا تعاد المباراة، وأن نكتفي بوجود رأي آخر ونتيجة غير معتمدة، ذلك أن الإعادة من شأنها ان تضع النقاط علي الحروف وأن تحدد تماماً قواعد المباراة ومعايير النجاح والفشل.. وهو ما يعني حصولي علي صفر جديد!

* * *

ها قد وصلنا إلي جزيرة «بي بي».. وقبالة سواحل الجزيرة وقف «اللانش».. وظهر عدد لانهائي من القرود علي الشاطئ، وهو مشهد طبيعي خلاب ربما يكون الأجمل في العالم. وأعطانا قائد «اللانش» عدداً من أصابع الموز المقطعة، وكنت كلما أعطاني قطع الموز قمت بتقشيرها وأكلها، كنت جائعاً وكان الموز شهياً، ويعود الرجل ويعطيني موزاً آخر، فأفعل الشيء نفسه.. ولما وجد الرجل مني حماقة دائمة.. قال لي: يا سيدي.. هذا ليس لك.. إنه طعام القرود!

* * *

في اليوم التالي.. حلت صلاة الجمعة، قلت لرجل مسلم يعمل في مطعم عند شاطئ الجزيرة: هل توجد صلاة جمعة هنا.. قال لي نعم.. قريباً من هنا حيث يقع مسجد ليوناردو دي كابريو!

بسيون - دبي..
أغلى سرير في العالم

كان اول ما لفت نظرى في فندق أطلانطس الفاخر في دبى قائمة الأسعار التى تأملتها في ذهول. أقل سعر للغرفة ألف دولار في الليلة الواحدة، كان الأمر سهلاً بالنسبة لى.. فأنا مدعو من نادى دبى للصحافة.. ولن أكون من زبائن هذا الفندق على أى حال. وبعد ثوان قال لى عامل الاستقبال، وهو مصرى رائع يمتلئ بالبهجة والدفء:أستاذ احمد.. سوف تقيم في جناح يطل على مياه الخليج في الطابق الثانى عشر. حفظت اسم الجناح وبحثت في قائمة الأسعار فوجدته بثلاثة آلاف دولار في الليلة، لم يكن لدىَ متسع من الحسرة..

فقد قررت طواعية قبل قليل ألا ادخل هنا إلا مدعوا. لكن وجهاً مصرياً رائعاً آخر.. كان يصافحنى بمزيجٍ من البروتوكول الصارم وخفة الظل الطاغية.. قال لى: أنا يحيى إدريس.. مدير عام فندق أطلانطس.. لم أرحب ولم أبتسم وقلت له على الفور: ما هذه الأسعار؟!..

إنها خيالية.. ولا أعتقد أننا سنكون أصدقاء.. إذا بقيتم كذلك أو بقيت أنا هكذا. قال لى: ألم يعجبك الجناح الذى خصصناه لك؟..

لدينا جناح رائع.. هو أغلى جناح فندقى في العالم.. وثمنه لا يزيد على خمسة وأربعين ألف دولار في الليلة الواحدة.. إذا أردت يمكنك أن تحجز عدة أيام وثق تماماً بانك ستستمتع!

قلت في نفسى: أحجز أياماً!.. إن ثمن الليلة الواحدة يقارب ربع المليون جنيه وثمن أربع ليالٍ إذن سيكون قرابة المليون جنيه، ولو امتدت إقامتى أسبوعاً سيكون ثمن النوم وحده

مليوناً وثمانمائة ألف جنيه.. وإذا أضيف لذلك بعض الشاى والعصير ورحلة صيد وجانب من السباحة وقليل من الساونا.. وبضع دقائق من مساج أصابع القدمين.. ستكون التكلفة (2) مليون جنيه!

هب أنك كنت محظوظاً بزوجة رومانسية رقيقة.. أو ابن شكّاء بكّاء.. أو أمّ لا تفضل الحركة الكثيرة وتأنس للهدوء ولا تقبل على شحطلة الطائرات والمطارات.. أو حماة مصرية طبيعية لديها جدول أعمال لا ينتهى من إدارة الصراع.. هب أن أحدهم أو جميعهم كانوا معك.. هل يمكن أن تكون عدواً للرومانسية، أو أباً غير عابئ ببكاء فلذة كبده، أو ابناً عاقاً لوالدته، أو زوج بنتٍ لا يرغب في سماع المصدر البيولوجى لسعادته؟

الإجابة: لا يمكن.. إذن عليك أن تمد إقامتك من أجل سعادتك.. سيكون شهر مدة مناسبة إذا لم ترتكب أخطاء تكلفك المزيد.. إن تكلفة شهر من النوم في هذا الجناح ستصل إلى ثمانية ملايين جنيه!.

لقد فكرت كثيراً.. حتى لو كنت أمتلك المال.. هل يمكن أن أفعل ذلك؟! هل يمكن أن أنفق الراتب الشهرى لألف طبيب لكى أنام ليلة واحدة في فندق فاخر؟!..

هل يمكن أن أنفق مصاريف دراسة خمسين ألف تلميذ ممن يتسربون من المدارس الابتدائية لكى أنام أسبوعاً في جناح؟ هل يمكن أن أنفق ما يعادل بناء ثلاثة مستشفيات وثلاث مدارس وفائض (2) مليون جنيه للإنفاق على غير القادرين.. من أجل قضاء شهر عسل في فندق فخيم؟

الحمد لله أننا في بسيون نملك الكثير من الرشد والزهد.. بالاختيار والإجبار.. معاً.

بسيون- أوساكا ..

مائة ساعة في اليابان

أما أوساكا فهى ثانية كبرى المدن اليابانية وواحدة من عواصم الصناعات فى العالم ،وفوق كونها إحدى الموانئ الكبرى فى آسيا فهى تفوق فى قوتها الاقتصادية وحدها بعض دول أوربا وكل دول أفريقيا !

وأما بسيون فلا تحتاج إلى تعريف ، فهى نموذج معبر عن جوانب من مصر المعاصرة ، بعض العبقريات الفردية وكثير من الإخفاق الجماعى .

ويقتضي الإنصاف القول بأن بسيون افضل حالاً من عموم مصر فذلك الجزء الأخضر الصغير فى بلادنا المحروسة يفوق فى مجمله الصورة التى باتت عليها " أم الدنيا" ففى بسيون درجة أعلى من التسامح والتدين الفطري وما أكثر الذين يمتلكون فيها صفاء الروح وبساطة القول .

إنهم يدركون جيداً أن الناس ليسوا فى صراع مع الله، وأنه تعالى سبق عفوه عقابه، وأن الدين المعاملة، وأن الإيمان محله القلب.

وفى بسيون لا تزال بقايا طبيعة جميلة من نيل لم يردم وترعة تعادل نهر السين فى الاتساع ، ومروج خضراء تسر الناظرين من حقول القمح والقطن إلى أشجار الياسمين ، وحيوانات عفوية تمضى بغير اكتراث ، لا بأنفسهم ولا بالآخرين ، من بقر وماعز وجاموس، وحشد من الطيور .

وفى بسيون بقايا من فكرة، وبعض الأقاصيص المفيدة من "قعدات" ثقافية فى كثير من القرى إلى محاورات فى المساجد لم تصبها آفة التطرف، إلى مسامرات بين كبار السن لا تزال خصبة.. ومداولات بين الجيل الجديد لا تزال آمنة .

***

انطلقت من بسيون التى هى أسوأ من العالم وأفضل من مصر ومررت بالقاهرة والدوحة وصولا إلى اليابان . جلست إلى جوار رجل يابانى بدا لى صعباً وكريهاً ، فقد طلبت منه أن نبدل المقعد على الطائرة فرفض من غير دبلوماسية، حتى ظننت أنه سيقاتلنى. ولم يكن أمامى بد من التصرف لكسر الحاجز النفسى - على رأى الرئيس السادات - بيننا، فالطريق يستغرق أكثر من إحدى عشرة ساعة متصلة ، واليابان أمامكم والمحيط تحتكم ولا بد من الحوار.. وكان ما أردت.

اتضح لى أننى مخطئ ، فالرجل فى غاية اللطف ، ولكن فكرة تغيير المقعد بالنسبة له تعنى عدم الإنضباط ، وبعد حوار طويل يعادل المسافة من بسيون إلى إيران قال لى الرجل : هل انت مسلم قلت له نعم. قال : وأنا فى اليابان كنت أتمنى أن أعرف الكثير عن الإسلام ، وأفهم هذا الدين.. وقد ذهبت إلى السعودية لأدير شركة يابانية هناك وهكذا اقتربت من البلد الذى انطلق منه الإسلام، ولكننى أصدقك القول لم أفهم شيئاً وما زلت أرى الإسلام بعيداً، فأنا أسمع عن دين لا أراه فى سلوك الناس وأرى كل فرد يتحدث عن الدين غير ماأسمعه من الآخر . فازدادت حيرتى وانصرفت عن الموضوع .

* * *

كان سهلاً عليّ أن اشرح لجارى ملابسات هذا الفهم الملتبس للدين الحنيف فى ساعة أخرى. وعدت أسأله بالمثل : هل انت بوذى ؟ قال لى : لا ، أنا مسيحى. وقد اندهشت من تلك الصدفة ، فعدد المسيحين فى اليابان اقل من ٢ ٪ . قلت له: هل انت من أسرة مسيحية أم أنك اعتنقت المسيحية مؤخراً ؟ قال: أمى مسيحية وأمّا أبى فقد كان بوذيا وقد اعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من وفاته . لقد أعدت عليه سؤالى عشر مرات: هل اعتنق والدك المسيحية بعد عشر سنوات من وفاته؟ قال نعم ، فقد قررت أمى ذلك وأخذت الرماد المتبقى من جثة أبى - حيث يحرق البوذيون والهندوس موتاهم - ووضعته أمى فى زجاجة ، ونقلت الزجاجة إلى مقابر المسيحيين وبذلك أصبح أبى مسيحيا بعد الوفاة !

* * *

راح الرجل يشرح لى بعضاً من أسباب المعجزة فى اليابان .. عن الدقة والنظام ، عن العمال الذين لا يلتفتون أثناء العمل ، عن طريقة دخول المصانع بوضع أكياس فوق الحذاء كأنها أماكن مقدسة ، وعن الانضباط الذى لا يسمح بأى خطأ، وعن الخطأ الذى يعقبه

في أوساكا هبطنا في مطار " نكاي"، وهو عبارة عن جزيرة صناعية بناها اليابانيون في الماء لضيق المساحة، والطريق من المطار إلى اليابس يمر عبر جسر صغير طويل، ومن اليابس إلى وسط المدينة عبر جسر علوي شديد الازدحام وسهل الحركة، وحوله وفوقه وتحته طرق تتلوى باستمرار.. زحام بلا فوضى!

وفي " سويس أوتيل" وضعت حقائبي وافكاري القادمة من بسيون، فقد صدمني حجم التقدم في اليابان، وقررت عدم المقارنة، بل وعدم التفكير في كيفية نقل ذلك إلى مصر، وكيفية الاستفادة من هذا التطور العملاق، فتلك كلها تساؤلات "بلدي" لا معنى لها.

ولكن موعد الطعام انساني ما قطعت على نفسي من وعد بعدم المقارنة، فالسمك الذي وجدته يؤكل نيئا إلى جوار الأرز ليس غريبًا على مسامعي، في بلدتنا أعرف من الطفولة ان هناك بعض العائلات التي تأكل السمك نيئا إلى جوار الأرز.

والسبب في ذلك أن بسيون هي الأولى في مصر في إنتاج الأرز، والأرز في بسيون وجبة الجميع أغنياء وفقراء منذ سنين مديدة، وأما السمك فيأتي مجانا لغير القادرين من النيل والترع وجداول المياة التي تغطي بسيون بقراها الأربعين ومساحتها التي تعادل نصف مساحة مملكة البحرين، وشأن السمك النيئ هذا اعتقاد بسيوني راسخ بأنه يقوي الجسد وينقي الدم ويخلق الجسارة والجرأة!

* * *

في اليابان وجدت نظامًا وانضباطًا لا مثيل لهما، حتى المارة في الطرق وهم يتحركون أكوامًا أكوامًا أكثر بكثير من زحام الموسكي وميدان رمسيس، ولكنهم يتحركون كالقطارات لهم خط سير وميل وانكسار. يضحكون في صخب ويتحدثون في أدب ويتسامرون شللأ وجماعات، كأنك في مدينة افتراضية مثل التي يلعب بها الأطفال " البلاي ستيشن".. مدينة من ماكيت وأناس يتحركون بالريموت والكل تحت السيطرة!

وفي اليابان لا مكان للأنانية ولا موضع للنميمة و"النفسنة"، فالياباني يبدو كالخائف من أن يكون وحيدًا، فهو لا يمشي وحده، فالمجموعة أهم من الشخص والمجتمع أقوى من أفراده وهو ما يختلف عن الولايات المتحدة وأوربا، حيث تتوازن القوى بين الفرد والمجتمع، ويعمل الأشخاص منفردين أو مجتمعين على نحو من الكفاءة وهما على أي حال طريقان في

النجاح لا وجود لهما في مصر، فلا نجاح للفرد أو الجموع، ولا كفاءة للمجتمع أو الدولة، والنميمة التي تنهش في الأفراد هي دوائر الصراع التي تفترس النخب.

قضيت في بلاد اليابان أكثر من مائة ساعة كأنها عمر بكامله.. تقدم مذهل تحتاج أوربا إلى سنوات حتى تصل إليه! وقد فكرت فيما جرى هنا وهناك، فعمر الحداثة في اليابان من عمر جدي وعمر التجربة المعاصرة من عمر شقيقتي الكبرى، وأما والدتي فهي أكبر سنًا من يابان ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ولكن أعمارنا جميعًا في مصر تمضي جيلاً وراء جيل بلا خطوة إلى الأمام.

بسيون - واشنطن: لماذا يكرهوننا؟!

كنتُ أجوب شوارع العاصمة الأمريكية واشنطن برفقة الصديقين محمد المنشاوي وسيف الله قنديل، وكلاهما دفعتي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

يعمل محمد رئيساً لتحرير الطبعة العربية من تقرير واشنطن، وأما سيف فدبلوماسي كان قادماً من سنوات قضاها في المكسيك لينضم إلي طاقم السفارة المصرية في واشنطن.

لاحظت أن شوارع واشنطن ليست كما ينبغي، فالندوب والشقوق وعالم المطبات والحُفر يشبه حالة الطرق والمواصلات في بسيون. أغلب واشنطن من السكان السود الذين يعانون الفقر وضعف الأمن وأغلبَ سكان بسيون يعانون كثيرًا.. ولكن في أمانٍ تام.

قال صديقاي، إن واشنطن ليس لها ممثلون في الكونجرس، أي ليس لها نواب، ولذا فإن حالة المرافق بها سيئة، ذلك أن كل نائب يعني بولايته ويخشي أصوات سكانها، أما واشنطن فلا خوف منها، حيث لا صوت لها ولا نائب!

ويكتب أهل واشنطن علي سياراتهم عبارة «ندفع الضرائب وليس لنا نواب» وهي عبارة دامعة، حيث يتحسر سكان العاصمة علي كونهم يدفعون مثل غيرهم لكنهم لا يجدون عائداً علي ما يدفعون مثلما يجد الآخرون.

زرتُ بسيون الأسبوع الماضي، وتذكرت علي الفور العاصمة الأمريكية واشنطن، إنهم في بسيون يدفعون الضرائب ولكن ليس لهم نواب.

إن بلدتي - كفر الدوار مركز بسيون «محافظة الغربية» وهي حقا واحدة من أجمل القري في مصر، صارت موطناً للعذاب والألم، فمياه الشرب التي كانت تأتي من محطة تنقية المياه الواقعة علي النيل، توقفت بعد فترة طويلة جرى فيها ضخ مياه غير نقية، احتجَّ الناس علي تلوث المياه، وبدلاً من اصلاحها توقفت المحطة تماماً!

سألت الأصدقاء: ألم تذهبوا لأعضاء مجلس الشعب، قالوا: إننا نعتبر أنفسنا بلا تمثيل نيابي، إننا ندفع الضرائب وليس لنا نواب.

لقد سألني أحدهم بعد أن فاض به الكيل: لماذا يكرهوننا؟.. قلت له: من الذي يكرهكم.. قال: أصحاب القرار في القاهرة يكرهوننا، الوزراء يكرهوننا، المحافظون يكرهوننا.. كل رجال السلطة يكرهوننا.. لا يمكن أن يفعل بنا هذا.. لا يمكن أن يتركنا في بطالة وفقر ومرض وسط أدخنة البانجو إلا أناس يكرهوننا.

تذكرت زيارتي واشنطن وتذكرت عدداً من الذين باتوا يخافون الإسلام والمسلمين، بعضهم لا يعرف جيداً ما الإسلام ولا ما المسلمون.. كانوا يسألون في خوف وبلَه: لماذا يكرهوننا؟!

هي الدهشة نفسها في بسيون.. إننا لم نعارض الحكومة ولم نعارض المعارضة، إننا نلتزم الصمت إزاء صراعات أهل السياسة في القاهرة، لم نذهب إليهم لنقاتلهم، لم نرفع شعارات معادية، نراهم في الصحف فلا نمزقها، ونراهم عبر الشاشة فلا نغير عنهم قناة ولا نسكتُ لهم صوتاً!

ولكن أهل الحكم برغم ذلك كله.. لا يحبوننا. جاءتنا الأمراض من كل جانب، وحاصرت أولادنا البطالة من كل مكان، وتسلل الفقر والاحتياج إلي منازل كانت عامرة معمورة. فإذا ذهبنا إلي المستشفيات لم نجد من يستقبل أو يعالج، وإذا قدمنا طلبات فلا تعيين ولا تثبيت، وإذا وضعنا خططاً لمكافحة الفقر جاء غلاء الأسعار فقضي عليها!

***

في بسيون وواشنطن.. يدفعون الضرائب وليس لديهم نوّاب، في بسيون وواشنطن يسألون: لماذا يكرهوننا، غير أنهم في واشنطن خاضوا حربين لمجرد الشعور بكراهية الآخرين لهم.. وفي بسيون.. يكتفون بالشكوي لمن زارهم، فإذا غادر.. توجهوا بالشكوي إلي الله!

بسيون- فينسيا..
في الصرف الصحي المقارن!

ركبت القطار من ميلانو إلي فينسيا، لم يكن «الكابتشينو» الذي تناولته داخل القطار جيدًا بما يكفي، فدخلت علي إثره في نومٍ غير مبرر، ربما كان عقابًا ذاتيا علي سوء الاختيار.

أفقت من النوم علي طريق يتوسط الماء، نظرت يمينًا ويسارًا فلم أجد غير الماء، كان ذلك مذهلاً لشخص قادم من بلد تصطدم فيه القطارات في اليابس، كلما وجدت الفرصة، وقد فكرت طويلاً كيف أمكن بناء قضبان علي مكان مائي رخو كهذا المكان، وقبل أن أهتدي لجواب كنت قد وصلت إلي محطة فينسيا.

فينسيا كلها فوق الماء، هناك شوارع رئيسية وفرعية وحارات وأزقة، وكلها مياه لا وصول لها بغير القارب.

يأخذ عموم الناس الأتوبيس المائي، ويأخذ أنصاف الأثرياء التاكسي المائي، وهو قارب أنيق له قائد واحد، ويذهب إلي حيث تريد في سرعة وفخامة.

أما كبار الأثرياء فلديهم اليخوت الخاصة، التي تمثل قصورًا تمشي علي الماء، لم يشغلني في تلك المدينة الساحرة ما كان يشغل عموم سياح العالم، من الشوارع إلي القوارب إلي ساحات الحَمَام أو مذاق القهوة الإيطالية قبالة مبانٍ تاريخية، بل كان يشغلني سؤال واحد: كيف قامت الحكومة الإيطالية ببناء شبكة الصرف الصحي في فينسيا؟

إنها مدينة الماء، كلها مياه.. كيف تم الحفر والردم.. وكيف تم وضع المواسير الرئيسية والفرعية، وكيف تم تصميم وتنفيذ خريطة البلاعات والمضخات؟.. كان الأمر بالنسبة لي معجزة تامة.. مدينة كاملة بين الماء ولا تعاني من الصرف الصحي.

إن بسيون التي نشأت فيها، وعشت في ريفها نصف عمري، لاتزال خالية من الصرف الصحي، بعد نصف قرن من المحاولات، ومع أن بسيون مدينة يابسة، كلها أرض سمراء جامدة، فإن أي ماسورة صرف سرعان ما تنهار تحت أي ضغوط تافهة.. إن كل شارع في القاهرة احتوي في باطنه علي ماسورة تؤدي أي غرض، يقضي عمره مبللاً بالمياه، معرضًا للحفر والردم.. آناء الليل وأطراف النهار.

إنني لا أعرف أين تكمن المعضلة، هنا مهندسون وشركات ودراسات وميزانيات، وهناك أيضًا، لكنهم في مدينة يستحيل فيها إنجاز شبكة للصرف الصحي قد انجزوها بإتقان، وعندنا تغرق الهندسة والسياسة في بالوعة متهالكة كل يوم.

لقد قابلت سائحًا في فينسيا.. سألني عن بلادي.. قلت له، مصر.

قال، أوه.. بلد الحضارة، إن فينسيا شيء بسيط جدًا إلي جانب حضارة بلادكم، قلت في نفسي، هذا صحيح.. لقد بني الفراعنة حضارة عظيمة، وعلي ضخامة المعابد والمقابر واللدن.. لم يعان أثر واحد من مشكلة الصرف.. أما الآن فإن أبوالهول يحتاج إلي حضارة جديدة تنقذه من المياه الجوفية، وتعيد بناء شبكة الصرف الصحي التي توقفت قبل سبعة آلاف عام!

بسيون - سويسرا..
البديل الآمن

كيف أصبحت سلسلة من الجبال الباردة أجمل بلد في العالم؟ وكيف تدهورت أعظم حضارة في التاريخ من عصر بناة الأهرامات إلى عصر استيراد فانوس رمضان؟

■ لا شيء في سويسرا يؤدى إلى التقدم.. سبعة ملايين نسمة يسكنون الجبال والهضاب، يتحدثون عدة لغات، ولم يسبق لهم استعمار شعوب أو نهب ثرواتها، تغطى الغابات معظم أراضى سويسرا، ولا تكفى الزراعة لحاجة السكان، وبالإضافة إلى الفقر الزراعى، تعانى سويسرا فقرًا شديدًا في الثروة المعدنية.

■ منطق الأشياء أن تكون سويسرا دولة متخلفة، فالأجواء باردة، والثلوج قاسية، والجبال والهضاب تصعد وتهبط على امتداد الدولة، والبحيرات تقع عند منحدرات وعرة، وحدود الدولة تلامس دولاً كبرى، كان لها تاريخ مخيف في شؤون الحرب والقتال.

■ قضيت جانبا من إجازة العيد في سويسرا.. تمثل سويسرا نموذجًا للمعجزة الناعمة.. هى معجزة هادئة أنيقة، جرى صنعها بدقة الساعات السويسرية، ويبدو مشروع بناء سويسرا كمشروع بناء فندق واحد على كل أراضى الدولة.. هنا أماكن للسكن، وهنا للعب، وهنا للتنزه في المياه، وهنا عند شواطئها.. وهنا جناح صناعى عملاق يغذى احتياجات الفندق، وثمة شبكة مذهلة من الطرق والأنفاق والجسور لخدمة النزلاء.

■ نجحت سويسرا في كل الأشياء السهلة، التى تحتاج إلى سلطة عظيمة، لا شعبًا عظيمًا.. فالصناعات الدقيقة والآلات الدقيقة والأدوات الطبية والكيماويات والأدوات الكهربائية، قد نجحت في تحويل سلسلة من الجبال الشاقة إلى أجمل بلد في العالم.

■ لا اخفى اننى اصبحت مثل كثير من المصريين، ازور العالم كنصف سائح ونصف حاقد.. إننى لا ارى جمالاً إلا وتمنيته في مصر، ولا ارى نجاحًا إلا وتخيلته في مصر.. تمنيت ان اقلع كل الأشجار وازرعها في بلادى، واحيط كل الجبال الخضراء وانقلها إلى بلادى.. وانزع كل ينابيع الماء واطلقها في بلادى، تمنيت اوروبا شارعًا وجسرًا ونفقًا.. تمنيت ان انقل العالم إلى مصر، بعد أن فشلنا في نقل مصر إلى العالم.

بسيون - فيينا..
البَطّ والسلاح

كانت العاصمة النمساوية باردة للغاية في ذلك النهار، سبع درجات تحت الصفر تساندها رياح جارحة، جلست في بهو فندق ماريوت فيينا أرتب جدول زيارتى القصيرة مدعوماً بفنجان من القهوة مع اللبن الساخن.

كانت تلك الأجواء الرغدة كافية لأنسى وقائع رحلتى الأخيرة إلى بسيون، في محافظة الغربية، لكن الصحف المصرية التى أخذتها من الطائرة قطعت الزمان والمكان، ثمة تصريح بائس لأحد الوزراء حول أزمة البوتاجاز في البلاد.. قال الوزير: لماذا يصنعون منها أزمة.. لماذا لا يعودون للاعتماد على «القش» و«الحطب» و«الجلّة».

وعند كلمة «الجلّة» سألنى أحد الضيوف: ماذا تقرأ.. «كان علىّ أن أشرح قضية الغاز والجلّة باللغة الإنجليزية. تذكرت على الفور الكتاب القادم لأديبنا الرائع د. علاء الأسوانى. قال لى د. الأسوانى: إنه يُعد كتاباً بعنوان، غير قابل للترجمة».. وأن فكرة الكتاب جاءته من الصحفيين والأصدقاء الأجانب الذين يطلبون منه شرحاً لبعض الأشياء والأوضاع في مصر، وهى برأى الأسوانى أشياء لا يمكن ترجمتها.

لقد أدركت حجم المعاناة والإهانة في شرح ما قرأت.. سأبذل جهداً كبيراً في شرح كيفية قضاء الحاجة عند البقر والجاموس. وشكل الحاجة التى تم قضاؤها.. استدارة وارتفاعاً، ثم كان علىّ أن أشرح الطبيعة الفيزيائية للجلّة في المرحلة الطازجة والوسيطة إلى النموذج الاستهلاكى المعتاد وهو «الجلّة اليابسة»، ولصعوبة مفردات «الطازجة والوسيطة واليابسة»، فإن العامة من الفلاحين يختصرون تلك الصناعة في مرحلتين «الجلة الطريّة»

و«الجلّة الناشفة».

لقد استخدم أهالى بسيون القدماء وأحفادهم البسطاء «الجلّة» كمادة للوقود، كما استخدموا القش والحطب كمادة للتزود بالوقود، وتقاس وحدة «الجلّة» بالقرص، وتحتاج الوجبة الواحدة في إعدادها إلى عشرة أقراص من الجلّة. لم أشأ أن أترجم ذلك كله إلى من سألنى.. ولو شئت لما استطعت، ولو استطعت لما صدقنى سائلى ولاعتبر حديثى نوعاً من الدُعابة أو الإساءة أو هما معاً!

جلست أفكر في «طاقة الجلّة» بعد أن انتهت متعة الماريوت وفيينا وقهوة اللبن، وفيما أنا هائم في استجماع معرفتى بتلك الطاقة العريقة، كان ضيفى د. محمد البرادعى قد وصل إلى مدخل الفندق وفى صحبته زوجته السيدة عايدة الكاشف وشقيقه الناشر على البرادعى. نهضت لاستقبال د.البرادعى محييًا ومرحبًا، جلسنا في ردهة الاستقبال.. نتجاذب أطراف الحديث.

حدثنى د. البرادعى عن الملفات التى أدارها في الوكالة الدولية للطاقة الذرية - وعن جانب من الأوضاع في كوريا الشمالية وإيران وإسرائيل.. وعن حديثه مع الرئيس أوباما عن السلام والسلاح.. ومستقبل الأمن والسلم.

يا إلهى.. كانت معاناتى مع تلك التنقلات بلا حدود.. من بسيون إلى فيينا.. من جمع القش إلى انشطار الذرّة.. ومن الحطب إلى الطرد المركزى.. ومن تقريص الجلّة إلى تخصيب اليورانيوم!

* * *

قبالة فندق ماريوت فيينا تقع حديقة رائعة، يقع عند سورها الأيمن فندق إنتركونتننتال وعند سورها الأيسر هيلتون فيينا، ومن ثم فهى حديقة مناسبة تماماً لنزلاء الفنادق المطلة من أجل التريض والتجوال.

كانت الثلوج تهطل حين دلفت إلى مدخل الحديقة، ولكن البالطو المحلاوى الذى ارتديه كان حائط صد عملاقاً للرياح والثلوج معاً.

يمرق نهر الدانوب تلك الحديقة الرائعة.. ولأننى نشأت في بسيون على ضفاف نهر النيل، فأنا واحد ممن يرون في الأنهار دفئاً ووطناً.

لم يكن النهر كما رأيت في المرة السابقة، كان نصف نهر.. ذلك أن شاطئ الدانوب كان قطعة لا نهائية من الثلج.. ثمة لوحان ثلجيان كبيران وبينهما نهر، وبدا نصف النهر بين الثلوج كمن يبحث عن دفء أو يلتمس مرفأ ليستريح.

جلست وحدى أتأمل ذلك المشهد الساحر الساكن المهيب.. الشاطئ خال تماماً.. لا أحد يؤنس النهر في محنة البرد وتآكل الأطراف.. الذين عايشوه سباحة واستجماماً، طعاماً وشراباً، وحباً وغراماً، تركوه غارقاً تحت الصفر!

لم يكن نكران الجميل جامعاً لأصدقاء النهر، ثمة من خرجوا على ذلك.. وفدٌ رائع من البط كان يسبح في وقار.. كأنما هو استعراض منظم في دار للأوبرا لا سباحة هائمة على سطح نهر.

أدهشنى ذلك البط المجاهد، ذلك أن البط في قريتنا يولى الأدبار إذا ما هطل المطر أو زادت البرودة.. كانت أمى تعلن الطوارئ في تلك الأجواء وتنادى حشود البط نداءها الشهير «بيتك.. بيتك»، أما البط في فيينا فالنهر هو الشارع والبيت معاً!

قطع اندماجى في عالم البط قدوم رهط من اليابانيات التائهات على الشاطئ الجليدى للنهر، وكنت المنقذ لهن أو هكذا اعتقدت.. سألننى عن مكان يسمى «ليفى شتراوس».. وكعادتنا في مصر كان سؤالى وجيهاً للغاية: «هما قالوا لكم فين». أعطيننى الخريطة وبدأن الرسم بالأصابع والإشارة بالأقلام، وأعدت سؤالى لكن بدرجة أكثر بلاهة: «يعنى فين من هنا».. قالت لى إحداهن: هل أنت سائح أم تائه؟،

أقنعت اليابانيات بأن لدى معرفة واسعة بشؤون عديدة ليس من بينها الطرق والمواصلات.. وعدت أدراجى إلى الطبيعة..

لم تدم متعتى طويلاً.. ذلك أن صديقى الأستاذ عمرو عبدالحميد، كبير مراسلى «بى.بى.سى» في مصر كان يزور دارفور.. وكان في صحبة السيد عمرو موسى، وكانت طائرتهم على وشك السقوط بعد إقلاعها بقليل.. ورغم صداقتى الوثيقة والعريقة بعمرو عبدالحميد، غير أننى لم أشعر بالقلق، كل ما شعرت به أن عمرو الذى قضى خمسة عشر عاماً من حياته في مدن وبحيرات وأنهار روسيا يريد أن يقض مضجعى في فيينا.. انتبهت للمؤامرة.. أغلقت الهاتف وواصلت أراقب نصف النهر وأفواج البط.

بسيون - بودابست..
هناك جديد كل يوم

ما رأيته في مدريد، شاهدته مرة أخرى في بودابست، كان المشهد متشابهاً إلى حد التطابق.. قبل عام تقريباً، تشرفت بحضور محاضرة كبير العلماء العرب الدكتور أحمد زويل في مدريد، كنت جالساً إلى جوار السفير ياسر مراد، سفيرنا في إسبانيا.. وما إن انتهى الدكتور زويل من محاضرته العلمية حتى دوت القاعة بالتصفيق، ثم طلب رئيس الجلسة من العلماء الحضور أن يبدأوا النقاش.. لكن المفاجأة أنه لا أحد طلب النقاش.

كرر رئيس الجلسة وهو أيضاً رئيس الأكاديمية الإسبانية للعلوم طلبه من القاعة ببدء الحوار.. لكن لا حوار.. ولا نقاش.. ولا أى أيد مرفوعة.. استمر ذلك طويلاً حتى قام العلماء للسؤال والاستفسار.. كنا فخورين للغاية.. السفير وأنا وكل المصريين والعرب.. أن لدينا عالماً بوزن أحمد زويل.

المشهد ذاته تكرر في بودابست.. كان الدكتور زويل مدعواً إلى المجر لتسلم شهادة الدكتوراة الفخرية من جامعة «إلتى»، واسمها المعروف «ELTE UNIVERSITY»، وهو اختصار لاسمها الرسمى «EOTVOS LORAND UNIVERSITY»، وهى جامعة عريقة.. تحتفل الآن بمرور (375) سنة على تأسيسها.

ألقى الدكتور أحمد زويل محاضرته العلمية، ثم دوت القاعة بالتصفيق، ثم طلب رئيس الجامعة من الحضور بدء النقاش.. لكن أحداً لم يرفع يده.. وتكرر الطلب عدة مرات حتى كاد رئيس الجلسة ينهى اللقاء بعد المحاضرة.. كان المشهد الذى عايشته في مدريد هو ذاته الذى وجدته في بودابست.

كنت فخوراً أن أجد تلك المسافة الكبرى بين واحد منا وبينهم.. ولقد كان ذلك واضحاً في حفل العشاء الذى أقامه السفير على الحفنى، سفيرنا المتميز في المجر.. وحضره سفراء المغرب والجزائر وفلسطين ورموز الجالية العربية.

قال لى الدكتور أحمد زويل، إننى مأخوذ بفكرة التقدم والخطوات التى تتخذها الشعوب للأمام، كما أننى مأخوذ أكثر وأكثر بمعالم ذلك الجسر الحضارى الذى يصل التخلف بالتقدم.. والذى يرمم ما بين هبوط وصعود الأمم، وفى حالة المجر، كلما أتيت إليها وجدت جديداً.. ثمة مبان أكثر جمالاً ورونقاً، وتاريخ تجرى استعادته.. ومشروعات تتوالى في دأب وأمل.

ثم أبطأ الدكتور زويل الخطى وقال، إن الشارع الذى نمشى فيه الآن لم يكن كذلك.. ولا واجهات المبانى كانت كذلك.

صحيح أن عدداً من المجريين ربما يجدون حنيناً إلى الشيوعية وربما يجدون إحباطاً من المسافة الطبقية بين الأغنياء وغير الأغنياء.

وربما يجدون كذلك قلقاً بشأن الحاضر والمستقبل إزاء نظام رأسمالى لا يقف مكانه.. وقد تطيح تقلباته بمدخرات الناس وممتلكاتهم.

لكن المؤكد هنا أن الناس تفكر في ذلك وهى تخطو للأمام.. إنها تناقش ذلك وهى تعيد بناء الدولة.. وإذا جئت إلى بودابست بعد عام ستشعر بسهولة أن ذلك العام لم يكن ضائعاً من عمر الشعب.

بسيون - بوخارست..
عند الجيران ثلاث آلاف غرفة نوم

■ كان في تخطيطي قضاء إجازة عيد الأضحى في بسيون، لكني لم أذهب إلى بسيون، وإنما تشرّفت بصحبة كبير العلماء د. أحمد زويل، إلى بودابست وبوخارست.. وهكذا حافظتُ على حرف «الباء»: بسيون ـ بودابست ـ بوخارست.

■ أقمتُ في غرفة رائعة، في فندق «جي. دبليو ماريوت»، تطل مباشرة على قصر الرئيس الروماني الأشهر شاوشيسكو.. كان التاريخ ماثلاً أمامي ليل نهار.. فقط أزيح ستارة الغرفة لأجد جانباً من تاريخ العالم المعاصر.. من الشيوعية والحرب الباردة.. من السلطة والشهرة.. من الثروة والثورة.. من رجل كان يهزّ جميع شوارب رومانيا بنظرة واحدة، رجل تبحث عائلته الآن عن رفاته بعد إعدامه دون جدوى!

■ كنت في غرفتي كأننا في رواية.. وكل نظرة ألقيتها على القصر العظيم كانت ترتدّ إليَ حاملة قصة قصيرة وعبرة كبيرة.

■ يا إلهي.. كيف انطفأت أضواء القصر العظيم.. كيف عاش ومات سيّد القصر، من رجل يملك الأرض ومن عليها إلى رجل لم يتمكن من الهرب مع زوجته فَيَسقُط في قبضة الغاضبين.. فلا قصر من الأحلام ولا سلالم من رخام ولا مقابض من ذهب.. لا شيء من أي شيء.. فقط محاكمة سريعة وطلقات أسرع ورحيل عاصف؟!

■ كلما نظرت إلى قصر شاوشيسكو أصابني قسطٌ من اليأس والزهد.. ما الحياة.. وما النجاح.. وما السلطة.. وما الشهرة.. وما المجد.. ما الذي يبقى من كل صراعات الحياة ومناصب الدنيا وحروب الليل والنهار؟!

■ إن قصر شاوشيسكو، بناه الرئيس الرومانى شاوشيسكو ليكون ثانى أضخم مبنى في العالم بعد البنتاجون.. يحتوى قصر شاوشيسكو على: ثلاثة آلاف غرفة، وسبعين صالة، وأربعين قاعة مؤتمرات، وقاعتى برلمان. ويحتوى القصر على عدد من المطاعم وصالات رياضية وفنادق وشقق فخمة للضيوف ومهبط طائرات، وطائرة خاصة جاهزة على مدار الساعة للإقلاع في أى زمان وإلى أى مكان.. لكن قصر شاوشيسكو سرعان ما أصابه الخراب وغادر صاحبه إلى الأبد.. دون صراخ أو دموع أو شعور واحد بالفقدان!

■ نزلت من غرفتى في صباح باكر، وقضيت بعض الوقت في «تمشية» حول القصر.. ثم ذهبت من المبنى إلى المعنى.. ما الذى حدث لهذا الرجل؟ إن شاوشيسكو بدأ عظيماً.. بنى دولة رومانيا الحديثة.. بنى أكبر عدد من مصافى البترول في العالم، شيّد السكك الحديدية، ومصانع السيارات والشاحنات والحافلات والمركبات الضخمة، وأقام محطات الطاقة ومفاعلات نووية ومحطات تحلية المياه، وجعل الصحة والتعليم بالمجان وبمستوى رفيع.. أسس صناعات السلاح والمعدات العسكرية.. وحافظ على مكانة لرومانيا بين الشرق والغرب، ثم إن هذا الرجل قام بسداد جميع ديون رومانيا الخارجية ولم يبق على بلاده دولار واحد.

■ ما الذى يجرى لبعض الساسة والقادة.. كيف لرجل فعل كل هذا أن ينسف كل هذا.. كيف يتحول الصانع إلى قاتل.. كيف يمشى السياسى على إنجازاته بأستيكة عملاقة لا تبقى ولا تذر؟!

مهرجان بسيون السينمائي الدولي

سوف يسخر الكثيرون من عنوان هذا المقال، أو أنهم سيعتبرونه مقالاً جاذباً في الكتابة الساخرة.

لن يأخذ أحد ذلك على محمل الجد، وإذا قرأ هذا المقال مائة ألف قارئ.. لن يأخذ قارئ واحد ضمن المائة ألف هذا المقال بالجدية الكافية.. بل ستنطلق على الفور مائة ألف ضحكة للقفشة الجديدة في هذا العنوان.

«بسيون» مركز ريفي ساحر تتوسطه مدينة.. ضمن محافظة الغربية، ولكن السخرية لا تخص بسيون وحدها.. ماذا لو كان «مهرجان منيا القمح السينمائي الدولي» أو كان «مهرجان دكرنس السينمائي الدولي» أو «مهرجان حوش عيسى السينمائي الدولي» أو كان «مهرجان ديروط السينمائي» أو «مهرجان بني مزار السينمائي الدولي».. ستكون السخرية من نصب الجميع.

2

ما الذي جرى لبلادنا؟.. كيف أصبحت كل مصر خارج القاهرة والإسكندرية والأقصر قطعاً متصلة من العار! إذا جرى إلصاق أي شيء حضاري بها صار الأمر نكتة.

ماذا لو كان «بينالي بسيون الدولي».. أو معهد بسيون للدراسات الاستراتيجية، أو وكالة بسيون لعلوم الفضاء.. إنها كلها نكات.. وربما يعتبرها بعض القراء سفهاً في التفكير وشططا في الحديث.

3

لكن العالم ليس كذلك.. هل يمكن أن يقول لي أحد ما هي العظمة الاستثنائية في

مدينة كان الفرنسية.. لماذا لا يسخر الناس إذا قلنا «مهرجان كان السينمائى الدولى».. إن مدينة «كان» مدينة عادية.. مدينة صغيرة وشاطئ محدود وعدد من الفنادق وسط طبيعة أوروبية معتادة.

إن نسبة «كان» إلى العاصمة باريس مثل نسبة «بسيون» إلى العاصمة القاهرة، لكن أهل باريس لا يضحكون إذا استعدت بلادهم لمهرجان كان.. لكن أهل مصر جميعاً سيقعون على الأرض من الضحك إذا قلنا مهرجان بسيون السينمائى.

المؤكد أننا بالغنا كثيراً في احتقار بلادنا.. في احتقار مدننا وقرانا.. في احتقار محافظاتنا المسماة بالأقاليم والأرياف.

أذكر أننى حين أذهب من القرية إلى المركز يقولون: «الفلاحين وصلوا»، وحين أذهب من المركز إلى طنطا يقولون: «الفلاحين وصلوا» وحين أذهب من طنطا إلى القاهرة يقولون: «الفلاحين وصلوا» وحين أذهب من القاهرة إلى أوروبا أو أمريكا يقولون: «الفلاحين وصلوا»..!

كيف أصبحت كل محافظات مصر.. مثاراً لعدم التقدير وعدم الاكتراث، كيف أصبحت كل محافظات مصر.. مجرد «فلاحين وصعايدة».. كيف انطلقت الحضارة من أقاليم بلادنا قبل آلاف السنين، وكيف خرجت أقاليم بلادنا من الحضارة بعد آلاف السنين؟!

الفصل السابع..

مذكرات محدودة

قصــور وقبــور..
قصة الأميرة فريال

تحدثت إلى الأميرة فريال في شهر رمضان، كانت الأميرة في سويسرا ولكنها لم تكن في بيتها ولا في بيت أخيها الملك السابق أحمد فؤاد.. بدت الأميرة كعادتها بشوشة ضاحكة.. وبعد وقت طويل من الحديث العام فاجأتني بالقول: أنا في المستشفى الآن.. قال لي الأطباء: إن الوضع سيئ للغاية، وليس أمامي في رحلة المرض إلا شهران أو ثلاثة، وأنا سعيدة بسماع صوتك.. وأرجو أن تتصل بي كثيراً الأسابيع القادمة.. لأنني لن أكمل هذا العام.

(2)

كانت صدمتي بلا حدود.. بالمرض وبالمرحلة الأخيرة منه.. وبتقديرات الأطباء حول الموت القادم بسرعة الضوء!

استجمعت كل قواي لأقول ما يقال في مثل هذه المحن: يا سمو الأميرة هذا كلام أطباء، وأنا أعرف عشرات الأشخاص الذين عاشوا سنوات مديدة، رغم تقديرات الأطباء، ثم إنك في حالة معنوية جيدة وهذا هو الأهم.. لا داعي للقلق، ستكونين في أحسن حال.

ردت الأميرة فريال: أنا أقدر مشاعرك ومحاولتك للتخفيف عني، لكنني أعرف وضعي الصحي جيداً.. وأعرف أنني سأموت خلال شهرين أو ثلاثة.. ثم توقفت وقالت: هل تظن أنني خائفة من الموت؟.. أبداً، أنا غير خائفة نهائياً.. أنا لم أفعل في حياتي أشياء تجعلني أخاف الآن.. أنا لم أظلم أحداً.. أنا لم أنهب ولم أسرق.. عشت حياتي كلها مظلومة لا ظالمة.. وعانيت معاناة شديدة.. ليس في حياتي إلا المشقة والتعب.. ثم توقفت الأميرة قليلاً، وعادت لتقول، حتى لو كانت عندي أخطاء وذنوب.. الحمد لله.. فقد أديت فريضة الحج مع أخي أحمد فؤاد.. وأنا لم أفعل شيئاً بعد الحج.. وأنا سعيدة بهذا الختام وجاهزة للقاء الله.

(3)

بدأت علاقتى بالأميرة فريال على إثر حديث تليفزيونى أجريته في باريس مع فضيلة فاروق «الزوجة السابقة لأحمد فؤاد»، كان حديث «الملكة فضيلة» مدوياً.. واهتمت به أوساط متنوعة في عدة دول.. وقد تحدث إلىّ أفراد من عائلات آل سعود والصباح وآل نهيان وآل ثانى من اجل دعوتها، كنت قد تعرفت إلى فضيلة فاروق عن طريق محاميها «إيلى حاتم».. ويعمل «إيلى حاتم» محامياً وأستاذاً للقانون وهو فرنسى لأب لبنانى وأم بريطانية لها أصول ملكية.. ويحضر «إيلى» بانتظام احتفالات العائلات المالكة السابقة والتى تمثلها رابطة في أوروبا.

وقد سمعت عنه كلاماً جيداً من أستاذه المصرى د. بطرس غالى، الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة.

(4)

أصبح «إيلى حاتم» صديقا لى.. وقد تعرفت عليه من خلال رجل الأعمال السعودى ماجد شربتلى الذى تربطنى بعائلته صداقة قديمة، وقد عرفنى «إيلى حاتم» بدوره على «رولان دوما» وزير خارجية فرنسا الأسبق، وكذلك «جان مارى لوبن» زعيم اليمين المتطرف في فرنسا والذى يشاركه «إيلى» العداء الشديد لإسرائيل.

ذات ظهيرة دافئة في باريس قال لى «إيلى»: هل تعرف الملكة فضيلة؟ قلت له: لا. قال: فضيلة فاروق هى زوجة الملك احمد فؤاد وام اولاده الثلاثة: محمد على وفوزية لطيفة وفخر الدين، وأنا محاميها، ويمكننى إقناعها بإجراء مقابلة تليفزيونية معك لقناة دريم، وذات ظهيرة دافئة تالية تقابلنا ثلاثتنا، فضيلة وإيلى وأنا، في فندق ماريوت الشانزليزيه.. حيث جرى التعارف وبدأت صلتى بفضيلة فاروق.

(5)

بدت لى فضيلة فاروق شخصية طيبة.. منضبطة في المواعيد ومجاملة في التعامل وفخورة بزواجها من أحمد فؤاد وكثيرة الحديث عن حماتها الملكة ناريمان، التقيت فضيلة فاروق أكثر من عشرين مرة كلها في باريس، وفى جميع المرات كانت فضيلة تكرر اسم الملكة ناريمان والدة احمد فؤاد عشرات المرات في كل لقاء.. لكنها لم تذكر أبداً اسم الأميرة فريال شقيقة أحمد فؤاد.. ولو مرة واحدة!

كانت فضيلة تخشى أن تذكر اسم الأميرة فريال بسوء فتظهر امامى بما يخالف شخصيتها التى حافظت عليها طيلة اللقاءات.. وربما كانت قلقة من احتمال أن أكون حليفاً خفياً للأميرة فريال.

كانت فضيلة تكرر كل خمس دقائق تقريباً صلتها بالملكة ناريمان، ودورها في إعادة ناريمان إلى ابنها أحمد فؤاد، وعن مباركة ناريمان لزواج فؤاد وفضيلة وخشيتها عليهما من الحسد!

وتقديرى أن فضيلة كانت تشعر بأزمة حقيقية داخل أسرة محمد على، ولأنها ليست مصرية ولم تكن مسلمة ولا هى من أسرة مالكة ولم تعش يوماً واحداً في قصور المملكة المصرية.. ولم تشهد الملك فاروق ولم تأنس بالأميرة فريال.. فقد اعتمدت فضيلة في كل شرعيتها على اسم الملكة ناريمان.

(6)

كان الكثيرون في باريس والقاهرة يتحدثون أمامى بدرجات متفاوتة من الانزعاج تجاه فضيلة فاروق، كان البعض يشكك في إسلامها ويراها يهودية أظهرت الإسلام من أجل الزواج من الملك.

وكان آخرون يشككون في أصولها الاجتماعية ومكانتها الأدبية، وتحدث بعضهم عن أن والدها كان يمتلك محلاً للأحذية في ستراسبورج، وأن فضيلة قدمت وضعاً عائلياً غير حقيقى ليتناسب مع مقام العائلة المالكة المصرية، وتحدث ثالثون عن حجم المعاناة التى عاناها أحمد فؤاد مع فضيلة.. وعن مدى الأضرار المالية والنفسية التى لحقت به من جراء فضيلة.. وحكى رابعون قصصاً متنوعة عن إبداعات فضيلة في تحطيم أحمد فؤاد.. من إضاعة لأموال الأمراء السعوديين إلى تمزيق جواز سفر الملك، إلى منع الأبناء من رؤية أبيهم أحد عشر عاماً!

لقد كنت أسمع ذلك كله وأنا مذهول.. هل يمكن أن تكون فضيلة التى رأيت فيها الهدوء واللطف وحسن التعامل بكل هذه القسوة، وبكل هذا الحجم من الأخطاء.

(7)

تتحدث فضيلة باستمرار عن الملك والملكة، وأبدت لى رغبتها في وضع كتاب عن مذكراتها مع العائلة المالكة المصرية.. وقالت لى إن «فريدريك ميتران» الذى أجرى عدداً من

الحوارات مع العائلات المالكة السابقة قد نصحها بأن يكون هذا الكتاب مشروعاً لفيلم سينمائى عن حياة فضيلة.

أصبح «فريدريك ميتران» الذى يعرف «أحمد فؤاد» عن قرب منذ أكثر من ربع قرن وزيراً للثقافة في فرنسا، وأصبحت «فضيلة» نفسها طليقة «أحمد فؤاد»، والأغلب أن حلم «فضيلة» في إنتاج فيلم سينمائى عن حياتها مع أسرة محمد على قد ذهب إلى النسيان.

لم تذكر لى فضيلة رغبتها في القيام بدور في هذا الفيلم الذى تتمناه، لكن فضيلة التى كانت فائقة الجمال وقت زواجها من أحمد فؤاد تبدو كفنانة في المناسبات العامة، فهى ليست صارمة في ملابسها بالشكل الكافى، كما أن طريقتها نصف الرومانسية في الحديث يجعلها أقرب إلى كونها شخصية فنية من كونها شخصية ملكية.. زوجها ملك وحماها ملك وحماتها ملكة وأبناؤها الجيل المعاصر من أسرة محمد على.

(8)

كانت قضية الطلاق بين أحمد فؤاد وفضيلة في المحاكم الفرنسية والسويسرية.. بينما كانت فضيلة تنكر ذلك تماماً وتتحدث معى عن الكتاب وعن الفيلم وعن علاقتها المثالية بزوجها، وعن شعورها الكبير بالمسؤولية تجاه أسرة محمد على، وذات مساء التقيت فضيلة في بهو فندق إنتركونتيننتال في باريس.. ووجدتها تقول لى: لقد حدثتك من قبل عن الوفاة الغامضة للملك فاروق.. إنها ليست غامضة.. لقد قتله جمال عبدالناصر، وقالت لى: إننى لن أسمح بأن يذهب دم الملك فاروق هكذا، وأنا لدىَّ الوثائق التى تؤكد قيام المخابرات المصرية في عهد عبدالناصر بوضع السم للملك فاروق أثناء تناوله الطعام في أحد المطاعم الإيطالية.

كانت فضيلة بهذه القصة تريد أن تحدث قفزة في علاقتها بالأسرة المالكة.. أرادت أن تؤكد أنه لا صحة لموضوع الطلاق، وأنها ليست مجرد زوجة لأحمد فؤاد، ولكنها المدافعة عن سيرة العائلة، ومسيرة حماها الراحل الملك فاروق.

قال لى الأستاذ محمد حسنين هيكل: إن فضيلة لا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً، وقالت لى الأميرة فريال فيما بعد إن فضيلة لم تعد زوجة لأحمد فؤاد.. وهى لا تملك أى وثائق في أى موضوع.. وحديثها باسم العائلة المالكة أصبح مخالفاً للقانون.

(9)

حاز لقاء فضيلة في برنامج «الطبعة الأولى» ذيوعاً وقبولاً، وكانت فضيلة في غاية النشوة، فقد ظهرت أنيقة هادئة عاقلة.. ثم أنها ظهرت زوجة رائعة وأماً مثالية.. وسيدة حكيمة تملك الكثير من الصبر والعقل، وقد حدثتنى فضيلة بعد اللقاء سعيدة للغاية، ووضعت المقابلة على مواقع إلكترونية بعد أن وجهت خطاب شكر مؤثراً.

وبعد أيام قليلة من ذلك الوضع الرائق.. تحدث إلىَّ المهندس إيهاب شفيق، صديق العائلة المالكة، يعمل إيهاب شفيق مهندساً للديكور، وله سمعة مهنية متميزة داخل وخارج مصر، وقد عمل لفترة طويلة مع الأمير صدر الدين الأغاخان.

كان إيهاب شفيق، صديقاً مقرباً للملكة فريدة والصديق الأقرب لشقيقها شريف ذوالفقار، ثم أصبح الصديق الدائم للأميرة فريال، قال لى إيهاب شفيق: لقد شاهدنا لقاء فضيلة معك، والأميرة فريال مستاءة للغاية لأن كل ما قالته فضيلة غير صحيح، وأنا ادعوك للقاء من أجل إعادة تقدير الموقف.

يقيم المهندس إيهاب شفيق في شقة فاخرة في حى الزمالك، وللوهلة الأولى يمكنك أن تلمس الأجواء الملكية في المكان، ثمة ديكورات رائعة وقطع فنية باهرة، وثمة بروتوكول رفيع في الاستقبال والجلوس وفى وقائع الحوار.

(10)

قال لى المهندس إيهاب شفيق بعد أن عرض وجهة نظره في نقد حوار فضيلة، سأتصل الآن بالأميرة فريال في سويسرا وأعطيها لك.. لأنها ترغب في أن تقول لك بنفسها معاناة أحمد فؤاد مع فضيلة.

قالت لى الأميرة فريال.. أنا سألت عنك وأعرف عنك أشياء جيدة، ولكن تعرفت على هذه الـ.... المسماة فضيلة، ثم واصلت الأميرة.. أنا لا أحدثك كأميرة أخى ملك وأبى ملك، أنا أحدثك كإنسانة بسيطة وأنت فلاح وتعرف الأصول، هذه الـ.... دمرت حياة أخى، دمرت كل عائلتنا معه، إنها كاذبة وخادعة، وكل ما تقوله كذب، أنت لا تعرف فضيلة، إنها تبدو رقيقة وعاقلة، ولكنها على العكس من ذلك تماماً، والحمد لله فقد تخلصنا منها تماماً، لم تعد زوجة أخى، لقد حكمت المحكمة السويسرية بطلاقها التام والنهائى من أحمد فؤاد.

قلت للأميرة فريال، ولكن فضيلة قالت لى عكس ذلك، قالت الأميرة: من فضلك لا تقل كلمة «فضيلة»، اسمها لم يعد فضيلة، اسمها فرانس بيكار، وقد أعطيناها اسم فضيلة فاروق

لزواجها من أحمد فؤاد فاروق، لكن الآن وبحكم المحكمة تم سحب الاسم منها، وتعود لاسمها الأصلى فرانس بيكار، واستخدامها لاسم فضيلة أصبح مخالفاً للقانون وسارفع عليها دعوى قضائية لو استخدمته من الآن.

ثم سكتت الأميرة فريال بعض الوقت، وعادت لتقول: هل تظن أننى أكره هذه الـ...، لأننى اخت زوجها؟ هل تظن انها غيرة نساء.. او اننى اشعر أنها اخذت أحمد فؤاد منا؟ إذا ظننت هذا ساكون حزينة للغاية، وارجوك ان تتحدث إلى كل من تعرف في باريس أو سويسرا أو القاهرة، ثم قالت بانفعال: «ولماذا كل هذا.. ساطلب من اخى أحمد فؤاد أن يحكى لك بنفسه اسوأ سنوات حياته».

فى اليوم التالى اتصل بى المهندس إيهاب شفيق وقال لى إن الأميرة فريال اتفقت مع الملك احمد فؤاد ان يكون بينكما اتصال اليوم، ليؤكد لك بنفسه حقيقة الطلاق وتاريخ المعاناة، ثم أعطانى رقم الهاتف الخاص بأحمد فؤاد في سويسرا.

(11)

كانت «نيللى» السكرتيرة الخاصة للملك احمد فؤاد في انتظار المكالمة، وما أن سمعت اسمى حتى قالت لى: «أهلاً بك.. أصبحنا نعرفك من الأميرة فريال.. سأعطيك جلالة الملك».

جاء صوت الملك السابق احمد فؤاد عبر الهاتف من سويسرا قوياً ومنفعلاً، وفى حالة تأهب، وكانت تحيته تحمل قدراً من الخشونة.

قال احمد فؤاد: «أنا اعرف الصحفيين في مصر، ولا أعرف إذا ما يمكننى الثقة فيك أم لا»... ثم توقف وقال: «هل تفضل أن يكون حديثنا بالفرنسية أم بالإنجليزية»، قلت له: «إذا لم يكن ذلك مرهقاً لجلالتك.. فانا افضل العربية»، قال لى: «انا مصرى واتحدث العربية.. ولكننى في حالة غضب وانفعال لأننا نتحدث عن فضيلة، وانا اخشى الا اتحكم في ألفاظى وكلماتى باللغة العربية، لكن على اى حال حين اقول لك الآن أننى قد طلقت فضيلة نهائياً، وأن فضيلة لم تعد زوجة لى.. وأنا لن أعيدها زوجة ما حييت».

فهذا أمر واضح.. مرة أخرى.. لقد طلقت فضيلة، هذه عبارة واضحة لا تحتاج إلى ترجمة أو تفسير، وبالتالى كل ما قالته لك فضيلة لم يعد له معنى»، ثم قال أحمد فؤاد: سارسل لك عبر الفاكس بخط يدى قرار طلاقى من فضيلة وسارسل لك حكم المحكمة السويسرية بالطلاق، ثم واصل متاثراً: «إننى آمل أن أسمع صوتك مرة أخرى، لكننى لا أريد

أبداً أن أسمع اسمها في أى لحظة، وكان تأثر الملك السابق في حديثه عن زوجته السابقة كافياً للإحساس بحكم معاناة احمد فؤاد مع فضيلة.

(12)

أرسل أحمد فؤاد ما وعد، وقد عرضت وثائق الطلاق في برنامج «الطبعة الأولى» وعرضت مجمل رأى أحمد فؤاد وفريال في الرد على حديث فضيلة.

كانت فضيلة قد اتهمت الرئيس جاك شيراك بالاستيلاء غير القانونى على شقة أحمد فؤاد في باريس، وهى شقة فاخرة ذات مساحة كبيرة وأسقف مرتفعة تقع في مبنى عريق وسط العاصمة الفرنسية، يقدر البعض قيمتها بأربعة ملايين يورو، وقد سمعت في باريس أن ثمن الشقة كان إهداء من الأمير السعودى عبدالعزيز بن فهد.

قالت لى الأميرة فريال: إن فضيلة تكذب، ويبدو أن عقلها قد أصابه شىء، إن فضيلة أضاعت الشقة لأنها أخذت المال ولم تدفع، ولكن عقلها يصور لها أن جاك شيراك على خلاف معها، وأنه يضع فضيلة في رأسه، ولذا أراد شيراك أن يغيظ فضيلة فطردها من الشقة!

وواصلت الأميرة فريال: إن فضيلة تتخيل أشياء غير حقيقية، تتخيل أنها متزوجة من أخى وهى مطلقة، وتتخيل أن علاقتها بأخى نموذج للعلاقة الزوجية التى يُخشى عليها من الحسد، وهى في وضع طلاق وصراع عنيف منذ أكثر من عشر سنوات، وهى تتخيل أن أبناءها محمد على ولطيفة فوزية وفخر الدين، على علاقة رائعة بالوالد الملك، رغم أنهم لم يروا أباهم منذ أحد عشر عاماً، ما عدا فوزية التى ركبت القطار من استراسبورج - دون علم أمها - وذهبت لزيارة والدها في سويسرا، فعلت فوزية ذلك مرتين في أحد عشر عاماً!

وتتخيل فضيلة أنها لاتزال مرغوبة من الأسرة المالكة السعودية والأسرة المالكة المغربية رغم أنها لم تعد لها أى صلة بآل سعود أو بالبلاط المغربى.

ثم إن فضيلة في حديثها معك كانت عشوائية، تمتدح العائلات المالكة والثورية معاً، امتدحت آل سعود وأسرة محمد السادس بمثل ما امتدحت الرئيس السورى بشار الأسد والرئيس الليبى معمر القذافى.

وواصلت فريال: إن فضيلة تحكى باستمرار عن اسم ابنتها «فوزية لطيفة» وابنها فخرالدين اللذين ولدتهما في ضيافة الأسرة المالكة المغربية، ولذا أعطيت فوزية لطيفة اسماً

مركباً.. حيث الاسم الأول «فوزية» ينتمى للعائلة المالكة المصرية والاسم الثانى «لطيفة» هو اسم زوجة الملك الحسن الثانى والدة الملك محمد السادس.

كما أن الملك الحسن الثانى هو من سمى «فخرالدين» بهذا الاسم تقديراً لأحد الأمراء الكبار في التاريخ العربى، لكن فضيلة لا تحكى أبداً عن منع استقبالها في قصر محمد السادس، وعن قطيعة العائلة المالكة المغربية التامة لفضيلة، ومنع الدعم المالى والمعنوى لها.

(13)

التقيت الأميرة فريال للمرة الأولى في منزل المهندس إيهاب شفيق بالزمالك، وقد حضرت اللقاء سيدة أرستقراطية من عائلة الألفى.

حكى لنا المهندس إيهاب شفيق عن موقف لا يُنسى جرت وقائعه في هذا المنزل، كان ذلك في عام 1986، وكانت ملكة الدنمارك مارجريت الثانية في زيارة إلى مصر، وأعجبتها الأجواء في مصر فقررت مد الزيارة.

وكان أن اتصل الأمير صدر الدين الأغاخان بالمهندس إيهاب شفيق وطلب منه إقامة حفل استقبال على شرف الملكة مارجريت، وبدوره وجه المهندس إيهاب الدعوة إلى الملكة فريدة وعدد من الشخصيات البارزة، ولكن الحفل لم يتم، فقد كان ذلك يوم أحداث الأمن المركزى الشهير، وجاء على الفور طاقم من الرئاسة المصرية وطلبوا عدم إكمال الحفل وتأمين عودة ملكة الدنمارك إلى بلادها، وجرى تجهيز طائرة هليكوبتر أقلعت من نادى الجزيرة بعد أن قطعت الملكة مارجريت وسفيرتها وطاقمها الطريق من منزل إيهاب شفيق إلى أسفل كوبرى الجلاء إلى ما وراء فندق الماريوت إلى نادى الجزيرة مشياً على الأقدام، كانت الأميرة فريال تسمع تلك القصة المثيرة التى شهدتها والدتها الملكة فريدة وكأنها تقول: ثمة أقدار تواجه كل فرحة ملكية تخص عائلتها!

اتفقت مع الأميرة فريال على إجراء حوار في اليوم التالى، حجزت قناة «دريم» جناحاً مميزاً في فندق ماريوت حيث جرت وقائع الحوار.

تكره الأميرة فريال أضواء الكاميرات، وتخشى من التعامل مع أى تجمع من الناس، وهى تفضل اللقاءات الثنائية والثلاثية، ولا تحب الجلوس مع الغرباء، وحين أقمت حفل غداء على شرف حضورها في فندق شيراتون القاهرة، قالت لي: لا تدعو عدداً كبيراً من الناس «أنا

أختشى، وهى عبارة قديمة تقولها الجدات في الريف المصرى دلالة على الحياء الزائد.

فى فندق الشيراتون جلسنا في مطعم علاء الدين، وكان حاضرا الأصدقاء مجدى الجلاد وعمرو خفاجي ودينا عبدالرحمن وحنان مطاوع وعواطف سراج الدين وتصدر المائدة الشاعر الكبير فاروق شوشة، وسألتنى الأميرة فريال عن الجهة المقابلة للفندق، قلت لها مبتسماً هذا هو النيل، قالت ساخرة: وهل انا قلت لك إنها ترعة، انا اسألك عمّا وراء النيل.

لقد تواصل ذلك الأداء الطيب الساخر حين ذهبت معها في صحبة المهندس إيهاب شفيق إلى منتجع دريم لاند في مدينة أكتوبر، حيث اقام لها الدكتور أحمد بهجت والسيدة زوجته، مادبة غداء.

كنا على الطريق الدائرى للقاهرة وسط زراعات الحقول التى تمزقها المساكن، قالت لى الأميرة فريال، ما هذا المزروع هناك؟ قلت لها: هذا كرنب.

قالت لي: هل تظن أننى لا أعرف الكرنب، انا اشتغلت في الفلاحة وزرعت سنوات طويلة، انا أسألك عما وراء الكرنب والبرسيم!

وصلنا فندق هيلتون دريم قبل موعدنا، فجلسنا نحتسى القهوة قبل مجيء الدكتور بهجت، سألتنى من جديد: ما هذا؟ قلت لها: هذا ملعب جولف، قالت يا إلهى، هل تظن أننى مثلك، فلاحة قادمة من بسيون لا اعرف ملاعب الجولف، انا اسألك عن نوع الشجرة التى أمامنا!

زارت الأميرة فريال دريم لاند مرة ثانية، وجاءت في صحبة ابنتها الدكتورة ياسمين وزوج ابنتها الدكتور على شعراوى، حفيد السيدة هدى شعراوى، وقد دعاهم الدكتور بهجت إلى جولة وغداء، وعادت الأميرة لتحكى لى عن يوم رائع قضته هناك.

(14)

مضت أيام وعدت لألتقى الأميرة فريال في منزل الدكتورة لوتس عبدالكريم، والدكتورة لوتس مثقفة وسيدة مجتمع مرموقة، وهى صاحبة مجلة شموع، ولها كتاب عن الملكة فريدة بعنوان: «الملكة فريدة وأنا»، وقد دعت في حفل العشاء الذى أقامته في منزلها في حى المعادى الكاتب أنيس منصور، والدكتور بطرس غالى والفنان يحيى الفخرانى وزوجته الكاتبة لميس جابر، مؤلفة مسلسل الملك فاروق.

سأل الفنان يحيى الفخرانى الأميرة فريال عن الخاتم الملكى الذى ترتديه، وسألته بدورى عن فيلم محمد على الذى يستعد لبطولته، وأما مصور الأهرام أيمن برايز فقد كان مشغولاً كعادته بالتقاط كل الاحتمالات التى يمكن أن تكون صوراً!

(15)

مضت أسابيع وذهبت إلى باريس، اتصلت بالأميرة فريال في سويسرا وأبلغتها خريطة سيرى في فرنسا، قالت لى: إننى قادمة إليك سأركب القطار من جنيف إلى باريس بعد يومين.. سأتي لزيارة صديقة لى من أميرات آل سعود.

انتظرت الأميرة فريال في فندق «البرنس دوجال» في شارع جورج الخامس وسط باريس، جاءت الأميرة في موعدها ترتدى بالطو ثقيلاً تحته ملابس شبه رياضية، دلفنا إلى حديقة البهو في البرنس دوجال، حيث واحد من أجمل مطاعم العاصمة الفرنسية، وهناك أغلقنا الهواتف المحمولة وبدأنا الحديث في كل شىء، كانت الأميرة تتحدث معى وكأنها تلقى حديث الوداع، صفاء وتدفق وتنوع وتركيز، تحدثت عن فاروق وفريدة، وعن ناريمان وأحمد فؤاد، عن إخواتها وعماتها، عن الثورة والمنفى.. عن فضيلة وفوزية لطيفة.

(16)

حل شهر رمضان، وجاءت معه الأشهر الأخيرة من حياة الأميرة، وبعد لقائنا في باريس، جاء اللقاء الأخير في مسجد الرفاعى، ماتت البهجة وسكتت الأميرة الرائعة إلى الأبد، جاءت في نعش يحمل علم مصر القديم.

وجاء في مقدمة النعش أحمد فؤاد وياسمين ابنتها، في مشهد متكرر منذ الثورة، مشهد الدفن لأفراد أسرة محمد على واحداً تلو الآخر.

كانت زيارات أحمد فؤاد وفريال المشتركة إلى مصر في السابق لأجل الدفن باستمرار، وهذه هى المرة الأخيرة لهما معاً، واحدة إلى أعلى وواحد إلى الأمام، وبينهما نعش!

دفنت الأميرة إلى جوار أبيها، وجلس أحمد فؤاد يتذكر رحلة موجعة للعائلة، من القصور إلى القبور.. من مملكة ضائعة في مصر إلى شقة ضائعة في باريس.. وابنة بعيدة في استراسبورج!

قالت لى نيللى، سكرتيرة الملك السابق أحمد فؤاد، في العزاء الذى أقامته العائلة في فندق

سميراميس: انا اعرفك جيداً من الأميرة فريال، وقال لى الملك احمد فؤاد: كنا نتوقع حضورك، نشكرك على مجيئك، قلت له: رحم الله الأميرة والبقاء لله.. حقاً.. يا لها من عبارة جامعة مانعة.. البقاء لله وحده.

الفهرس

مصر الكبرى

أحمد المسلماني

تصميم الغلاف كريم آدم

" يا لها من مفارقة مذهلة.. لصوص يهاجمون السرقة، وحمقى يطاردون الجهل، وعصاة يدعون إلى مملكة الجنة"

" سوف يتوقف التاريخ طويلاً أمام حسني مبارك.. كيف أمكن لهذا الرجل أن يمضي مع رجاله فوق أسطول من الجرافات.. قطعت ثلاثين عامًا من الإزالة البطيئة المتواصلة.. لنجد مصر في عام 2011 مليون كيلومتر مربع من الأرض الفضاء"

" لا خطوة لنا إلى الأمام دون الترميم النفسي لمصر.. أن يُصاب المصريون بالغرور والاستعلاء.. أن يشعروا أنهم أعلى وأسمى من الآخرين.. إننا نحتاج إلى تأسيس نظرية نصف عنصرية تقوم على العظمة الاستثنائية للمصريين"

" لقد مثّل دخول الإسلام إلى مصر عودة الروح لحضارة منهكة.. لم يكن سكون المصريين إزاء المجددين العرب سكون الخائف والمستسلم..

بل ترحيب من يستعد لقيادة الحضارة الإسلامية الجديدة، وقيادة القادمين أنفسهم في المعارك العالمية الكبرى التي خاضتها الحضارة العربية الإسلامية في حطين وعين جالوت بقيادة مصر".




حصريات


مجلة
الابتسامة